

اعتقادات
في مواجهة مصروفات

رئيس يلسين

ترجمة محمد هلال

Ha

Bibliotheca Alexandrina
0129353



إعترافات
في مواضيع مطروحة

بُوريسْ يِلْتِسِن

إِعْتِرَافَات فِي مَوَاضِيَعٍ مَطْرُوحَةٍ

تَرْجَمَةٌ مُحَمَّدٌ هِلَالٌ



الكتاب	اعترافات في مواضيع مطروحة
التأليف	بوريس يلتسين
الترجمة	محمد هلال
الناشر	دار الفارابي - بيروت - لبنان ص.ب. ١١/٣١٨١ - ت: ٠١/٣٠٥٥٢٠
التنضيد	شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل.
الطبعة العربية	الأولى ١٩٩١
	جميع الحقوق محفوظة

مقدمة الطبعة العربية

١ - كان يمكن للمؤلف أن يسمي سيرة الأشهر القليلة التي يستعرضها: «صراعي من أجل الديمقراطية». ولعله كان يتمنى هذا العنوان لسيرة حياته ذاتها. ولكن قبل أن يترجم الكتاب إلى العربية كان مؤلفه، الذي أصبح يتمتع بكامل صلاحيات رئيس جمهورية روسيا الاتحادية، قد ألحق بنفسه مهمات رئيس وزراء الجمهورية وأضاف إليها صلاحيات استثنائية واسعة منحه إياها برلمانها بصورة برلمانية جداً.

هل تتناسب الحالة التي وصل إليها يلتسين بعد سنتين من الحكم مع الشعار الدائم لمعركته السابقة؟

اعتراضان أساسيان يقدمهما الكاتب على قيادة الحزب الشيوعي السوفييتي. الأول هو تأمر القيادة ضده، وضد كل معارضة، وقمعها له، والثاني هو مركزة الصلاحيات الحزبية والتنفيذية في شخص واحد هو السكرتير الأول للحزب كله أو للإقليم أو المدينة وهلم... وفي الحالتين وجد عوارض انزلاق خطير من الديمقراطية الفتية إلى الديكتاتورية.

ولكن... ها هو، بعد سنتين على هذا الكلام، يتخذ بنفسه قراراً بحل الحزب كله. وفوق ذلك يجمع في يديه كل سلطات جمهوريته تقريباً! هل من تفسير يتجاوز القول البسيط بأن الصراع من أجل الديمقراطية هو دائماً قضية المعارضة، وما أن تصل إلى السلطة حتى تدوس ماضيها وتُسقط الراية في أكف جديدة؟ مهما كان مستوى الواقعية التجريبية في هذا القول، وفيه ما يكفي من الوعي بقوة المصالح وضعف الكائن، إلا أنه لا يجب على السؤال المحدد في الوضعية المحددة التي نحن بصدد تلسمها.

يلتسين المتمرد على الحزب، ثم الناقم على قيادته والشاهد على ممارساته السلبية، ثم المدعي العام ضده، ثم صاحب قرار إزاحته من الحياة السياسية... يلتسين هذا هو ابن هذا الحزب ووريث عقلية قيادته وممارستها. لا لأن الكثير من قراراته تبدو عليها بوضوح ردة الفعل - وهو الذي يصنف نفسه انفعالياً - ولكن لأن هدف القرار وطريقة اتخاذه وصيغة تنفيذه كلها محكومة بتلك الروح التي لا تذكر إلا بما كان يتمرد هو نفسه عليه: الإلغاء، تذويب الآخر فكرياً وتنظيماً وممارسة - وهل تتفوق هذه الآلة على الستالينية إلا بالإبقاء على حق التكاثر البيولوجي؟ ليس القصد من هذا القول تهمة أو إدانة لشخص، مهما كان دوره. ولكن للإقرار بأن تلك الصيغة من الممارسة الحزبية لم تنتج إلا أدواراً متشابهة تارة في السلطة وطوراً في المعارضة أو في العالم الآخر: ستالين وتروتسكي، خروشوف وستالين، بريجنيف وخروشوف... وأخيراً يلتسين وخصومه، وكلاهما في موقعي السلطة والمعارضة معاً. وتلك رموز أكثر تعبيراً لأنها الأوسع انتشاراً ليس إلا.

لذلك لا عجب في هذا الاستنتاج العجيب: يلتسّم هو الحزب في موقع النقيض. هو الذي يحاكم وهو الذي يحاكم في أن.

٢ - ولكن عندما كتبت هذه السيرة القصيرة لم يكن يراود صاحبها حلم بهذا القدر من السلطة! ولم يكن يطمح إلى تحولات بهذا القدر من الجذرية. لذلك لن نجد في الكتاب إلا المؤامرات التي تحيكها الأجهزة الحزبية وقيادات الحزب وبطولات إفشالها. وقد يكون هناك ما يبرر جزئياً هذا التناول للأحداث بالنسبة لكتاب سيرة مقتضبة. إلا أن الغائب الكبير عن هذه الصراعات وأهدافها هو الوطن والإنسان. ماذا يراد لهما؟ الصراعات المختلفة ضد السلطة تتخذ مضامين مختلفة. ومحاولة تجريد «الجهان» و«أمثلة» الديمقراطية ليست بالضرورة محاولة إيجابية. هناك معيار للحكم، واقعي وتاريخي: ما هو البرنامج الموجّه لهذا الصراع؟ وما هي احتمالات تبلور الأهداف البعيدة المدى في هكذا برنامج؟

هنا نجد المؤلف ينسحب من فراغ إلى فراغ. إذا كان الهدف هو الخلاص من قمع الجهاز الحزبي والإداري فما هو السبيل إلى ذلك؟ أهو إصلاح وتطهير أم تغيير جذري في السلطة؟ وفي الحالتين لا بد من العودة إلى نقطة الانطلاق: من أجل ماذا وبأية وسائل؟

هناك وجوه عديدة للاتفاق مع الكاتب. فالثغرات التي حملتها البيريسترونيكا، بوصفها علاجاً، كانت عديدة وخطيرة. المروحة في الإصلاح كانت قاتلة للاقتصاد والادارة. و«الحملات» الديمقراطية الاعلامية كانت أقرب إلى شكلية غوغائية منها إلى التنظيم العميق لأسس المجتمع عن طريق الديمقراطية ومن أجل تعزيزها، فالصورة

الديمقراطية الفوقية لم تتركز إلى ثبات الدعم في قلب المجتمع ومؤسساته وآليات الفعل الاقتصادي والسياسي... كل هذا صحيح. ولكن هل يكفي أن ينتزع يلتسين مشروعيته السياسية - كما يطالب في كتابه - لكي تنكشف حلول هذه العضلات من تلقاء ذاتها؟

من الظلم طبعاً أن نجرد الكاتب من أي تصور برنامجي وتقليص رقعة نشاطه السياسي إلى خانة الصراع مع الأجهزة وحدها. فهذا الصراع لم يكن ليحصل أصلاً لولا خلاف على المفاهيم. هذا إذا استبعدنا فكرة أن كل الصراع هو من أجل السلطة، وهو ما استبعده فعلاً، رغم أن بعض مقاطع الكتاب توحى بما يشبه ذلك في اللاوعي على الأقل، (أنظر صفحة ٥٢ - ٥٥ حول صيغ الترقيات والمقارنات التي يعقدها، ناهيك عن الخيط الذي يخترق روح الكتاب كله: غورباتشوف - يلتسين). والصراع على المفاهيم ينقلب في هذه السيرة دائماً إلى مواجهات حاسمة. كأنما موازين القوى لا تتكون إلا فجأة في لحظة الاحتدام النهائي خارج التراكم البطيء في الوعي. أو كأنما هي قائمة منذ زمن بعيد في المجتمع ولكنها مكبوتة وممنوعة من التبلور، فما أن يبرز «البطل - الفادي» حتى تنتهك قشرتها الواقية وتصرخ في وجه التاريخ: هاك المسار الجديد.

لذلك يخبو انعكاس الفعل الاجتماعي الكامن والمتبس وتتضخم البطولة الدراماتيكية الواضحة في وعي المؤلف. فالمنعطفات عنده تحوّل الناس جميعاً إلى كائنات أسطورية، دفعة واحدة ودون مقدمات: متآمرين وضحايا - الثنائية المانوية ذاتها محمولة فوق التاريخ إلى الاجتماع السياسي.

٣ - مع ذلك، ظاهرة يلتسين مألوقة في التكرار، وجديرة بالتحليل الملموس. فهذا الخارج من صفوف الحزب العليا يحشد في سنوات قليلة قوة تطيح بإحدى أرسخ البنى السياسية في العصر الحديث.

لقد وصلت أزمة المجتمع والسلطة قبل الپيرسترويكيا مرحلة التعفن النهائي. والحل الذي قدمته سلطة الپيرسترويكيا كان حلاً ناقصاً كشف الأزمة ولم يجرؤ على علاجها. وإذا بيلتسين يخرج من صفوف السلطة ليقول: لا! لم يعد القديم محتلاً وها هو الاصلاح يتعثر ويتحول إلى مهادنة مدروسة مع هذا القديم، وإن تكن مهادنة متوترة ونقدية. المطلوب إزاحة كابوس الماضي بكل رموزه الحية! ومن الطبيعي، بعد تأزم الحل المقترح من قبل الپيرسترويكيا، أن يتحول الناس إلى بديل آخر. لم تتجاوز الپيرسترويكيا نفسها في العمق لتتقدم مقنعة في أي ميدان منذ سنة ١٩٨٥، إلا في ميدان تعديلات الوزارات وأعضاء قيادة الحزب. ولم تقدم إنجازاً عملياً كبيراً إلا المكاشفة، وهي مهمة جداً، لكنها سريعة التحول ضد مطلقها إذا اكتفوا بها. فكشف النواقص يجب أن يؤدي إلى تحسين شروط المجتمع وإلا فسلح الديمقراطية والمعرفة لا بد أن ينتقل إلى الكشف عن أسباب المعوقات الجديدة. هكذا سقطت الپيرسترويكيا في أسر السجين الذي أطلقته: الوعي. فهل يقدم يلتسين لهذا الوعي ما يجعله حليفاً ثابتاً أم يتوقف به في حالة الرفض السلبي للقديم، وعندئذ يسقط هو نفسه ضحية مراوحة جديدة وعجز جديد؟

من هنا أهمية هذا الفراغ الذي يحسه القارئ بعد أن يستلقي برأسه قليلاً لاستخلاص عبرة الكتاب: غياب الهدف الكبير الذي يفرض المنعطف ضرورة صياغته.

٤ - قد يعلق قارئ أن في هذا القول تجرُّ واستباق لزمن الكتابة، فما كان مطلوباً سنة ١٩٨٩ - زمن ولادة الكتاب - لم يعد هو نفسه اليوم. هذا صحيح في التفاصيل. أما الجوهر فله جواب آخر رغم أن الصراع على مضامين التجديد كان يتغير ويتجذر مع كل حالة جديدة. والجوهر هو أن كل مرحلة، مهما كانت قصيرة، تستوجب رؤى للمستقبل. وفي حالة الاتحاد السوفياتي يستحيل على القائد السياسي إلا أن يمتلك أفقاً حقيقياً للرؤيا، على غموضه... فكيف إذا كان يلحق كل رؤاه المستقبلية، المتنوعة حكماً، بمسألة واحدة هي نجاحه أم خسارته في ساحة الصراع المباشر على المشروع السياسية - ولا أقول السلطة لأنها لم تكن هي الهدف آنذاك.

يشير يلتسين إلى أنه قدم مرات عديدة إلى قيادة الحزب برنامجه الاصلاحى. ولكنه في الكتاب لا يتوقف عنده إلا عرضاً وبسرعة. فألى جانب مطالبته بحق المعارضة الحزبية والسياسية عموماً في التبلور والتكتل - ويقدم سيرته كرمز للنضال من أجل هذا الحق - لا نلقى إلا تعابير متفرقة وضعيفة في موضوعات هامة مثل الاقتصاد أو السياسة الدولية أو الخيارات الاجتماعية الكبيرة. وفي تقييمه العام للنظام يعتبر يلتسين أن الاتحاد السوفياتي لم يطبق من الاشتراكية إلا الملكية الجماعية وذلك بطريقة قسرية. ومثل هذا التقييم لن يؤدي إلا إلى نتائج متسرعة بسبب أن اعتبار شكل الملكية القائمة في الاتحاد السوفياتي شكلاً للملكية الجماعية - ولو قسرياً - وبالتالي مكوناً فعلياً من مكونات الاشتراكية سيقودنا إلى اعتبار أزمة هذه الملكية هي أزمة الاشتراكية وبالتالي إلغاء الأولى يستتبع

إلغاء الثانية. وهو ما وصل إليه يلتسين فيما بعد، عندما تخطى في الحقيقة عن الخيار الاشتراكي دون إعلان.

وبدل أن يجري البحث في نطاق اشاعة شكل من الملكية يخدم تطور المجتمع في أفق اشتراكي انساني منفتح تركّز الخلاف في معادلة مغلوبة هي: الملكية السائدة للدولة تساوي الاشتراكية. وبالتالي فمن أجل التخلي عن ملكية الدولة يجب النضال ضد الاشتراكية التي تفرض هذه الملكية. أما ماذا تعني ملكية الدولة؟ ومن تخدم وكيف توزع ثمارها؟ ثم ما هي قوانينها؟ فهذه أسئلة يجري إقصاؤها منذ البداية، أي منذ أن طرح المعادلة الخاطئة بالأساس.

وعندما يتطرق إلى الاقتصاد يقدم يلتسين برنامجاً مكوناً من نقطة واحدة: الروبل (وحدة العملة السوفياتية). ولكنه يُغنيه بفكرة إضافية هي: الروبل المكتسب من عرق العمل. بمعنى أنه يريد ابدال النظام الأوامري في الإدارة والاقتصاد بسلطة المال المكتسب بصورة مشروعة. أما كيف سيحدث هذا الانتقال وماذا يعني للاتحاد السوفياتي وما هي مضاعفاته على الاقتصاد وعلى الناس وفي أي أطر يمكن أن يتحقق. ثم ما هو معيار المشروعية ومن يتحكم بتحديدته ومراقبته؟ فهذه أسئلة تظل، هي الأخرى، خارج مرمى التسديد. التطورات اللاحقة كشفت الاستهداف الأبعد لمشروع يلتسين الاقتصادي، الرأسمالي بجوهره، وإن تكن أظهرت، بالمقابل، الصعوبات الكبرى أمام تحقيقه داخلياً، وعلى مستوى السوق العالمية وتوازنات المراكز الرأسمالية المتقدمة.

ويبدو من الكتاب أن السياسة الدولية وموقع الاتحاد السوفياتي

في العالم لا تجذب المؤلف كثيراً ولا تخضع لمنطق أولوياته في الصراع مع الأجهزة. مع العلم أن كل القوة الإيديولوجية والأمنية لهذه الأجهزة - في الحزب والدولة - كانت تستمد مبرراتها من الخارج، أي من الصراع ضد الخطر الخارجي الذي تمثله الامبريالية أو ما تزعمه كذلك، لمزيد من التشكيك. فكيف استطاع المؤلف أن يمر صامتاً على هذه المسألة، من دون أن يقدم لشعبه، وناخبيه على الأقل، تصوره لمستقبل الاتحاد السوفياتي في العالم وللعالم نفسه؟

إن نظرة ارتجاعية سريعة تكفي للاقتناع بأن نجاح يلتسين السريع يعود إلى فشل خصومه أكثر مما يعود إلى الموافقة الشعبية على برنامجه. ووهج صورته لا يتألق إلا بأفول الآخرين. وإذا كانت هذه الحقيقة لا تشفع له كثيراً فإنها تدين خصومه بقوة.

٥ - قيل كلام كثير عن علاقة يلتسين بغورباتشوف. كيف بدأت وكيف تحولت، ماذا تحكم بولادتها وماذا يحكمها الآن. ويسرد الكاتب حوادث ومفاصل عديدة خضعت لها علاقة الرجلين. التقييم المباشر والصريح الذي يقدمه يلتسين لرئيس الدولة السوفياتية يمكن تلخيصه بما يلي: إن غورباتشوف هو محاولة إصلاح أجهضت نفسها وحركتها بالمواقف الوسطية والتردد والميل إلى الرفاهية وحب السلطة. ويضيف بأن غورباتشوف كان قادراً على الكسر مع المحافظين إلا أنه لم يكسر، وكان قادراً على إلغاء امتيازات «النومنكلاتورا» إلا أنه فضّل التمتع بها.

وإذا تجاوزنا الكلام الصريح وواجهنا حقائق الواقع وتوازناته فلا

مفر من الاعتراف بأن الرجلين كانا ضرورة لبعضهما البعض. ولكنها إحدى الضرورات المتناقضة المشدودة دائماً إلى عتبة القطع التي لا تتخطاها. من جانب يلتسين هذه الضرورة حيوية من أجل البقاء نفسه وليس فقط من أجل الحق بالمعارضة. ومن جانب غورباتشوف يلتسين حالة ضرورية لمواجهة معارضيه في الحزب والأجهزة وللبقاء على رأسها في أن معاً. فخيار غورباتشوف، آنذاك، كان خيار جذب الحزب و«الدولة» إلى صفه، لا خيار الكسر معهما أو كسرهما. ويلتسين كان يقدم له مبرر البقاء في هذا الموقع. ومع ذلك يبدو أن «ظل» غورباتشوف لا يفارق مخيلة يلتسين في أي موقف أو قرار ليس فقط بوصفه المرجع الأعلى في السلطة بل كشخص من لحم ودم. وهنا نجد حالة شبيهة بالعلاقة مع «الرموز» التي يجري التماثل بها ولكن لا تُبلغ الغاية منها إلا بتحطيمها.

٦ - تبقى نقطة أخيرة. يواجه يلتسين نفسه في هذه السيرة بنسبة عالية من الواقعية. يعرف نقاط القوة والضعف في شخصيته ويحاول أن يكتب بموضوعية المراقب عن تصرفاته. يدرس الاحتمالات والتوقعات إرتجاعياً ويحكم، بعد مرور الوقت، على صحة أو خطأ الموقف، وماذا كان يمكن أن تكون عليه الأمور لو أن ما حدث لم يحدث مثلاً، أو العكس. ومع ذلك يبقى سؤال كبير لم يجب عليه إجابة مقنعة ولا يبدو أنه بحث إلا عن سبب يرضيه: لماذا تعرض إلى هذا القدر من «الخيانات» من جانب أصدقاء أو رفاق عمل معهم بصورة وثيقة؟ حتى أولئك الذين انتقاهم بنفسه للعمل معاً كانوا يتبرأون منه ويقاثلون ضده عندما تبتعد السلطة عنه. السبب الأكيد لمثل هذه الارتكابات - برأيه - هو ضغط الأجهزة

وضعف النفوس تحت وطأة الخوف والإغراء. ولكن، إذا وضعنا آليات الضغط في موضعها النفسي والسياسي المحدد ألا يبرز عندئذ سؤال: أين هي الممالة الحقيقية للسلطة؟ ألم تكن في البداية تودداً زائفاً «للشخص» في السلطة وتحولت إلى انفكاك «زائف» عنه عندما غادرت؟ أين تكمن إذاً علاقات الخوف والإغراء؟ دون شك كانت في الحالتين. وفقط عندما يعطل التقييم نظرياً فعل هذه الآلية، بوجهيها السلبي والإيجابي ينكشف واقع العلاقات الإنسانية والحزبية عارياً، محايداً، ويصبح من الممكن أن يطلق المرء على نفسه حكماً عادلاً بالخطأ والصواب.

د. سناء أبو شقرا

كلمة من المؤلف

خلال العامين الأخيرين تلقيت عروضاً كثيرة من عدة دور للنشر كي أضع كتاباً عن حياتي، ولكنني كنت أقابلها دائماً بالرفض. وكنت أرفض لأنني لم أكن أعتقد أنه سيتوفر لدي لا الوقت ولا الإمكانية حتى أتصدى لهذا العمل الكبير.. فضلاً عن أنني اعتبرت أن الوقت لم يحن بعد لذلك.

واستمرت الحياة في البلاد، فحملت أشهر وأسابيع أحداثاً دراماتيكية عاصفة، لم تكن تحدث في السابق إلا في مدى عقود كاملة. لقد تغيرنا. لقد ودّعنا العصر الذي أود أن أؤمن بأنه لن يعود أبداً.

وادركت في لحظة معينة أن تسجيل ذكرياتي قد يكون ذا قيمة، فتراجعت أمام الطلبات الملحة ووافقت على الكتابة عن نفسي وعن الفترة المنصرمة التي عشت أحداثها.

أود أن أشير هنا إلى أن كتابة هذا العمل تمت، بصورة رئيسية، أيام الأحاد وفي الليالي. ولا أعتقد أنه كان سيقدر له الصدور لولا

المساعدة التي أسداها الشاب اللامع فالنتين يوماشيف، الذي طالما اضطر إلى تعديل إيقاعه وضبطه على وقتي ووتيرتي.

ولا يفوتني أن أقدر المساعدة المخلصة والتعاون القلبي اللذين لقيتهما من جانب فالنتينا لا نتسيفا وليف سوخانوف وتاتيانا پوشكينا، وبالطبع عائلتي.

وأقدم بالعرفان إلى ليديا ألكسييفنا مورانوفا، التي بذلت جهداً لتنظيم ممارستي رياضة التنس، ممّا ساعدني على البقاء دائماً في أحسن حال.

شكراً لهم جميعاً.

وشكراً للقدر على أنهم كانوا بجانبني.

يوميات الانتخابات

٢٥ آذار (مارس) ١٩٨٩

بدا أنه ليس ثمة شكوك. غداً تجري انتخابات مندوبي الشعب. وفي دائرة موسكو الانتخابية الأولى، حيث ترشحت و. يو. بوراكوف، ينبغي لأغلبية أصوات الموسكوفيين الساحقة (وعددهم ستة ملايين ناخب) أن تصب لصالحه حتى أصبح مندوباً. هذا ما تتوقعه أوساط الرأي العام الرسمية وغير الرسمية (وهو أيضاً ما أسفرت عنه استقصاءات الأميركيين)، فضلاً عما يشير إليه مناخ الحملة الانتخابية وما يُحدّثني عنه، ببساطة، حدسي: غداً، سيكون كل شيء على ما يرام.

ولكن النوم ولسبب ما يجافيني. ومرة أخرى أقلب كل الأوضاع التي عانيت فيها في الأشهر والأسابيع والأيام الأخيرة. وأحاول أن أعثر على مكان الأخطاء التي ارتكبتها وأين قمت بالعمل الصحيح. وبالتأكيد كانت هناك أخطاء، إلا أنني أشكر العبر المستخلصة منها لأنها منحتني الزخم ودفعني إلى العمل بطاقة مضاعفة.

وبشكل عام، فإن هذا من صفات شخصيتي. ولا أعرف إن كان من الحسن أو من السيئ أنني أتجاوز النجاح أثناء تحليلي الأوضاع،

وأتوقف عند النواقص والأخطاء. ولعل هذا هو مرد الشعور الدائم بعدم الرضا، بل عدم الرضا بنسبة ٩٠ بالمئة!

غداً يوم الحساب النهائي، غداً تصدر حصيلة سنة ونصف من حياتي. منفي سياسي، حامل ألقاب حزبية طنانة مع كلمة «سابق». سكرتير اللجنة المركزية السابق في الحزب الشيوعي السوفياتي، السكرتير الأول السابق لمنظمة مدينة موسكو الحزبية، عضو مرشح سابق للمكتب السياسي... كل ذلك كان.. سابقاً. أيام ستالين كانوا يعدمون رجال السياسة السابقين، أما خروتشوف فقد كان يحيلهم على التقاعد، وفي عهد الركود البريخيني كانوا يرسلونهم سفراء إلى بلاد بعيدة. وجاءت البيريسترويكا لتخطّ جديدها، فسمحت للمعزول أن يشق طريق العودة إلى الحياة السياسية.

وعندما تلقيت مخابرة من غورباتشوف - وأنا المجرد من كل المناصب - مقترحاً علي منصب وزير البناء لعموم الاتحاد السوفياتي، وافقت في لحظة كان الأمر فيها عندي سيان أني أتوجه. وفي نهاية الحوار قال: «ولكن ليكن في اعتبارك، لن أسمح لك بالعمل في السياسة!». آنئذٍ، كان يصدق على ما يبدو ما قاله، إلا أنه أسقط من حسبانته أنه هو نفسه خلق آلية العمليات الديمقراطية وأطلقها، حيث لم تعد كلمة الأمين العام كلمة الديكتاتور، التي سرعان ما تتحول إلى قانون يفرض على كل الإمبراطورية. أما الآن فالأمين العام يقول: «لن أسمح لك بالعمل في السياسة»، والناس سيفكرون.. سيفكرون ومن ثم سيقرون: لا، يجب السماح... وسيسمعون! لقد تغيرت الأزمان...

وكم من جديد ستحملة لنا الأيام! في هذا تكمن روعة الأوقات الراهنة، ولكن فيه تكمن أيضاً المصيبة. فما من أحد يعرف ما

ستكون عليه الأوضاع، وإلى أين ستقودنا غداً الخطوة التي مشيناها؟ إن النظام البيروقراطي - الحزبي الهائل، الأخرق والغبي، يرتكب أعمالاً غير متزنة ويحاول حماية نفسه، غير أنه يحقق بذلك انتحاره على نحو أسرع.

فقد وضع هذا الجهاز نصب عينيه مهمة محدّدة، ليست معقدة كثيراً، تتلخص بإسقاطي في الانتخابات على نحو ما، ولكنها لحسن الحظ غير قابلة للتنفيذ. فالقضية ليست قضية «لكل مواطن شقة في سنة ٢٠٠٠»، وليست من نوع إشباع البلاد في «الخطّة الخمسية الراهنة». إنها، أي القضية، تتلخص في تصفية الحساب مع شخص واحد!... فضلاً عن التسليح بقانون انتخابي «مذهل» إن هو إلا وليد للبيروقراطية، يُضاف إليه جهاز إعلامي مأمون الجانب، طبع، ضخم، لا يتوانى عن الكتابة والكلام بما يرضي! ورغم كل ذلك - رغم كل ما في أيديهم - فقد فشلوا في تحقيق حتى هذه المهمة. وبرغم كل التدابير التي اتخذت ضدي خلال الأشهر الأخيرة - من تزييف للوقائع وكذب وقرارات دورة اللجنة المركزية، إلخ... - كان الدعم الذي تحوّضي إياه المواطنون يتعاظم أكثر فأكثر.

وعندما ارتكبت ضدي آخر حماقة - وقد جرّت علي تعاطفاً كبيراً من جانب الموسكوفيين - أدركت بوضوح إلى أي هاوية عميقة انزلقنا وكيف سيكون صعباً علينا الخروج منها.

فهذا الجهاز الحزبي نفسه وهؤلاء الأشخاص أنفسهم يزعمون إحداث التحولات على طريقي اليسسترويكا والغلاسنوست(*)،

(*) تعني اليسسترويكا إعادة البناء، والغلاسنوست تعني الانفتاح الإعلامي أو المكاشفة، وقد أسماها بعضهم الشفافية - (المترجم).

وهم غير مستعدين للتنازل عن هذا الحق لأحد آخر. وفي مثل هذه الهنديات يقف المرء عاجزاً.

ولكن كان الأمر جيداً، إذ كنت ألتقي ناخبي كل يوم أثناء الحملة، ومنهم أستمَد الطاقة والإيمان والثقة الجديدة بالنفس، ومعاهدتهم على أننا لن نعيش مطلقاً على النحو الذي عشنا عليه في السابق، فقد ولَّى عصر العبودية المعنوية.

حسناً، جيد. ولكن، ماذا لو خسرت غداً؟ ماذا سيعني ذلك؟ هل سيعني أن الجهاز أقوى وأن الظلم قد انتصر؟ لا، ليس الأمر كذلك؛ وببساطة أنا إنسان وعندي نقائصي، شخصيتي معقدة وعنيد. فقد انحرفت وارتكبت أخطاء، وقد يكون من الممكن تماماً ألا أنجح في الانتخابات. ولكن حتى إذا كانوا سيُنتخبون براكوف الذي يحظى بدعم الجهاز وتأييده، فسيكون من الوهم العميق في أي حال أن يتصور المرء أنه يمكن أن يصبح ألعوبة في يد من دعمه وتحت إرادته. فسواء كنت أنا أو هو، أو أي شخص آخر، في موقع النيابة يمكن أن يضطلع بدور مندوب الشعب إذا أصغى لصوت الشعب لا لصوت الجهاز.

لو كان بالإمكان إعادة شهر تشرين أول (أكتوبر) ١٩٨٧، كيف كنت تصرف؟

بوريس نيقولايفيتش! هل كانت كلمتك في دورة اللجنة المركزية المكرسة لذكرى مرور سبعين عاماً على ثورة أكتوبر تعبر عن موقف يائس، أم إنك أملت بدعم من أحد أعضاء المكتب السياسي؟

(من الأسئلة التي وجهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية)

انتهى اجتماع المكتب السياسي. عدت إلى مكنتي وأخذت ورقة بيضاء. فكرت مجدداً وأعدت الحساب، ثم بدأت بالكتابة:

«ميخائيل سرغيفيتش (غورباتشوف) المحترم!

استغرقني قرار كتابة هذه الرسالة وقتاً طويلاً وصعباً قبل المباشرة بها. فقد مضى عام وتسعة أشهر إثر اقتراحكم والمكتب السياسي وموافقتي على ترؤس منظمة موسكو الحزبية. بالطبع لم يكن ثمة أي أهمية لدوافع الموافقة أو الرفض. فقد كنت أدرك أن المهمة صعبة جداً، وأنه بالإضافة إلى الخبرة التي راكمتها ينبغي بذل المزيد من الوقت في العمل.

ولم يكن كل ذلك ليزعجني. لقد كنت أشعر بدعمكم حين ولجت مناخ العمل تملأني الثقة بالنفس. ويكل إخلاص ومبدئية وبروح التعاون والرفاقية أقمت علاقات العمل مع أعضاء المكتب الجديد.

ومرت المراحل الأولى، وبالطبع فإن ما أنجز كان قليلاً جداً. ولكن الأمر الرئيسي، على ما أظن، ودون ذكر أمر آخر، أن ما تغير كان روح أكثرية الموسكوفيين ومزاجهم، أضف إلى ذلك بالطبع التأثير الذي تركه التغير في مجمل الوضع في البلاد. ولكن، مع ذلك، كان عدم الرضا يتعاظم عندي باستمرار.

وبتأنيد ألاحظ في ممارسات بعض رجالات القيادة العليا وأقوالهم ما لم ألاحظه في الماضي. وتحول دعم بعض أعضاء المكتب السياسي

وأمناء اللجنة المركزية إلى لامبالاة من جانبهم بالشؤون الموسكوفية وبرودة تجاهي .

وبشكل عام، فقد حاولت دائماً أن أعبر عن وجهة نظري وأشرحها حتى ولو كانت غير متطابقة مع آراء الآخرين، الأمر الذي خلق أكثر فأكثر أوضاعاً غير مرغوب بها. وإذا توخيت الدقة لقلت إنني لم أكن مستعداً للعمل ضمن تركيبة المكتب السياسي، آخذاً بعين الاعتبار أسلوبى واستقامتي ومجمل سيرة حياتي.

كما إنني لا أستطيع إلا أن أشير إلى بعض المسائل - المبدئية بما فيه الكفاية - وقد كتبت إليك عن بعضها، وخصوصاً تلك المتعلقة بالكوادر. وهاك بعضاً إضافياً:

في ما يتعلق بأسلوب عمل ي.ك. ليفاتشيف: رأيي في هذا الصدد (بل ورأي الآخرين) (*) هو التالي: إنه (أي الأسلوب) (*) لا يصلح البتة، وخصوصاً في الوقت الراهن (لا أريد أن أغبطه سماته الإيجابية). وأسلوب عمله هذا ينعكس على أسلوب عمل أمانة اللجنة المركزية، فضلاً عن أن بعض أمناء اللجان «الجانبية» ينسخونه دون النظر فيه. ولكن الأمر الرئيسي أن الحزب بمجمله يخسر. «تفسير» كل ذلك هو التالي: سينزل الضرر بالحزب (إذا أريد القول بلغة العامة). باستطاعتكم أنتم شخصياً تغيير شيء ما لما فيه مصلحة الحزب.

لقد أضحت منظمات الحزب متخلفة عن كل الأحداث الهائلة. ليس هنا عملياً ثمة بيرسترويكا (إلا إذا استثنينا السياسة الشاملة). ومن هنا تنطلق سلسلة كاملة. والنتيجة: نعجب لماذا تتعرقل

(*) الاستدراكان من يلتسين - (المترجم).

البيروسترويك في المنظمات الأولية (القاعدية).

لقد جرى التفكير بها وصوغها بأسلوب ثوري، أما تحقيقها في الحزب تحديداً فلا يجري إلا من المنطلق السابق إياه، الضيق، البيروقراطي، السخيف، ذي المظهر الخارجي الطنان. ههنا تحديداً يبدأ الانقطاع بين القول الثوري وبين الفعل البعيد عن المقاربة السياسية في الحزب.

غزارة أوراق (إحصاء كل يوم البندورة والشاي والقاطرات...؛ ولكن لن يكون هناك قفزة أو تقدم حقيقي) واجتماعات تتمحور حول مسائل صغيرة ونكايات واختلاقات... جملة القول قضايا تطرح لمجرد إثبات «الهبة» وفرضها.

وأنا لا أتكلم في هذا المقام على أي محاولات انتقادية من تحت. ما يقلقني كثيراً أنهم في القاعدة يفكرون هكذا، ولكنهم يخافون الإعراب عن آرائهم. وفي اعتقادي أن هذا أخطر ما يمكن أن يمتد به الحزب. وبالنسبة إلي، فإن إيغور كوزميتش (ليغاتشيف) وبوجه عام تنقصه الثقافة ويعوزه النظام (الأسلوب) في العمل. ذلك أن الاستماع إلى استشهاده الدائم بـ «التجربة التومسكية» (*) لم يعد بالأمر الممتع.

أما في يتعلق بي، فإن التهجم علي من جانب المكتب السياسي في اجتماعه المنعقد في ١٠ أيلول (سبتمبر)، إثر انعقاد دورة اللجنة المركزية في شهر حزيران (يونية)، لا أستطيع أن اعتبره إلا مطاردة منسقة. وإن قرار اللجنة التنفيذية بصدد التظاهرات مسألة تخص المدينة (موسكو). وقد حُلّت على نحو خاطئ. وليس مفهوماً عندي

(*) نسبة إلى مدينة «تومسك».

دور اللجنة التي ألفت، لذا فإنني أرجوكم تصحيح الوضع الناشئ(*) . ويتج أنه - أي ليغاتشيف - لا يضبط الموجة في الحزب، بل يشوش على الآلية الحزبية ويعطلها. لا أجدني راغباً في الكلام على علاقته بالشؤون الموسكوفية. وما يثير العجب كيف يمكن ألا يلقي بالاً، ولو مرة واحدة خلال عامين، إلى ما يتعلق بشؤون منظمة حزبية يتجاوز عدد أعضائها المليون. إن اللجان الحزبية تفقد استقلاليتها (فيما تمنح الاستقلالية للكوخوزات والمؤسسات).

لقد كنت دائماً من أنصار المطالبة والسؤال الحازم، ولكني لست مع الخوف الذي يروع الآن عمل اللجان الحزبية وأمنائها. إذ ليس هناك أي مبدئية أو وحدة حال رفاقية حزبية بين جهاز اللجنة المركزية وبين اللجان الحزبية (وأعتقد أن مسؤولية ذلك تقع على عاتق الرفيق إي. ك. ليغاتشيف)، ليس بين هذه وتلك ما يمكن أن يولّد الرفاقية والثقة بل الإخلاص في العمل. ههنا، برأيي، تتجلى «آلية الكبح» الحزبية. يجب تقليص الجهاز كثيراً (حتى الخمسين بالمائة) وتغيير بنيته تغييراً حازماً. وإن لدى لجان المناطق الموسكوفية خبرة في ذلك، وإن كانت هذه الخبرة ضئيلة.

ومما يسبب لي شخصياً القهر وضع بعض الرفاق في المكتب السياسي. فهم أكثر ذكاء، ولأنهم كذلك فسرعان ما «أعادوا بناء أنفسهم»(*). ولكن، هل يمكن الوثوق بهم حتى النهاية؟ إنهم ملاثمون، وأستمحيك العذر، ميخائيل سرغيقتش، ولكن يتهماً لي

(*) سأوضح للقراء علام يدور الكلام في الرسالة. فقد أنشأ ليغاتشيف لجنة أمانة اللجنة المركزية لتصحيح الأمور في موسكو، ولم يكن هناك لا مبرر ملموس ولا سبب للقيام بهذه الخطوة - (ملاحظة من المؤلف).

(*) يستخدم يلتسين هنا فعل الپيرسترويكا - (الترجم).

أنهم يصبحون ملائمين حتى بالنسبة إليك . إنني أشعر أنه ليس من النادر أن تنشأ عندي رغبة بالصمت والسكوت، عندما لا أكون موافقاً على أمر ما، حيث يبدأ بعضهم باللعب على وتر الموافقة .

لست ملائماً وأنا أعرف ذلك، كما وأعرف أيضاً أنه ليس من السهل حل المسألة معي . وفي وقت لاحق، ونظراً إلى وضع الكوارد الراهن، سيتزايد عدد المسائل المرتبطة بي وستزعجك في عملك . وهذا ما وددت من كل قلبي ألا يكون .

وأنا لا أريد حصول ذلك أيضاً لأنه بغض النظر عن جهودك الاستثنائية فإن الصراع من أجل الاستقرار سيؤدي إلى الركود، إلى حالة كتلك (بل هي نفسها) التي سادت سابقاً، وهو أمر لا يجوز السماح به . تلك بعض الأسباب والدوافع التي حفزتني على التوجه إليك برجاء . إنه ليس ضعفاً ولا جبناً .

أرجو إعفائي من مسؤولية سكرتير أول منظمة مدينة موسكو في الحزب الشيوعي السوفييتي، ومن واجبات العضو المرشح في مكتب الحزب السياسي، وكما وأرجو اعتبار هذه الرسالة طلباً رسمياً .

وأعتقد أنه ليس هناك ضرورة في التوجه مباشرة إلى اجتماع اللجنة المركزية للحزب .

مع الاحترام

١٢ أيلول (سبتمبر) ١٩٨٧

وضعت الرسالة في مغلف وألصقته . وفكرت مرة أخيرة، أيسأهل الأمر إرسالها؟ أو أليس من الممكن الانتظار والترث بعد؟ . . . ثم وبحدة طرحت هذه الأفكار الإنقاذية جانباً واستدعيت مساعدتي

وناولته المغلف. وكنت أعرف تماماً أن البريد بين موسكو وبين بيت
الأمين العام الصيفي في بيتسوندنا يعمل بصورة ممتازة، وسيتسلم
غورباتشوف الرسالة بعد بضع ساعات.

ماذا سيكون بعد؟... أيستدعيني أم يتصل بي هاتفياً ويطلب إلي
متابعة العمل على النحو الذي عملت فيه سابقاً؟ أليس من الممكن
أن رسالة استقالتني ستساعده على إدراك أن الوضع في القيادة الحزبية
العليا قد بلغ نقطة حرجية، وأنه لا بد من اتخاذ تدابير أو خطوات ما
سريعة لتدارك هذا الوضع ومعالجته؟...

وقررت ألا أغوص في التنبؤات. لقد أحرقت الجسور ولم يعد ثمة
طريق للعودة. وتابعت العمل كما في السابق من الصباح الباكر وحتى
الليل المتأخر، ولم أكن لأعرف نفسي أو لأعترف بتوتر أعصابي
ومكابدتي العذاب. كان مظهري لا يدل على أن أمراً ما قد حدث،
بل إن كل شيء سار عادياً. ولم يعرف أحد شيئاً، بمن في ذلك
عائلي.

هكذا بدأت هذه الواقعة التي اكتملت فصولها في اجتماع اللجنة
المركزية الهادر (المنعقد في تشرين أول/ أكتوبر ١٩٨٧)، - وأكاد
أقول الأسطوري - ذلك الاجتماع الذي لعب دوراً متميزاً في حياتي،
وقد لا يكون في حياتي فقط.

لطالما سُئلت فيما بعد: وهل كانت هناك حجة ملموسة ما، أو
سبب مباشر ما، فرض علي أو دفعني إلى إرسال كتاب الاستقالة إلى
غورباتشوف. وكنت أجيب دائماً وبوضوح: كلا. وبالفعل، فقد
تراكم كل شيء تدريجياً وبصورة غير ملحوظة. في أحد اجتماعات
المكتب السياسي ناقشنا التقرير الذي سيتقدم به غورباتشوف بمناسبة

الذكرى السبعين لثورة أكتوبر، وقد أبدت اثنتي عشرة ملاحظة، الأمر الذي جعل الأمين العام ينفجر. حينها، وأنا أذكر ذلك، صُدمت تماماً وأصابني الدهول والدهشة، إذ كيف يمكن أن تكون ردة الفعل على الانتقاد هستيرية على النحو الذي كانت عليه. ومع ذلك، لم يكن هذا الحادث حاسماً.

بدأ كل شيء منذ أيام عملي الأولى ضمن مجموعة المكتب السياسي. ولم يكن ليغادرني - على الدوام - إحساس بأنني مجرد غريب أطوار، أو بالأحرى غريب وسط هؤلاء الأشخاص، وأنني لا أكون جزءاً في إطار علاقات لا أقدر على اكتناهاها، وأنهم اعتادوا هنا أن يتصرفوا ويفكروا كما يتصرف ويفكر شخص واحد هو الأمين العام. ففي هذه المجموعة المسماة هيئة الحزب الجماعية لا يعبر أحد عن وجهة نظر تحالف وجهة نظر المترس، وإن فعل فوجهة النظر لا تتصل إلا بمسائل غير ذات أهمية، وهذا ما يسمى وحدة المكتب السياسي. وأما أنا فلم أكن أخفي مطلقاً ما كنت أفكر فيه، كما لم أكن أزمع التغير عندما بدأت العمل ضمن المجموعة المذكورة. وكان هذا يثير حساسية الكثيرين، حتى أنني اصطدمت مرات عديدة مع ليغاتشيف وسولومينتسيف وغيرهما. بعض أعضاء المكتب كانوا متضامين ضمناً، بل إنهم كانوا متعاطفين إلى هذه الدرجة أو تلك، ولكن أحداً لم يظهر ما يبطنه. وقد نضج لدي منذ زمن بعيد الاحتجاج على أسلوب عمل المكتب السياسي وطرائقه، التي اختلفت جذرياً وبصورة حادة عن تلك النداءات والشعارات اليسرى التي أعلنها غورباتشوف عام ١٩٨٥. كانت اجتماعات المكتب تجري بالطبع بشكل مختلف عما كانت تجري به أيام بريجنيف، إذ بدأت الجلسات تطول الآن وأضحى الجميع ينصتون أكثر لكلام الأمين

العام. وكان غورباتشوف يحب أن يتكلم دائرياً ومطوّلاً، مردفاً كلامه بمداخلات واستخلاصات ومعقبات على كل متكلم. كأن رؤيا ما كانت تتكوّن خلال المناقشات، كما كان يبدو أن الجميع أدلى بدلوه، ولكن ذلك لم يكن ليغيّر من جوهر الأمر شيئاً: فما يريدّه الأمين العام هو نفسه ما يفعله. كل ذلك، برأبي، كان مفهوماً لدى الجميع، إلا أن كل واحد كان يدعم اللعبة ويشارك فيها بنجاح، أما أنا فلم أشأ أن أشارك فيها، ولذا فقد كنت أعبر عن آرائي بحدة شديدة وصراحة ومباشرة. وبصدق أقول إن مداخلاتي لم تستطع خلق جو، إلا أنها أفسدت مناخ الجلسات الطيب جذرياً. وبالتدريج تكوّن لدي رأي جازم: ينبغي تغيير الجزء الأكبر من تركيبة المكتب السياسي ورفده بدم جديد وبقوى شابة وبأشخاص حيويين ذوي فكر غير مؤطر بمقاييس ومواصفات محدّدة، وبذا فقط يمكن تسريع عملية البيريسترويكا دون خيانة المواقف، وعندها يمكن متابعة العمل الناشط ودفع القضايا إلى الأمام جدياً وعلى مختلف المستويات.

وفي إبان عطل غورباتشوف، عندما كان يتراأس ليغاتشيف اجتماع المكتب السياسي، كانت وتيرة الصدمات تتزايد باطراد. كان شديداً الوثوق بنفسه عندما يعتمد إلى بسط أفكاره الجامدة القديمة برزانة وديماغوجية. بيد أن الفظاعة لم تكن تكمن في وجوب الإصغاء إليه فحسب، بل في اعتماد أفكاره للتطبيق في كل أنحاء البلاد وعلى كل مستويات الحزب. كان هذا عملاً غير جائز.

ولقد اتّخذت قراراً: فإما أن أضغط على نفسي كي أتكيّف مع كل ما نشأ حولي، والبقاء ضمن تركيبة المكتب السياسي بهدوء عضواً صامتاً، لاعباً، لا يعبر عن آرائه إلا في مسائل صغيرة تافهة؛ أو أن أخرج من عضوية هذه التريكية.

حدثت جولة في الصدام الدوري مع ليغاتشيف في المكتب السياسي عندما نوقشت مسائل العدالة الاجتماعية وإلغاء الامتيازات والتسهيلات. فإثر انتهاء الجلسة عدت إلى مكنتي وشرعت أخط الرسالة لأبعث بها إلى بيتسوندا حيث ينتجع غورباتشوف. ولكنه ما لبث أن وصل واتصل بي. قال: «دعنا نلتق فيما بعد». وفكرت في ما تعنيه هذه الـ «فيما بعد» المهمة... وبقيت أنتظر. مر أسبوع وأسبوعان، ولكن الدعوة للحديث لم ترد. وقررت أنني في حل من الالتزامات، وأنه غير على ما يبدو موقفه من لقائي وقرّر رفع القضية إلى اجتماع اللجنة المركزية، حيث سيصار هناك بالتحديد إلى إخراجي من عداد الأعضاء المرشحين إلى المكتب السياسي.

وسرت فيما بعد أقاويل شتى في هذا الصدد. فقد قال غورباتشوف إنني أخلفت الثقة التي مُنحت، وإننا اتفقنا على اللقاء بصورة محدّدة تماماً بعد اجتماع اللجنة المركزية في تشرين أول (أكتوبر)، وإنني قررت بوجه خاص الكلام قبل الوقت المحدد... وأكرر هنا مرة ثانية أن الأمر لم يكن كذلك. وأشير هنا مذكّراً إلى أنني طلبت في الرسالة إعفائي من مسؤولية عضوية المكتب السياسي (بوصفي عضواً مرشحاً) ومن منصبي كسكرتير أول لمنظمة مدينة موسكو الحزبية، كما أعربت عن الأمل بأنه لن يكون علي التوجه إلى اجتماع اللجنة المركزية لأحل هذه المسألة. أما في يتعلق بالقول إننا اتفقنا على اللقاء عقب اجتماع اللجنة المركزية فهو قول غير صحيح. كل ما قيل كان كلمتي «فيما بعد»... وكنت أعتقد أن الفترة المقصودة لن تكون أكثر من يومين أو ثلاثة، ولنقل أسبوعاً كحد أدنى. كنت واثقاً أن الموعد المحدد لن يكون أبعد من ذلك. ومهما يكن من أمر لا يستقبل أعضاء المكتب السياسي المرشحون كل يوم كما لا يطلبون عدم إيصال القضية

إلى مستوى اجتماع اللجنة المركزية. وانقضى أسبوعان وغورباتشوف صامت، فكان من الطبيعي تماماً - وقد أدركت ذلك - أنه قرّر نقل القضية إلى اجتماع اللجنة المركزية كي لا يكون الأمر مواجهة بين شخصين، وحتى يتمكن هناك من إقامة حوار عام معي.

وأعلن عن تاريخ اجتماع اللجنة المركزية، وكان لا بد من التحضير لمداخلة تُلقى فيه ولما يمكن أن يعقبها. ومن الطبيعي أنه لن يكون بإمكانني - بشكل أو بآخر - تنظيم مجموعة مساندة من أعضاء اللجنة المركزية الذين كانوا يقومون الأوضاع في الحزب وفي القيادة ويفكرون بها بالطريقة نفسها التي لدي. وبدا لي أن مجرد التفكير بذلك - ويبدو لي اليوم أيضاً - لا يخرج عن كونه هرطقة وهذراً. فالمسألة تتطلب تحضير المتدخلين والاتفاق معهم: مَنْ سيطرح ماذا من الأمور، وأنا على وجه العموم لن أعمد البتة إلى نسج مؤامرة البتة. لا، وألف لا. لقد قيل لي فيها بعد إنه كان يجب أن نتوحد ونقف صفاً واحداً، فلربما أمكن حينها أن نترك أثراً ما، ولربما اضطرت القيادة أن تحسب حساباً لرأي صادر ولو عن أقلية لا عن أفراد مستفردين يمكن إدانتهم بأي شيء.

ولكنني لم أسلك هذه الطريق، لا بل إنني لم أطلع شخصاً واحداً على نيتي بإلقاء كلمة في الاجتماع. وهذا الأمر ينطبق حتى على أقرب أعضاء مكتب منظمة موسكوفي، فهؤلاء لم يعرف أحد منهم شيئاً أبداً.

ولذا، لم يكن لدي أيُّ وهم في أن أحداً سيتقدم لدعمني، وهو أمر طبيعي، وعرفت أن رفاقي في اللجنة المركزية لن يفعلوا أكثر من البقاء صامتين في أحسن الأحوال. كان علي أن أحضر نفسي معنوياً لتقبل الأسوأ.

ذهبت إلى الاجتماع لا أحمل أي كلمة مكتوبة، التي اقتصر تحضيرها على كتابة سبع موضوعات فحسب. كان من عاداتي أن أصرف وقتاً طويلاً على تحضير كل كلمة ألقياها؛ وقد أعيد كتابة الكلمة أو الخطاب الواحد ١٠ - ١٥ مرة، محاولاً بذلك العثور على أهم الألفاظ وأدقها. ولكنني هذه المرة سلكت طريقاً آخر، فبالرغم من أن ما سألقيه لم يكن ارتجالاً والموضوعات السبع كانت مادة لتفكير عميق إلا أنني لم أكتب نصاً، وإني أواجه الآن تعقيداً في تفسير سبب لذلك. من الممكن أنني لم أكن واثقاً مائة بالمائة من أنني سأطلب الكلام، أو ربما أردت إبقاء مخرج لنفسي فأقنعها بأنني قد لا ألقى كلمة في هذا الاجتماع، بل في الاجتماع التالي. لعل فكرة كهذه كانت قابعة في وعيي الباطني.

كان جدول أعمال الجلسة معروفاً: فثمة مشروع تقرير للجنة المركزية المكرس لسبعينية أكتوبر. ولم تكن هذه الذكرى الاحتفالية تزعجني قط، بل على العكس من ذلك، إذ فكرت أنه لمن المجيد أننا وصلنا في نهاية المطاف إلى فهم صحيح لفكرة بسيطة جداً مفادها أن العيد ليس مجرد حجة أو ذريعة للإلقاء الخطب الاحتفالية المطولة وما يرافقها من تصفيق، بل إنه لمن المفيد في مثل هذا اليوم الكلام على المشكلات أيضاً. ولقد أخطأت كثيراً في التقدير، فأنا لم أفعل سوى أنني أفسدت عيداً نقياً لألاء، الأمر الذي أدنت بسببه بالدرجة الأولى فيما بعد.

ألقي غورباتشوف تقرير اللجنة المركزية، وفيما هو يفعل كان يتنازعني صراع بين أن أتقدم لإلقاء مداخلة أو ألتزم الصمت... كان واضحاً أنه لم يعد هناك معنى لأي تأجيل، يجب التقدم نحو المنبر مع إدراكي أي سيل من القذارات سينزل على رأسي بعد بضعة

دقائق، وكم من الاتهامات الجائرة سيتعين علي تحملها وأي خيانة وسوء سيلصقان بي قريباً.

وشارف غورباتشوف على الانتهاء من إلقاء تقريره، وحدث ما كان متوقعاً حدوثه الآن.. ها هو ليغاتشيف يتأهب لرفع الجلسة، ولكن وقع ما لم يكن في الحسبان. وأفضل هنا أن أستشهد بمحضر الاجتماع الرسمي:

«الرئيس، الرفيق ليغاتشيف: أيها الرفاق، لقد انتهى التقرير، هل ثمة تساؤلات عند أحد؟.. حسناً ليس هناك أي أسئلة، إذن ثمة ضرورة لتشاور.

غورباتشوف: الرفيق يلتسين يؤدُّ طرح سؤال.
الرئيس، الرفيق ليغاتشيف: إذن هلمَّ نتشاور. هل هناك ضرورة لفتح باب النقاش؟
أصوات: لا.

الرئيس، الرفيق ليغاتشيف: لا.
غورباتشوف: لدى الرفيق يلتسين إعلان.
الرئيس، الرفيق ليغاتشيف: الكلمة للرفيق بوريس نيقولايفيتش يلتسين العضو المرشح للمكتب السياسي للحزب والسكرتير الأول لمنظمة مدينة موسكو الحزبية. تفضل بوريس نيقولايفيتش».

ومشيت نحو المنبر.

يوميات الانتخابات

١٣ كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٨

اتخذت قراراً، ولست أدري إلى أي حد يمكن اعتباره قراراً صحيحاً. لقد قررت خوض انتخابات مندوبي الشعب، مع وضوح كلي بأن الفرص أمامي ليست حتماً بنسبة مائة بالمائة. فقانون الانتخابات يتيح الإمكانات للسلطة وللجهاز حتى يضع أيديهما على أشياء كثيرة. ولا بد في البدء من تجاوز عدة مراحل قبل أن يقول الشعب كلمته. فنظام الترشيح واجتماعات الدوائر التي تغربل المرشحين وتستبعد غير المرغوب بهم، ثم لجان الاقتراع التي يسيطر عليها مجندو الجهاز وزبانيته، كل ذلك يبعث في النفس تأملات حزبية. وإذا ما سقطت، أو إذا لم يقدر لي الفوز بمقعد المندوب، فإنني أتصور مدى الانبهار والاستمتاع اللذين سيغشيان القيميين على أمر النومنكلاتورا الحزبية. فذلك بالنسبة إليهم ورقة مفرحة رائعة: الشعب لم يرد، الشعب لم ينتخب، الشعب أسقط... علماً أن الشعب لا علاقة له بكل تلك الاجتماعات الانتخابية التي تعقد في الدوائر. وهذا أمر واضح لدى الجميع ابتداء من أصغر ناخب وانتهاء بغورباتشوف، إنه دعامة لنظام السلطة المنهار وعظمة تُلقى إلى الجهاز البيروقراطي - الحزبي.

يمكن بالطبع عدم خوض الانتخابات، وأصدقائي المقربون ينصحون بالعودة عن الصراع لأنني أبدو في مواقع غير متكافئة مع الطرف الآخر. فقد بات اسم يلتسين ومنذ عام ونصف تحت المنع والإلغاء، فمع أنني موجود ولكني كنت في الوقت نفسه مغيباً. ومن الطبيعي أنني إذا خرجت إلى الساحة السياسية سعيّاً للمشاركة في الاجتماعات الانتخابية والالتقاء بالناخبين فسرعان ما سينصب علي جبروت الآلة الإعلامية الضخمة بكذبها وتزييفها وتلفيقاتها.

ومن جهة ثانية، فإنه ووفقاً للنظام الانتخابي الراهن لا يحق للوزراء أن يصبحوا نواباً، وبالتالي فإذا أردت خوض الانتخابات فسيتم علي ترك منصبي، لأدخل بعد ذلك مستقبلاً مجهولاً تماماً. وليس من غير المتوقع أن يسقطني مؤتمر مندوبي الشعب المنتخب، وفق النظام إياه، إذا ما ترشحت لانتخابات مجلس السوقيات الأعلى للاتحاد السوقياتي، وبالتالي فلن أستطيع الوصول إلى البرلمان والعمل فيه. وهكذا، لا أرى أمامي أفقاً واقعياً سوى أن أكون في أحسن الأحوال مندوباً عن الشعب عاطلاً عن العمل. وعلى حد علمي لا يوجد وزير واحد يود التخلي عن كرسيه أو ينوي القيام بذلك. فمندوبو الشعب كثر في حين أن الوزراء قلة.

وهكذا، ينبغي أن أتخذ قراراً.

وبدأت ترد البرقيات من جميع أنحاء البلاد، تنبئ عن رغبة مجموعات هائلة من آلاف المواطنين في ترشيحي مندوباً عنهم.

والانتخابات المقبلة، إذن، عبارة عن صراع مُضِن وعصبي، إنها لعبة مشوهة القواعد والأسس حيث توجّه الضربات تحت الوسط ومن الخلف بغدر، وترتكب فيها كل الأمور الممنوعة ولكن الفعالة. هل

أننا على استعداد للسير والحالة هذه في جلجلة الحملات الانتخابية؟..

هاأنذا أتأمل وأسترب، بل أثني نفسي، ولعل الأشد إثارة في الأمر أن القرار قد نضج من أمد بعيد. قد يكون من الممكن أنه نضج في تلك اللحظة التي عرفت فيها إمكانية حدوث هذه الانتخابات. أجل بالطبع، سأرمي بنفسي في دوامة الإعصار، وقد أحطم رأسي هذه المرة نهائياً، ولكني لا أستطيع إلا أن أفعل ذلك.

يوميات الانتخابات

١٩ شباط (فبراير) ١٩٨٩

أرسينا قواعد البداية. فقد وُفِّت في غربلة اجتماعات الدوائر، ويعود الأمر الآن إلى الشعب كي يقول كلمته. كان هذا نوعاً من الانتصار، وإن لم يكن نهائياً، ولكنه انتصار.

ودُعم ترشيحي في ما يقرب من مائتي دائرة انتخابية. وقد دعمت بصورة رئيسية من قبل المصانع الكبيرة والمؤسسات ومجموعات آلاف الكادحين. ولكني لن أعلّق بأي شكل على هذه الأرقام.

ولم تكن هذه الترشيحات لتدل على شيء بعد، فقد أُناحت الاجتماعات المذكورة، التي ينظمها الجهاز ويشرف عليها ويمسك بها، التخلّص من أي مرشح غير ملائم. وكان الجزء الأكبر من الاجتماعات يتكون من إطلاق عليهم اسم ممثلي المجموعات العاملة، وهم في الأساس الأمناء الحزبيون ونوابهم وبعض أعضاء المجموعات العاملة المرهّبين والملقّنين بالتعليمات المناسبة. ومن الطبيعي أن السيطرة على اجتماعات يشارك فيها أناس كهؤلاء لم يكن بالأمر الصعب، فكان أن انهارت على لجنة الاقتراع المركزية الاحتجاجات من جميع أنحاء البلاد مؤكدة أن اجتماعات الدوائر قد اغتصبت حق الشعب في انتخابات حقيقية. أما واضعو سيناريو هذه المسرحية التي حملت عنوان

«انتخابات مندوبي الشعب في الاتحاد السوفياتي» فقد كان يفركون أيديهم فرحاً وهم يرون كيف تتحقق خدعتهم بنجاح.

ومع ذلك فقد أخطأوا الحساب، إذ لم يلق مخططهم نجاحاً في كل الأمكنة والمواقع. ويبدو أنهم لم يتصوروا أنه حتى أمين المنظمة الحزبية يمكن أن يخالف تعليماتهم ويقترح كما يحلوه وكما يحلي عليه ضميره. وقس على ذلك أيضاً عضو المجموعة الطيع الذي يمكنه أن يضع في اللائحة اسم مرشح آخر مغاير للاسم المطلوب وضعه.

جرى اجتماع الدائرة الأول، الذي قررت المشاركة فيه، في مدينة بيريزنيكي (مقاطعة پيرم). ففي هذه المدينة عشت فترة، وسكانها يذكرونني فضلاً عن أن عائلتي فيها معروفة، وقد عمل والذي فيها طويلاً، وعموماً فقد رشحتني بضع مجموعات. كان لدي فرصة هنا للفوز، إذا لم تعتمد الهيئات الحزبية إلى خنق اجتماع الدائرة.

وقررت أن أقوم بخطوة لم أعتبرها آنذاك خطوة عادية. فبعد أن أقلعت من موسكو آخر طائرة باتجاه پيرم، طرت إلى لينينغراد حيث كان ينتظري رفاقي من المؤيدين والأنصار، فنقلوني إلى المطار العسكري حيث كان أيضاً ينتظري أعواني المخلصون. وهكذا، طرت إلى پيرم على متن طائرة شحن ذات هدير وضجيج عظيمين كادا أن يصيباني بالصمم. حطت الطائرة في مطار پيرم في الصباح الباكر وكان في استقبالي أشخاص الموثوقون، وسرعان ما توجهنا إلى اجتماع الدائرة فوصلناه عند بدايته. وقد سبب ظهوري صدمة عند منظمي الاجتماع، لأنه لن يكون بوسعهم الاتصال بلجنة منظمة الإقليم الحزبية وبالتالي فلن يستطيعوا تغيير شيء ما. وألقيت كلمة في الاجتماع ضممتها برنامجي الانتخابي ثم أتبعته برودود على الأسئلة

المطروحة من قبل الحاضرين . كان كل شيء يسير على ما يرام ، وعندما بدأت عملية التصويت - أقول بصراحة - لم أكن أشعر بالقلق على الإطلاق . كانت كل الدلائل تشير إلى أنني سأوفق في التغلب على هذا العائق الأول في طريق الدورات الانتخابية الأخيرة . وهكذا فقد حصلت على أكثرية الأصوات وأصبح بالإمكان الآن العودة إلى موسكو .

وما لبثت اجتماعات الدوائر أن بدأت في العاصمة . وبغض النظر عن الانتصار الذي حققته في بيرينيكس فقد قررت الاشتراك أيضاً في اجتماعات الدوائر الموسكوفية ، رغبة مني في معرفة أجوائها والنظر في آلية تأثير السلطة في المواطنين . كان ذلك بالنسبة إلي مدرسة رائعة تعلّمت فيها أشياء كثيرة .

وبالمناسبة ، أشير إلى أنني كنت أنسحب في أي دائرة حين يتضارب ترشيحي مع ترشيح أشخاص شرفاء ومحترمين وجدريين . وعلى سبيل المثال ترشح أ . ساخاروف في دائرة أوكيتابرسكايا فاتصلت به وأبلغته أنني أسحب ترشيحي لصالحه ، ففاز في الانتخابات بالطبع ، عبر أكاديمية العلوم في الاتحاد السوفياتي وعبر المنظمات الاجتماعية .

كنت أخرج من كل اجتماع بخبرة وتجربة جديدتين . فهناك حيث كان يسود جو معادٍ لي على وجه الخصوص ، كنت أشعر بلذة أكبر في التصارع معهم . لقد كنت أرى بأم عيني كيف يتغلب الناس على وضع المنوم مغنطيسياً وكيف يتمردون على الجهاز الذي يقود هيئة رئاسة الاجتماع كما يقود المايسترو فرقته الموسيقية .

ومما لا أنساه على هذا الصعيد الاجتماع الذي جرى في دائرة منطقة غاغارينسكايا في العاصمة . كان من ضمن المشاركين فيه

مرشحون أقوياء كالكتاب والصحافي يوري تشيرنيسنكو والمؤرخ العسكري الجنرال دميتري فولكوغونوف والمخرج السينمائي إيلدار ريزانوف ورائد الفضاء ألكسي ليونوف وغيرهم، حيث بلغ عددهم عشرة مرشحين. ما حدث أن كل مرشح من هؤلاء طلب من الاجتماع تثبيت ترشيح العشرة حتى يتسنى للمواطنين أن يقولوا كلمتهم عند الانتخاب.

وبما أن كلمات كل المرشحين كانت كلمات قوية وعاطفية ومقنعة فقد بدأ الاجتماع ينقسم ويتشردم حتى بات الجميع تقريباً في نهاية المطاف يرفضون استخدام حقهم في ممارسة غربة المرشحين.

ويا لما حدث! انقضت هيئة رئاسة الاجتماع ببساطة على الناس، فراحت أريجيتها تتفق عن اقتراح تلو اقتراح وكلها تستهدف عدم تمرير ما تواضع عليه الحضور، أي الإبقاء على ترشيح العشرة. وكان إيلدار ريزانوف المرح المتفائل أبداً على استعداد دائم للانفجار غضباً فيما المقترعون يتراكضون واحداً إثر واحد نحو الميكروفون ليصبوا لعنات العار على الرئاسة، فقد بلغ الأمر بالناس حدّ الصراخ: نطالب بتثبيت كل المرشحين! ما تفعلونه احتقار للناس جميعاً. واستمر صراع المجتمعين مع هيئة الرئاسة المبرجة بالتعليقات حتى الثانية بعد منتصف الليل، وفي نهاية الأمر انتصرت الناس، وضمت لائحة الترشيح في الدائرة المذكورة عشرة مرشحين. وغادرت الاجتماع ينتابني شعوران: شعور بأن العدالة والتفكير الحكيم قد انتصرا رغم كل شيء، وشعور آخر ثقیل: أي آلة سلطوية تقف فوق رؤوسنا كالهراوة، تلك الأداة الشوهاء التي ابتدعها ستالين.

(من الأسئلة التي وجهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية)

يقال إنك خضعت لمحاكمة في سفيردلوفسك هل
هذا صحيح ، وكيف حدث؟

عُيِّنَ مهندساً رئيسياً في الإدارة رقم ١٣ . كان مدير التريست
نيقولاي إيفانوفيتش سيتينكوف ، وهو شخص فريد من نوعه ، عنيد
حتى لا أستعمل وصفاً آخر - وقد بلغ عناده حدود الجور بأبسط
أشكاله . وقد تكوَّنت بيننا علاقات غريبة : مثلاً كان يأتي ويبدأ
بالصرخ ، وإذا اعتبرت أن ما أفعله صحيح لم أكن لأخضع له
وأستمر بالقيام بعملِي كما أرى . وكان ذلك يجعله يحتدم ويحترق . وإذا
صدف أن استقلت معه سيارة ودار بيننا نقاش متصلب كان يوقفها
إلى جانب الطريق ويقول : «إنزل!» أرد عليه : «لن أنزل ، أوصلي
إلى محطة الترام» . وهكذا فقط يطول بنا الوقوف نصف ساعة أو
ساعة ، حتى لا يعود يطبق صبراً لأنه سيتأخر في الذهاب إلى موعد
فينطلق ليوصلني إلى المحطة . ومن الحوادث معه على سبيل المثال أنه
كان يستدعيني إلى مكتبه ويبدأ بالسباب والشتم بما تيسر من تلك
الكلمات ، ثم يحتدم الموقف فيمسك بالكرسي فأمسك بدوري بكرسي
ويتحرك كلانا نحو الآخر ، فأقول له : «انتبه ، أي حركة صغيرة سأرد
بأسرع منها وأكبر» . على أي حال سأكون أول من سيضرب» . كانت
علاقتنا دائماً على هذا النحو .

وقد رفع مسألة إقالاتي من العمل إلى لجنة المدينة الحزبية مرات
عديدة ، إلا أنني توصلت آنذاك لأصبح مسؤولاً عن الإدارة . لم يكن
عملي مع المجموعة سيئاً ، واللجنة الحزبية لم تسمح بطردي ، وكان
يشغل منصب السكرتير الثاني وقتذاك فيدور ميخائيلوفيتش
مورشاكوف ، وكان شخصاً طيباً ذكياً وقد أنقذني عدة مرات .

وفي مرة من المرات بلغ عدد الإنذارات التي وجهها إلي مدير

الإدارة سبعة عشر إنذاراً في غضون سنة واحدة. وفي ٣١ كانون أول (ديسمبر) جمعت الإنذارات كلها وذهبت إليه وضربت الطاولة بقبضتي قائلاً: «ما إن توجّه إلي أول إنذار في العام المقبل حتى أفجر معركة كبيرة. خذ ذلك في حسابك». وفي الثاني من كانون الثاني (يناير) تلقيت إنذاراً لأننا لم نعمل في أول الشهر. وكما هو معلوم فإن أو الشهر عيد نعطل فيه، ومع ذلك، فقد رأى المدير أنه كان ينبغي العمل. وقررت ألا أسكت، فتوجّهت إلى كل المستويات حتى نجحت في إزالته. وإثر هذه الحادثة أصبح المدير حذراً في توجيه الإنذارات إلي.

ولاحقاً ادّعى علي لدى القضاء بتهمة اختلاس مالي وذلك نتيجة لاحتسابات مالية خاطئة حاول تصيدي عن طريقها. كان رئيس المحاسبة في التريست يمثل الجهة المدّعية وكنت أنا المتهم أو المدّعي عليه. كنت أجلس على المقعد في المحكمة التابعة للمنطقة وأبرهن أنه ليس هناك أي قضية أو جريمة. وبدا لحسن الحظ أن القاضي الذكي شاب في الأربعين أو الخامسة والأربعين من عمره، وعندما نطق في نهاية الجلسة بالحكم قال ما حرفيته: «يمكن ويجب أن يكون في ممارسات أي مسؤول بعض المغامرة، والأمر الرئيسي أن تكون هذه المغامرة محسوبة ومبرّرة وفي هذه الحالة يبدو لي أن المغامرة عند يلتسين مبرّرة». وقضى الحكم ببراءة يلتسين بالكامل وتحميل التكاليف للمدعي أي على حساب التريست. كان ذلك ضربة كبيرة هوت على رأس رئيس المحاسبة ومدير الإدارة، الأمر الذي كان بالنسبة إلي محفزاً ومشجعاً. والحقيقة أن رئيس المحاسبة لم ينس التحقير الذي لحق به في المحكمة، فحاول من خلال موقعه كعضو في قيادة منظمة التريست الحزبية أن يضيق علي أثناء قبول انتسابي إلى الحزب.

فمن بين الأسئلة العديدة التي طُرحت علي في اللجنة الحزبية، السؤال التالي: «في أي صفحة من أي مجلد من رأس المال يتكلم ماركس على العلاقات النقدية - السلعية؟». ولأنني كنت واثقاً أنه حتى لم يقرب ماركس بالمرّة، فهو لا يعرف بالتالي لا المجلد ولا الصفحة المطلوبين، فأجبت بين المزح والجد: «المجلد الثاني، الصفحة ٣٨٧». قلت ذلك بسرعة ودون تفكير، الأمر الذي جعله يلاحظ بإمعان وتأمل: «جيد. هاإنك تعرف ماركس جيداً». وعلى العموم فقد قبلني عضواً في الحزب.

واستمر جور المدير لاحقاً بي إلى أن نقلت للعمل مهندساً رئيسياً في مجمّع أبنية سكنية تفوق بضخامتها التريست.

ومن المفيد عدم إغفال كيفية توجيههم إنذاراً صارماً إلي مع إثباته في ملفي الحزبي، وذلك في مكتب اللجنة المركزية. كنت قد تسلمت من عهد قريب مهمة رئاسة إدارة البناء في التريست. وكان يتولى الرئاسة قبلي شخص فطيع، مدمن، لم يكن يتورّع عن إفشال أي مشروع يمكنه إفشاله بما في ذلك مشروع بناء مدرسة داخلية. وفي أيلول (سبتمبر)، عندما تسلمت المنصب، كانت تجري عملية صب الطبقة الأولى، وكان من المفروض بحسب البرنامج أن تُصبّ الطبقة الرابعة. وبالطبع فإن المشروع دُفن بمعنى ما، فكان من المستحيل أن ينتهي العمل به في نهاية السنة مهما بلغت الجهود. وفي بداية السنة كان من المفروض أن أقبل عضواً في الحزب وأمنح البطاقة الحزبية في اجتماع احتفالي، حيث يعقد مكتب لجنة المدينة الحزبية في اليوم التالي اجتماعه التقويمي السنوي. وفجأة أسمع صوتاً يقول: «فلنوجه إنذاراً صارماً إلى يلتسين مع إثباته في ملفه حتى لا يكرر الأمر مرة ثانية».

فما كان مني إلا أن توجهت إلى المنبر وقلت: «الرفاق أعضاء

المكتب - وكان هناك جمع كبير من الأعضاء في الاجتماع - حاولوا أن تتفهموا الوضع. لقد تسلّمت بطاقتي الحزبية البارحة، ها هي ما تزال بعد ساخنة، واليوم تقترحون توجيه إنذار صارم إلي وأنا شيوعي مع خبرة يوم واحد، وتريدون إثبات الإنذار في ملفي الحزبي لأنني لم أنهِ العمل في المدرسة الداخلية. هنا في هذه القائمة عمال بناء يستطيعون أن يؤكدوا أن الانتهاء من العمل بها ببساطة لم يكن ممكناً. لا. وأصروا على توجيه الإنذار حتى لا تكون سابقة! ويبدو أن سيتنيكوف قد لعب أيضاً دوراً في توجيهه. كان ذلك بالنسبة إلي ضربة جديدة.

كنت أوّمن من أعماقي بمثل العدالة التي يحملها الحزب وقد انتسبت إليه بكل إخلاص، ودرست نظامه وبرنامجه وكلاسيكي النظرية، فقرأت أعمال لينين وماركس وإنجلز. وفجأة حدث لي ما حدث علناً وأمام الجميع. . . ومضت سنة قبل أن يلغوا الإنذار الصارم إلا أنه بقي ماثلاً في ملفي الحزبي إلى أن تم إبداله من ضمن إبدال الوثائق الحزبية، عندها فقط عاد الملف أبيض.

وبشكل عام، فإننا لم نعتد التفكير في الدور السلبي الذي ينجم عن تدخل الحزب في المسائل الاقتصادية إلا في المدة الأخيرة. في السابق كان المسؤولون عن الاقتصاد - فضلاً عن العاملين الحزبيين - يعتبرون هذا التدخل أمراً بديهياً وطبيعياً، وكان الأمر كذلك بالنسبة إليّ أيضاً. وقد دعيت لحضور كثير من الاجتماعات في لجان المناطق الحزبية، وكنت بالطبع أحاول في الحقيقة التهرب من حضورها، ولكن ماذا أفعل وقد كانت تُحلّ جملة من القضايا والمواضيع الاقتصادية إلى جانب فرض العقوبات واتخاذ القرارات وتوجيه الإنذارات. . . كان ذلك يشكل جوهر النظام الموجود، ولم

يكن ذلك ليثير تساؤلاً أو اعتراضاً. المهم ألا يعترض سبيلنا واحد من أولئك المسؤولين الحزبيين أبناء الجهاز، فيحوّل حياتنا بغباواته أو بجنون العظمة إلى جحيم. وأذكر أنني تورّطت في نزاع مع سكرتير لجنة المنطقة الأول بوبيكين الذي سيصبح فيما بعد سكرتير إقليم سفيردلوفسك الأول، حيث سنلتقي سوية من مواقع مختلفة في الكونغرس الحزبي التاسع عشر. وأذكر يومها أنه أرسل ورقة كتب عليها نصاً هجومياً في حق فولكوف أحد المندوبين الحزبيين من إقليم سفيردلوفسك المنبري للدفاع عني.

تلقيت آنئذٍ برقية هاتفية من بوبيكين يطلب فيها الحضور إلى الاجتماع خلال ساعات، وتعجبت لهذه اللهجة ولم أعرف كيف يمكن وصفها، بيد أنني لم أرد. وبشكل عام فقد أحصيت مرة عدد المنظمات التي يمكن أن أستدعى إليها للاجتماع - ابتداء من لجان الأقاليم وانتهاء بالمقاطعات، حيث توجد مشاريع بناء قائمة - فوجدت أنها تربو على اثنتين وعشرين منظمة. ومن الطبيعي أنه لم يكن بوسعي التواجد في كل مكان، فكنت أتصل بالمواقع هاتفياً بعض الأحيان أو أرسل مساعدي في أحيان أخرى، وعلى العموم كان العمل يسير بالتوافق. ثم فجأة تنبعت هذه اللهجة القديمة الأمرة. وتكرر إرسال البرقية الهاتفية مرة ثانية وثالثة. وأخيراً، رنّ جرس الهاتف لأسمعه يقول: «أرجو أن تفسر لي الأمر. لماذا لا تحضر الاجتماعات التي يعقدها السكرتير الأول للجنة الحزب المنطقية؟» وأجيب: «ولماذا ينبغي أن أحضر بالتحديد إلى اجتماعك في الوقت الذي أكون فيه حاضراً اجتماعاتٍ أخرى لدى غيرك في مناطق أخرى؟ لماذا يجب أن أقدمك على الآخرين؟». وانفجر قائلاً: «سأبرهن لك عكس ذلك، وعلى كل حال ستأتي وتحضر!»، وأقول: «مع هذه الألفاظ لن ترى

بعد اليوم وجهي في أي اجتماع». وهذا ما حصل بالفعل، ولم يستطع أن يفعل شيئاً معي، وبالطبع فقد كان يجب أن يداوي جرح كبريائه وحاله هي نفسها حتى الآن.

وبعد العمل رئيساً للإدارة اقترح علي تولي منصب مدير مؤسسة تعنى بالبناء الإسكاني وتضم مصنعها الخاص بإنتاج مواد البناء ويعمل فيها عدة آلاف عامل وموظف، حيث أحيل مديرها على التقاعد. وهكذا، أصبحت مدير مؤسسة ضخمة جداً وكان لي من العمر آنذاك ٣٢ عاماً.

كانت مرحلة صعبة. فقد جرى في الوقت نفسه تشغيل المصنع وتبني التقنيات الجديدة مع المباشرة بالبناء الإسكاني المسرع. وعلى سبيل المثال، أجرينا تجربة بناء مبنى مؤلف من خمسة أدوار خلال خمسة أيام، وقد نجحت، مما جعلنا نجري تجربة أخرى لتوفير وقت فك الروافع. الجبارة وتركيبها في مواقع البناء المتتالية واحداً إثر واحد، وقد نجحنا في ذلك أيضاً. كما حللنا العديد من المشكلات التقنية، بحيث أصبحت المؤسسة تنفذ الخطط الموضوعة على نحو ثابت. وبتنا نخطط لباساً رسمياً خاصاً بعمال المؤسسة يحمل شعارها، علماً أن الحياطة كانت تتم وفق قياسات كل عامل على حدة، الأمر الذي أعجبهم كثيراً وجعلهم يفخرون بمؤسستهم.

وبالطبع، كان الوضع في ما يتعلق بالسكن صعباً، وخصوصاً في نهاية السنة أو الفصل، فكنا نعمل ليل نهار. وغالباً ما كنت أزور فرق العمل الليلية في المواقع.

وعلى العموم وُصف أسلوب عملي بأنه قاس، وهذه حقيقة، إذ كنت أطلب الناس بتطبيق دقيق للنظام والالتزام بتنفيذ الوعود.

ولأنني، كما أسلفت، لم أكن استخدم الألفاظ البذئية، فقد بذلت ما في وسعي حتى لا يعلو صوتي الأجنس، المرتفع أصلاً، أمام الآخرين من العاملين معي. وكانت حجتي الرئيسية في تطبيق النظام ومطالبة الآخرين باعتماده تطبيقي إياه تطبيقاً صارماً والإخلاص للعمل والإنصاف في التعامل مع الناس عند اتخاذ القرارات والتوجيهات. فمن يعمل أفضل يحق له أن يعيش أفضل، وبالتالي أن يقوم على نحو أفضل. فالحمل المهني النوعي لا يمكن عدم ملاحظته. وإذا قطعت وعداً فحافظ عليه، وإن لم تفعل فعليك مواجهة الآخرين. ولعل هذه العلاقات الواضحة المفهومة - على ما أظن - هي التي ولدت جواً إنسانياً ملؤه الثقة في أوساط العمل.

واليكُم مثلاً. كان عندنا معلم نجار رائع اسمه ميخائيليشين. كنت مثلاً أقول له: «فاسيلي ميخائيلوفيتش، قدّم لي خدمة، بقيت ليلة واحدة، وغداً ستأتي اللجنة الحكومية لتسلم البناء والأبواب دهنت ولكن يجب تركيبها، والأرض مدهونة. أخشى أنها ستجرح. يجب أن يجري عملٌ دقيق وسريع حتى الصباح». وتركته يعمل مع مجموعته طوال الليل وعدت في السادسة صباحاً. وأدخل فأجده يرتكب آخر باب لدى مدخل البناء. أحضرت معي راديو ترانزستور من البيت فأهديته إياه، ضممته ولم أنبس ببنت شفة. فهل كان بعد ذلك سيُشعر بأي حزن أو مرارة أو غضب لأنني أجبرته على العمل طوال الليل.

وهكذا، فقد عملت أربع عشرة سنة في ميدان الإنتاج، ثم فجأة يُقترح علي أن أشغل منصب رئيس قسم البناء في لجنة منظمة الإقليم الحزبية. لم يفاجئني الاقتراح مطلقاً، ذلك أنني عملت دائماً في الميدان الاجتماعي، غير أنني وافقت على مضض... كنت سعيداً في ترؤس

المؤسسة وقد نجحت في إدارتها، إذ لم تتوان مجموعتي عن تنفيذ البرامج باستمرار ضمن الوقت المحدد، فضلاً عن الراتب المرتفع. أما الآن وفيما أنا عضو في مجلس السوقيات الأعلى فإني أتقاضى راتباً يقل كثيراً عما كنت أتقاضاه منذ عشرين عاماً. . ورغم كل شيء رضيت بالمنصب الجديد دون رغبة. ربما أردت القيام بخطوة جديدة، ويبدو لي أنني لا أستطيع حتى الآن فهم المصير الذي ساقطني إليه.

يوميات الانتخابات

٢١ شباط (فبراير) ١٩٨٩

إنه لمن الغريب أن يحدث ما حدث، وإني لا أكاد أصدق ذلك حتى الآن. تُبَّت ترشيح بوريس يلتسين عن دائرة موسكو. حدث ما كان لا يرغب في حدوثه كبار الجهاز وقادته الأعلون وقاوموه بكل ما يملكون من سلطة.

وكان مرشح الضد في اللائحة الانتخابية عن الدائرة نفسها يو. براكوف مدير عام مصنع سيارات «زِيل».

ووفق ما كان متبعاً وجب «ركلي» في اجتماع الدائرة وإخراجي بالمرة. كان في الصالة ألف مندوب يمثل عشرة مرشحين حوالى المائتين منهم، في حين أن الثمانمائة مندوب الباقين جرى انتخابهم وفق مبدأ: «سمعاً وطاعة».

كان الجميع يعلم كيف سينتهي اجتماع الدائرة، إذ حدّد الجهاز اسمين ليثبتا مرشحين عن الدائرة هما: يو. براكوف ورائد الفضاء غ. غريتشكو. وكان يحذوني أمل أن الاجتماع سيتحول مع ذلك ويثبت ترشيح العشرة، عندئذ ستلوح فرصة حقيقية. وهكذا، كتب المرشحون العشرة بمبادرة مني قبيل بدء الاجتماع رسالة تتضمن تبنياً على المندوبين لإصدار لائحة تثبتهم جميعاً، ويجب القول إنهم وقّعوها

بكل سرور، إذ لم يرد أحد منهم الاشتراك في تمثيل مسرحية يعرفون نهايتها الجاهزة مسبقاً. ومع بداية الاجتماع أحسست - من الجو السائد - أن الترتيبات الجاهزة لن تمر هذه المرة. ففي رأس كل مندوب كان يرئ أسمان: «غريتشكو وبراكوف»، إذ كانت تجارب الاجتماعات السابقة بمثابة دروس استفاد منها البيروقراطيون الذين باتوا يعرفون دون ريب كيف يمكن استخلاص العبر من الأخطاء.

وقد اتبع النظام التالي، كان كل مرشح يلقي كلمته المتضمنة برنامجه الانتخابي ويعقب ذلك الإجابة على الأسئلة المطروحة كتابياً لمدة خمس دقائق، فيما تُعطى سبع دقائق للرد على الأسئلة المطروحة مباشرة من الصالة. وقد طرح علي أكثر من مائة سؤال.

عرفت أن في الصالة أشخاصاً مُزوَّدين بأسئلة استفزازية مهتأة خصيصاً لتطرح علي. كان هؤلاء يجلسون بانتظار الإشارة من منظمي هذه الهمروجة حتى يبدأوا عملهم. عندها قررت التصرف على نحو مفاجيء. فمن بين كل الأسئلة التي وردتني انتقيت تلك الجائرة والسيئة والمثيرة للغضب، والعادة أن يجيب المرشح عن الأسئلة المريحة والمربحة، إلا أنني قررت العكس تماماً.

وبدأت الإجابة على أسئلة مكتوبة تقول: «لماذا خنت منظمة موسكو الحزبية وجبنت وضعفت أمام المصاعب؟»، «على أي أساس انتقلت ابتنتك إلى شقة جديدة؟»، كانت الأسئلة التي انتقيتها على هذا المنوال وبهذه الروحية، وبإجابتي عليها فقد نجحت في تعكير صفو مخططات منظمي الاجتماع. لقد استفدت كل الأسئلة السلبية تقريباً التي أزمعوا طرحها شفهاياً من الصالة، وقد أجبت عليها بهدوء وسهولة. ولاحظت أن الصالة بدأت تتفكك شيئاً فشيئاً، كما بدأت

تلوح في أفقها تباشير نتائج غير تلك التي كان متوقعاً إحداثها وفق مخططات المنظمين.

وكانت لدى مفاجأة أخرى في اللعبة. فقَبِل انعقاد الاجتماع اقترَب مني رائد الفضاء غيوركي غريتشكو وقال إنه يود سحب ترشيحه لاعتقاده أن من الصحيح دعم ترشيحي، وإنه لا يريد بوجه عام أن يخوض ضدي أي معركة. قلت له: «لا. فُكِّر في الموضوع»، ولكنه أجاب: «هذا قراري النهائي»، عندئذٍ طلبت منه أن ينسحب قبيل بدء عملية التصويت بالضبط.

كان غريتشكو يميّز الأمور بوضوح شديد. وبشكل عام أدركت أن الممثل الرائع الذي فيه قد مات. كان على مدى الاجتماع يعاني ويظهر توتر أعصابه ويبدو على ملامحه الضيق والقلق من ردة فعل الحضور، ومن الأسئلة والأجوبة والقتال من أجل البرنامج الانتخابي. ثم جاءت النهاية، وقبل أن يبدأ التصويت أعطي كل مرشح دقيقة واحدة ليقول كلمته الأخيرة. . . . وحين دور غريتشكو فاقترَب من المنبر ليعلن بهدوء: «أرجو سحب ترشيحي».

كان ذلك ضربة فظيعة تُوجّه إلى منظّمي الاجتماع. وهكذا، فقد برزت لدى جميع المندوبين، المُبرّجين لانتخبوا براكوف وغريتشكو، فرصة لتصويت حر، بحيث أصبح بإمكانهم التصويت لي دون أن يشعروا بتوبيخ الضمير إذا ما اعتمدت طريقة الاقتراع السري.

وهذا ما حدث بالضبط، فحصلت أكثر من نصف الأصوات، وتلقت التهاني الحارة من جميع المرشحين. كان يسود بيننا جو مفعم بالصدقة والرفاقية، الأمر الذي أثر فعلاً في نتائج الانتخابات.

وعموماً، كانت خطط خصومي في كل مرة تنهار لأنهم يعتقدون -

ولا أدري لماذا - أن الناس الموتورين الحاقدين موجودن أينما كان .
فهم يعتمدون في كل مرة على الأشرار، وفاتهم أن هؤلاء قلة، ولهذا
السبب يتغير كل شيء . ولو أنهم وفقوا في العثور على هؤلاء فقط
لجمعهم لكنك مُنيت بالخسارة دون ريب . ولكنهم لم يستطيعوا أن
يجمعوا في كل موسكو حتى ثمانمائة شرير . . يا لهم من تعساء . .

وبدأت مرحلة الحملة ما قبل الانتخابية . ولأن فرصتي في تحقيق
الانتصار على العائق الدوري قد ازدادت، فقد تضاعفت مئات
المرات مقاومة أولئك الذين اعتبروا نجاحي كارثة حقيقية بالنسبة
إليهم وانهاراً لثقتهم في النظام القائم ومماسكه . لم يكن يقلقهم واقع
أن النظام أصابه الاهتراء منذ زمن بعيد، وكانت المسألة الأساسية
التي قُضت مضاجعهم هي عدم السماح ليلتسين بالمرور .

ولكن بدا أن الوقت قد فاتهم . . .

أي أخطاء ارتكبتها أثناء توليك منصب السكرتير
الأول لمكتب منظمة الإقليم الحزبية؟

هل وجهت إليك انتقادات، وكيف كان موقفك
إزاءها أثناء توليك هذا المنصب؟

تزامنت أفضل سنوات عملك سكرتيراً أول لمكتب
منظمة الإقليم الحزبية مع سنوات الركود . فما هو
موقفك من ذلك؟

(من الأسئلة التي وجهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات
والاجتماعات الانتخابية)

عملت سبع سنوات على وجه التقريب نائباً لرئيس قسم في لجنة منظمة الإقليم الحزبية، ثم انتخبت بعد ذلك سكرتيرها الأول. وبعد مضي سنة أرسلت إلى موسكو لحضور برامج استماع شهرية في أكاديمية العلوم الاجتماعية التابعة للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي، فاضطرت إلى الدراسة حوالى الأسبوعين. في ذلك الوقت انعقدت اجتماعات دورة اللجنة المركزية التي انتخبت فيها سكرتير أول لجنة إقليم سفيردلووف الحزبية وريابوف سكرتير للجنة المركزية. وفي اليوم التالي، أثناء استماعي إلى محاضرة في الأكاديمية، دنا رئيس البرنامج كوروليوف من الميكروفون وأعلن قائلاً: يلتسين مدعو للذهاب إلى اللجنة المركزية في الساعة الحادية عشرة. والحضور، طبعاً، أناس ذوو خبرة، وسرعان ما تحلق حولي جمع يسألونني عن الأمر ويستوضحون. لم يدر في خلدي أي معلومات ولم أعرف شيئاً البتة، على الرغم من أنني كنت أحس في داخلي أي حديث يمكن أن يدور هناك، إلا أنني حاولت طرد هذه الأفكار. وتوجهت إلى اللجنة المركزية.

قالوا عرّج أولاً على كاييتونوف سكرتير اللجنة المركزية لشؤون التنظيم، الذي أخذ يطرح علي أسئلة عن الدراسة وغيرها، وبدا مهتماً بمعرفة الوضع في لجنة منظمة الإقليم الحزبية والعلاقات السائدة بين أعضائها. . . . وكنت أجيب أن كل شيء عادي، ثم لم يزد شيئاً ولم يوضح لماذا دُعيت إلى اللجنة المركزية. وقال هيا بنا نذهب إلى كيريلينكو، وهناك جرى الحديث نفسه ولم يصدر أي تفسير. وذهبنا تالياً إلى سوسلوف، وكان الحديث هذه المرة أكثر مكرراً وحنكة: هل تأنس في نفسك القوة، هل تعرف جيداً منظمة الإقليم الحزبية. . . إلخ. . . ، ولم تنته إلى شيء. . . وفكرت بيني وبين نفسي كم هو غريب

هذا النظام، وماذا سيكون بعد؟ ثم يقال لي: إن بريجنيف يدعوك للقاءه. لا بد من الذهاب إلى الكرملين. ورافقتي سكرتيرا اللجنة المركزية كابيتونوف وريابوف. وما إن دخلنا غرفة الانتظار حتى قال المساعد: «بإستطاعتكم الدخول. إنهم بانتظاركم». وتقدّمت مرافقتي ودخلت. جلس بريجنيف على رأس طاولة الاجتماعات فاقتربت منه ونهض مسلماً علي وتوجّه إلى صاحبي قائلاً: «إذن، فقد قرّر أن يأخذ زمام السلطة في إقليم سفيردلوفسك». وانبرى كابيتونوف يشرح له الأمر: «لا، إنه لا يعرف شيئاً». قال بريجنيف: «وكيف لا يعرف وقد قرر القبض على زمام السلطة؟». وهكذا بدأ الحديث وكأنه مزاح وجد في آن. وقال بريجنيف إن المكتب السياسي اجتمع وأوصى أن أتولّى منصب السكرتير الأول لمكتب منظمة إقليم سفيردلوفسك الحزبية.

كان كوروفين يشغل آنذاك منصب السكرتير الثاني في إقليم سفيردلوفسك، وهذا يعني أن العادة المتبعة في الترقية لم تعتمد وأُجِّلَ بها. وحدث أن سكرتيراً عادياً رُقّي في ما يشبه القفزة إلى منصب السكرتير الأول فيما بقي السكرتير الثاني في مكانه. وكان كوروفين، بالطبع، ذا شخصية لا تجعله قادراً على تسنّم منصب السكرتير الأول، وهو أمر أدركه الجميع.

وسألني بريجنيف: «إذن، ماذا ترى؟». كان كل ذلك مفاجئاً بالنسبة إلي، فالإقليم رحب كبير ومنظمته الحزبية ضخمة. . . وقلت إذا كنت موضع ثقة فلن ألو جهداً وسأعمل بكل قوتي، ثم نهضنا فإذا به يقول: «إلا أنك لن تكون عضواً في اللجنة المركزية لأن المؤتمر قد انعقد وانتهت الانتخابات». طبعي أنني لم أفكر حتى في طرح السؤال، ولكن راعني صوته الذي جاءني مغلفاً بلهجة تبريرية. وما

لبث أن نظر ملاحظاً أنني لا أحمل شارة النائب في مجلس السوفيات الأعلى، فقال: «ألسنت نائباً؟» أجبت: «بلى، أنا نائب». واستدار نحو السكرتيرين المرافقين وقال متعجباً: «كيف؟»، ورددت بلهجة جادة: «نائب في سوفيات الإقليم». وأقول بصدق إن هذا أثار حيوية بين الثلاثة، ذلك أن المرء لا يعتبر بالنسبة إليهم نائباً إذا كان عضواً في السوفيات الإقليمي! وانتهى اللقاء بقوله: «فلْيُطرح الأمر في دورة اجتماعات لجنة منظمة الإقليم ولا تؤجلوه».

وبعد مضي يومين، وتحديدًا في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٦ انعقد اجتماع لجنة الإقليم الكامل بحضور رازوموف النائب الأول لرئيس قسم التنظيم في اللجنة المركزية. وجرى كل شيء كما كان مقررًا: أعلن المندوب المركزي أنه بسبب انتخاب ريبانوف سكرتيراً للجنة المركزية يُقترح أن يتولى يلتسين مهام السكرتير الأول للجنة الإقليم الحزبية. في هذا الوقت كنت أخط على ورقة صغيرة موضوعات لمداخلة صغيرة، إحساساً مني بأن ذلك أمر ضروري. وتمت عملية التصويت كالعادة بالإجماع، ثم تلقيت التهاني وطلبت الكلام فأدليت ببرنامج عمل ملخص ومكثف للمستقبل. كانت الفكرة الرئيسية في منتهى البساطة وهي: يجب قبل كل شيء الاهتمام بالناس، وإلهم سيادلوننا دائماً بعطاء كبير. وما تزال هذه الفكرة حية لدي وتشكل مبدأ أؤمن به.

كان لا بد من حل العلاقة مع السكرتير الثاني كوروفين الذي أمسى العمل معه صعباً من الوجهة النفسية، فبعد مرور بعض الوقت تقدم المكتب باقتراح أن يرأس مجلس سوفيات النقابات في الإقليم حيث عمل برضا كبير. أما المناقشات الأخرى في مختلف الكادر فكانت تتم بصعوبة كبيرة، مما كان يجعلني أتحضر داخلياً في كل مرة

يعالج فيها نقل أحدهم. كان من الضروري بمكان تحديد الكادر العامل في المنظمة. فقد اقترحت على سبيل المثال على رئيس اللجنة التنفيذية الإقليمية بوريسوف ترك منصبه وإحالة على التقاعد.

كان الدور الذي اضطلعت به هذه اللجنة تحت قيادته غير كاف، وكان على السوفياتيات أن تهتم بصورة جدية بمجالات الاقتصاد والثقافة الاجتماعية والبناء في الإقليم، حتى يتسنى أن تنتقل هذه الوظائف تدريجياً من قبضة الهيئات الحزبية إلى الهيئات السوفياتية (التمثيلية)، بحيث تتمكن الأولى من مزاولة الشؤون السياسية. وقد وافق بوريسوف على الخروج. كنا بحاجة إلى وجه قوي وذكي ليتولى هذا المنصب. وبعد غربلة أجريتها في ذهني للقادة المعروفين مني فكرت في أناتولي ألكسندروفيتش مخريتنسوف مدير عام مصنع كالينين، حائز لقب بطل العمل الاشتراكي ودرجة مرشح في العلوم (دكتور)، وهو بشكل عام شخصية ذات خبرة. وكنت أعرف جوانب شخصيته الإنسانية وذكائه اللامع وقدرته على استيعاب الأوضاع بسرعة دون تهاب المصاعب، فضلاً عن كونه فتياً، فاقترحت عليه تولي المنصب الشاغر. في البدء رفض، وعاد بعد ذلك ووعد بالتفكير في الأمر جدياً، فما كان مني إلا أن ضغطت عليه حتى وافق في النهاية وتسلم العمل. وأعتقد أن ذلك كان قراراً صحيحاً، إذ سرعان ما تكيف مع عمله الجديد وإن بالتدريج، فلم يمض وقت طويل حتى بات أقوى رئيس لجنة تنفيذية إقليمية بالمقارنة مع رؤساء آخرين في أقاليم جمهوريتنا.

وهكذا، تشكل فريقتي بالتدريج قوياً وخلّاقاً وقادراً.

وشرعنا نعدّ برامج في الاتجاهات الرئيسية على نحو جدي وعميق ومدرّس بعناية. وكنا نناقش كل برنامج على حدة في المكتب تمهيداً

لاتخاذ قرار بتنفيذه، فكانت اجتماعات المكتب إما مفتوحة أو مغلقة. أما في الاجتماعات المغلقة فكنا نستمع إلى انتقادات بعضنا في ما تم إنجازه، وكنت ألقى شخصياً الاعتراضات وأتقبل الانتقادات كذلك. وقد خلقت هذه الحالة العملية المتسمة بالصراحة عن سابق تصميم، كي تتخذ الانتقادات الموجهة إلى طابع الظاهرة العملية الطبيعية، مع أنني لم أكن أوافق دائماً على الانتقادات في حد ذاتها. لعل ذلك كان ناجماً عن كبريائي، ولكني حاولت تجاوزه ما استطعت.

وبدأت مرحلة العمل المحموم، وكما كانت حياتي على الدوام، فقد أغرقت نفسي فيه ولم أشفق عليها. وشيئاً فشيئاً وجد الآخرون أنفسهم يغرقون في لجة العمل بمن فيهم مخريتشف، فيما جهد آخرون للاقتراب من الإيقاع السائد. وكان ثمة أشخاص لم يقدرُوا على تحمل هذه الوتيرة، إلا أنني لم أبدي تجاههم أي اعتراض خاص، إذ كان الأمر الرئيسي يتمحور حول وجود العطاء، وبالتالي وجود النتائج. وكانت تستمر دائماً الحوارات والمناقشات المفعمّة بروحية عملية وطابع بناء. كنّا نجتمع في مناسبات عائلية وبيتية ذات طابع إنساني، الأمر الذي أعاننا في عملنا. ووضعت أمامي هدفاً عملت على تحقيقه: فقد ضم الإقليم خمساً وأربعين مدينة إضافة إلى القرى والبلدات، ليصبح مجموع ما لدينا ثلاثة وستين تشكيلةً مدينيةً وريفيةً، وكان لا بد من الحضور المادي في كل منها مرة أو مرتين في العام على الأقل. ولقد نفّذت ذلك فعلاً. ولم تكن زياراتي مجرد رحلات، بل كانت عملاً دؤوباً جدياً. والتقيت مع المجموعات العاملة من اختصاصيين وعمال وكولخوزيين وسكان ريفيين. . . وقد لا يكون من الصدف الغريبة أن رحلات العمل التقليدية السنوية كانت تتم في عيد ميلادي.

كنت في عيد ميلادي أختفي هرباً من التهاني العديدة، وطبعي
أنني لم أكن لأختفي في البيت أو في المكتب، حيث يمكن العثور علي،
بل كنت أتوجه إلى أطراف الإقليم البعيدة فألتقي الناس في المصانع
والحقول. . أي في أماكن يصعب فيها إيجادني. فأنا لا أحب
الاحتفال التقليدي بيوم الميلاد حين تجلس إلى الطاولة وتتحلق حولها
المدعوون ليسفحوا في وجهك مدائحهم حول عظمتك. فالمرء يشعر
بالحرج إزاء ما يسمع. كنت أستشعر سعادة ورضا كبيرين إذا
ابتعدت عن المدينة وقصدت الناس لأحلّ لهم مشكلاتهم. كنت أقدم
لنفسي عملياً هدية العيد.

ولقد حاولت باستمرار اختلاق لقاءات أو معارض أو احتفالات أو
أعياداً ما، كي يشعر مواطني سفيردلوفسك مع المدينة وكي يشعروا
بإحساس الفخر حيال وطنهم سفيردلوفسك وتاغيل السفلى وغيرها
من مدن الإقليم.

كتب أناتولي كارپوف في مؤلفه: «وغداً. . ثانية إلى المعركة» بعد
فوزه على كورتشنوي، أن إقليم سفيردلوفسك الرحب - وهذا كلام
حق - ليس فيه نواد للشطرنج. وبعد أن قرأت ذلك اتصلت به
وقلت له: «تعال نحدّد الشهر والتاريخ، ومتى أتيت إلى سفيردلوفسك
سيكون فيها ناد للشطرنج». واتفقنا على الزيارة وبدأ العمل. أخلينا
مبنى قديماً وأجرينا تصليحات كاملة فيه وأفردنا فيه صالة واسعة
وأثناها بالملعب، فأصبح لدينا ناد محترم للشطرنج. وبعثت إلى
كارپوف ببرقية أحدد فيها تاريخ زيارته المنتظرة. ولم يأت بمفرده بل
بصحبة رائد الفضاء سيفاستيانوف رئيس اتحاد الشطرنج في البلاد.
كان هناك جمع كبير من الناس أمام النادي الجديد، وحين آن وقت
قص شريط الافتتاح قلت لأناتولي كارپوف: تفضل قص الشريط،

فأنت صاحب المبادرة. وأكملنا العيد في صالة اللعب. وقبل ذلك كنت قد طلبت إلى لاعبينا المحليين أن يكتبوا على لوحة من الكرتون استشهاده حرقاً من كتابه حيث يقول إنه لا يوجد في إقليم سفيردلو فناد للشطرنج. وعندما بدأ كارپوف بإلقاء كلمته حملوا إليه اللوحة الكرتونية مقترحين عليه تمزيقها وقطع وعداً بأنه سيصحح العبارة في طبعة الكتاب الثانية بما يزيل هذه النقطة السوداء من واقع حياة الإقليم. وبسعادة كبيرة مزق كارپوف اللوحة أمام دهشة الجميع. إثر انتهاء الاحتفال أوصلته بنفسه إلى حدود الإقليم في طريقه إلى مسقط رأسه «زلاتو أوست».

ولم أتوقّف عن مزاوله النشاط الرياضي. وبالطبع لم أكن لألعب لصالح أي من الفرق، إلا أنني شكلت من أعضاء مكتب القيادة الإقليمية فريق كرة طائرة. وسرعان ما بات من الصعب تصوّر حياة اللجنة الإقليمية دون الكرة الطائرة. كنا نلعب مرتين في الأسبوع: أيام الأربعاء والأحد من السابعة والنصف حتى العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً. كانت تشترك في الفرق المتشكّلة عائلات بأكملها، وعلى سبيل المثال كانت نيليا جيتانيفيا وليدا پتروفا (زوجة سكرتيرين) لاعبتين ممتازتين. وكانت المباريات تتسم بحرارة كبيرة، بل أكاد أقول إن الحماس فاق بكثير ما تتسم به اللعبة نفسها. كان ذلك مفيداً ومثيراً بقصد إزالة التوتر والتخلّص من إرهاق العمل. وأخذت أيضاً أمارس رياضات أخرى، فضلاً عن تمارين الصباح بالطبع.

ومنذ بداية عملي سكرتيراً عكفت على إجراء لقاءات دورية مع مختلف فئات العاملين. ويتراوح هؤلاء بين مدراء المدارس والمعلمين وبين العاملين في مجال الصحة العامة وعددهم يربو على الألف، كما التقيت أكثر من ألف وخمسمائة طالب ومهندسين وحرفيين وأمناء

حزبيين ومدراء مؤسسات ومصانع وغيرهم كثير. ولا أنسى هنا أن أشير إلى لقاءاتي بالثقفين المبدعين وعلماء الاجتماع والعلماء. وكان المتبع في هذه المرحلة عدم الإجابة على الأسئلة المشبوهة، فإذا ما عقد لقاء أو مؤتمر يكون السبب تكريم كاتب عظيم أو مارشال أو بطل للمرة الرابعة وغير ذلك من الحجج والذرائع.

وفي هذه الحقبة من عهد بريجنيف لم يكن هذا الأخير يدير البلاد، ولنقل إنه كان يتخلى عن ذلك شيئاً فشيئاً. وقد سار على طريقه أمناء اللجنة المركزية الآخرون، فكنا نقوم عملياً بإدارة شؤوننا باستقلال تام. كنا نتلقى بعض التوجيهات والقرارات من اللجنة المركزية وذلك بما يشبه رفع العتب ولكتابة التقارير. فعندما كنا نזור موسكو مثلاً لتحريك قضية ما، لم نكن نملك الحق في الإقليم بالتصدي لها بالحل - كبناء بعض المشروعات أو بتوفير المواد والمنتجات الغذائية أو الاعتمادات المالية - نعرّج بالطبع على اللجنة المركزية لنزور المسؤول المختص الذي يدير هذا القطاع أو ذاك، وهذا كل شيء. ومن الأشخاص الذين كنت ألتقي بهم نائب رئيس قطاع اسمه پاقل فاسيلييفيتش سيمونوف، وهو بالمناسبة إنسان رائع ينهج نهج عدم التدخل في شؤون منظمنا الحزبية مع أنه كان يعرف بالتفصيل أوضاعنا وكيف تسير الأمور وما هي مشاكلنا. فقد كان يتصل بنا هاتفياً أو يقوم بزيارات خاطفة. . بكلمة كان الجو التعاوني يسود علاقتنا.

في بداية عملي سكرتيراً أول علمني درساً عظيماً لا يمكن أن أنساه. أقيم في المدينة معرض للأفيشات السياسية فذهبت لافتتاحه، وعندما دخلنا التُقطت لنا صورة صدرت فيها بعد في صحيفة الإقليم الحزبية «أورالسكي رابوتشي» (عامل الأورال). في اليوم التالي رن جرس

التلفون في المكتب، فالتقطت السماعة فإذا به صوت سيمونوف الذي بدأ بتربيتي، وكان يتقن هذا الفن: لم يرفع من صوته ولكنه أغرقني بالهزء والسخرية. قال: «كم تبدو جيداً في الصورة، بل جيداً جداً، أعتقد أن لدينا شخصاً ذا وجه فوتوجيني تماماً، والآن سيعلم كل من في الإقليم أنك كذلك». . . . واستمر يقرعني على هذا المنوال. كانت له قدرة على التغلغل عميقاً تحت جلدك، مع أنه لم يكن يستخدم كلمات قاسية. وبشكل عام فقد لُقني درساً جيداً لن أنساه مدى الحياة، مما دفعني بعد ذلك إلى التأكد من عدم نشر صوري في جريدة الحزب الإقليمي.

لكن أشخاصاً كسيمونوف يعتبرون استثناءات في اللجنة المركزية. فقد كنت أزور مقرها عادة تبعاً لما كان معهوداً، وقد عُرِجت على رازوموف مرة أو مرتين من قبيل إزالة أي فكرة سيئة قد تنشأ لديه. وكانت زيارتي إلى أمناء اللجنة المركزية للمجرد التعبير عن إحساس بالتقدير وإظهار الاحترام، أما المسائل الحقيقية فيجب حلها في مجلس الوزراء، الذي ربطتني بأعضائه علاقات جيدة، بما فيها العلاقة مع رئيسه تيخونوف، حيث اتسمت بطابع عملائي عادي. أما ريجكوف فقد عرفته منذ كان في سفيردلوفسك عندما عمل مديراً عاماً لشركة «أورال ماش». وقد انتقل فيما بعد إلى الوزارة ومن ثم إلى تخطيط الدولة ليستقر بعده في اللجنة المركزية. وعندما عُيِّن نيقولايف إيفانوفيتش (ريجكوف) رئيساً لمجلس الوزراء حاولت ألا أستفيد من هذه العلاقة.

وهاكم مثلاً آخر من حياة قيادة البلاد في تلك الحقبة. كان لا بد من إثارة مسألة بناء مترو الأنفاق في سفيردلوفسك التي بلغ عدد سكانها مليوناً ومائتي ألف نسمة، ولتحقيق ذلك احتاج الأمر إلى

استصدار قرار من المكتب السياسي، ولذا فقد قرّرت التوجّه إلى بريجنيف فاتصلت به. قال لي: «إذن، تعال». ولأنني كنت أعرف أسلوب عمله في تلك الفترة فقد حضرت رسالة صغيرة بحيث لم يبق إلا أن يضع عليها توصيته. ودخلت عليه فلم يستغرق الحديث أكثر من خمس أو سبع دقائق. . كان يوم الخميس، وهو عادة آخر يوم عمل له في الأسبوع، إذ كان يغادر الجمعة إلى منزله في زافيدوفو فيمضي الجمعة والسبت والأحد. وعادةً ما كان يعجل في حل بعض القضايا قبل المغادرة. ولكنه لم يستطع أن يصوغ التوصية بنفسه فقال: «هيا قل لي ماذا علي أن أكتب». وأخذت بالطبع أملي عليه: «إعلام المكتب السياسي بوجوب تحضير مشروع قرار بصدد بناء مترو في سفيردلوفسك». وكتب ما أمليته ثم وقّع وأعاد لي الورقة. ولما كنت أعرف أنه يمكن لهذه الورقة أن تضيع وسط الأوراق والوثائق قلت له: «لا، أرجو أن تستدعي مساعدك»، وقد استدعاه فعلاً، وتابعت قائلاً: «وأرجو أن تصدر تعليماتك إليه بأن يسجل الوثيقة أولاً، وأن ينفذ توجيهاتك رسمياً، ثانياً بأن يوزعها على أعضاء المكتب السياسي». وبصمّ نفذ ما قلته وأخذ مساعده الأوراق، ثم توادعنا. وسرعان ما حصلت سفيردلوفسك على قرار من المكتب السياسي يقضي بإنشاء المترو.

إنه مثال نموذجي. فعلى ما أعتقد لم يكن بريجنيف يعي بشكل عام في الآونة الأخيرة ماذا كان يفعل أو ماذا يوقّع أو بماذا ينطق. أما السلطة فقد كانت كلها بين يدي المتحلقين حوله. والوثيقة الخاصة بمترو سفيردلوفسك التي وقّعها، وقّعها دون أي تفكير في ما أمليته عليه. ولكنها كانت قضية جيدة، ومع ذلك فكم من العابرين الأشقياء معدومي الشرف، بل كم من المجرمين في نهاية المطاف،

استخدم برجينيف لتحقيق المآرب وتميرير القضايا القذرة؟ كم من التوصيات خطها بهدوء ودون تمنع رفعت من شأن أناس وسببت الشقاء والألم لأناس آخرين. . . إنه لمن الفظاعة تصوّر ذلك! . . .

أما في ما يتعلق بي فلم يجرؤ أحد من الأصدقاء أو الأقارب أو الأهل أو المعارف الأبعدين أن يحاول حتى التوسّط لدي لتحقيق غاية شخصية خاصة. ومن المعلوم جيداً الآن أي حدود في سنوات الركود بلغتها الحرايات والفساد والاهتراء الذي أصاب نظام السلطة برمته. لقد كان رأي السكرتير الأول قانوناً يستحيل أن يوجد شخص ما يجرؤ على عدم تنفيذ طلب أو توجيه صادر عنه. وقد استُخدمت هذه السلطة من قبل العاملين الحزبيين النفعيين والمحيطين بهم دون أي رقابة أو إشراف. ولأنهم كانوا يعرفون طبعي فإنهم لم يكونوا يجرؤون على طلب أي شيء من هذا القبيل. بل إنني أكاد لا أستطيع التنبؤ بما ستكون عليه ردة فعلي لو أن أحداً تجرأ وطلب مني تحقيق غاية خاصة.

أجل، كانت سلطة السكرتير الأول عملياً غير محدودة، والإحساس بالسلطة عادة يدير الرؤوس ويذهب العقول. ولكن عندما تستعمل هذه السلطة فقط لتحقيق هدف واحد: لجعل الناس يعيشون حياة أفضل، يتبين أنها غير كافية لجعل الإقليم يحصل على غذائه بصورة طبيعية وتكون لمواطنيه مساكن. . . فهي، أي السلطة، تكفي لترتيب وضع جيد لأحد ما في عمله، أو لتدبير شقة رائعة لآخر، أو لتوزيع الخيرات على الزبانية والأنصار. هذا ما كان يحصل، بل وهو ما يحصل الآن أيضاً. فمن يعيش في هذه الشيوعية بضع عشرات من الأشخاص، أما الشعب فهو آخر الهم.

وإذن كان سكرتير الإقليم في تلك الفترة طبعاً يقرب من أن يكون

إلهاً. هو مالك الإقليم وصاحبه . . . أما آراؤه في أي موضوع أو قضية فكانت قرارات نهائية غير قابلة للمراجعة. وأنا قد استعملت هذه السلطة ولكن من أجل الناس ولصالحهم، ولم أفد منها لنفسي قط. وفرضت أن تدار عجلة الآلية الاقتصادية بسرعة، وكانوا يخضعون لي ويطيعون، وبسبب ذلك بدا لي أن مؤسسات الإقليم عملت بصورة أفضل.

أما ما لم أتدخل فيه مطلقاً فهو القضايا القضائية، أي ممارسات الادعاء والقضاء. ومع ذلك، فقد حدث مرة أنني أنقذت مدير مصنع خياطة اتهم بتبذير المواد في مؤسسته، فانبهرت أدافع عنه. ذلك أنني أشفقت على هذا المدير الشاب، خصوصاً أنني كنت على معرفة بطبيعة عمله وإدارته التي غرق فيها حتى أذنيه. كان شاباً جيداً بذل جهداً فائقاً في العمل وكان من المؤسف أن يضيع. لم يكن في نشاطه شيء مقصود بل إن من حوله أخطأ، فيما تحمّل هو مسؤولية بعض الأخطاء، مما لا يمكن اعتباره جريمة يعاقب عليها القانون. يمكن مثلاً معاقبته إدارياً، ولذا فقد طلبت أن يُنظر باهتمام في قضيته، وهكذا احتفظ المدير بحريته.

وانعقد المؤتمر السادس والعشرون للحزب. وحضرت نفسي بصورة جادة بالطبع لأوجه الضربات إلى هذا المستنقع الراكد الثقيل الذي غطى البلاد. وعلى الرغم من أن خطابي جاء عنيفاً فإنه كان كذلك على خلفية التمجيد والإطراء الموجهين إلى بريجنيف، ولكن كما قلت في المؤتمر السابع والعشرين، كانت تنقصني - على ما يبدو - الخبرة، وبشكل رئيسي الشجاعة السياسية، حتى يتسنى لي خوض معركة حاسمة ضد نظامنا الحزبي - البيروقراطي العفن. وإضافة إلى ذلك لم أكن أعرف أعضاء اللجنة المركزية بدرجة كافية، الأمر الذي

كان يمكن أن يؤثر نوعاً ما، مع علمي التام بأن المركز لا يعمل .

ولا بد من القول إننا تقبلنا مجيء غورباتشوف أميناً عاماً للجنة المركزية بحساس كبير، وداعبنا الأمل بأن الوضع سيتحسن في المناطق الريفية جدياً، ولكن ذلك لم يحدث . وبدأ أنه لم يلتقط طرف الخيط الرئيسي في الموضوع، وأما محاولات الإصلاح المتسرع للوضع في الزراعة لإحداث تطور ما فقد باءت بالفشل .

تعرفت إلى غورباتشوف عندما عمل كل منا سكرتيراً أول، إذ كان يقود منظمة إقليم ستافروبول الحزبية . في البدء تم تعارفنا بالهاتف حيث تبادلنا الاتصال طالبين مساعدة متبادلة لحل بعض القضايا ولتأمين بعض المواد . فمن الأورال كنا نرسل المعادن الخام وأخشاب الغابات ومن ستافروبول استوردنا المواد الغذائية . ولم يكن غورباتشوف يتجاوز عادة الاعتمادات، إلا أنه أسدى دائماً المساعدة وفق قاعدة التبادل .

وعندما انتخب أميناً عاماً للجنة المركزية دنوت منه وصافحته مهتئاً من كل قلبي، بعدها تتالت زياراتي له لبحث الأوضاع الزراعية في إقليم سفيردلوفسك، وكانت - أي هذه الأوضاع - تتميز بعدم الثبات، مما شكّل قضية شائكة .

وكننت عندما أدخل مكتبه نتعانق بحرارة . كانت علاقانا ممتازة . واعتقد أنه كان مختلفاً، بل أكثر انفتاحاً لدى تسلمه مهامه في اللجنة المركزية، كان المرء يشعر بحرارة إخلاصه وصراحته . وكان يحذوه أمل كبير في تصحيح المسيرة في القطاع الزراعي، فعمل جاهداً وأبقى على علاقة وطيدة بالجمهوريات والأقاليم والمناطق .

وبالصدفة، وقع في يوم من الأيام ما شكّل بداية برودة العلاقة مع

غورباتشوف .

فقد وصلت إلى سفيردلوفسك لجنة دورية من قبل اللجنة المركزية ، وكانت يومها كثيرة العدد ، للقيام بدراسة وضع الريف الزراعي . ومن المفهوم أنه إلى جانب الإيجابيات الكثيرة وجدوا غير قليل من النواقص والثغرات . ولكن التقرير تضمّن تشويهاً بيّنة ، فأقرت أمانة اللجنة المركزية قراراً مقتضباً دون استدعائي إلى موسكو ، وما حدث هو أننا أبلغنا به فحسب . وبعد مضي بعض الوقت قام نائب رئيس القسم الزراعي في اللجنة المركزية كاپوستيان ، فجمعنا القيادة وألقى فيها كلمة ارتكزت إلى مضمون قرار أمانة اللجنة المركزية . وألقيت بدوري كلمة في الاجتماع . وبصورة رئيسية أبديت موافقة على الاستنتاجات التي خلصت إليها اللجنة ، غير أنني استدركت قائلاً إنني لست موافقاً على القرار في بعض جوانبه ، ثم عدّدتها . وكان المجتمعون يدركون ماذا يعني عدم الموافقة على قرار صادر عن اللجنة المركزية ، فازداد الجوتوتراً . وتكلم كاپوستيان مرة ثانية فتبعته بكلمة حادة بعض الشيء . ولم يمض وقت قصير حتى استدعيت إلى موسكو .

لقد سبّبت هذه اللجنة كثيراً من المعاناة . كنت أفكر في الليل محدثاً نفسي : هل أنا محق أم مخطيء ، معيداً بسط وجهة نظري . في ذلك الحين حضر كاپوستيان مع رازوموف - الذي كان يشغل منصب نائب رئيس قسم التنظيم في اللجنة المركزية - كتاباً إلى اللجنة المركزية قالاً فيه إن الرفيق يلتسين لم يقوم الثغرات الموجودة في الإقليم على نحو موضوعي ، وبالتالي فإنه لم يوافق على بعض النتائج التي خرجت بها اللجنة ، وإنه تناول بالنقد بعض موضوعات القرار إثر صدوره عن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيياتي بحيث يكون

قد خالف التنظيم الحزبي بتصرفه هذا . . . وهلمجرا من التقلّلات .

وبعد وصولي إلى موسكو علمت بأمر هذا الكتاب، فلما ذهبت إلى اللجنة المركزية لم أتعجب حين قيل لي إن كاييتونوف بانتظارك. قال: «بوريس نيقولايفيتش، وردت رسالة إلى اللجنة المركزية من قسمين، . . . وقد طُلب إلي . . . حسناً لم يطلب مني التكلم معك، بل يجب - على العموم - أن تعرف بشأنها»، وناولني الرسالة. قرأتها وكررت مرة جديدة ما سبق وقلته في كلمتي أمام اجتماع قيادة منظمة الإقليم، وباختصار قلت إنني لا أوافق على جملة من الاستنتاجات الواردة في قرار اللجنة المركزية. غير أن كاييتونوف لم يرغب في التوسّع بتناول الموضوع، فأنتهى اللقاء وافترقنا.

وفي هذه الزيارة عرّجت على غورباتشوف. استقبلني وكأن شيئاً لم يحدث، وتجادبنا أطراف الحديث في مواضيع شتى، وعندما هممت بالخروج قال لي: «هل قرأت الرسالة؟». جاءت لهجته تنبئ عن شعور داخلي لديه بعدم التأييد والموافقة على ممارساتي. قلت: «أجل، قرأتها». فرد غورباتشوف بجفاء وحزم: «يجب أن تستخلص نتائج ما!»، فأجبت: «أعتقد أنه يجب استخلاص النتائج من قرار المركزية وهذا ما يُفعل، أما من تلك الوقائع غير الموضوعية التي أتت الرسالة على ذكرها فلا نتائج يمكنني استخلاصها». قال: «ومع ذلك فلا بأس من أن تفكر». وكان غورباتشوف يستخدم مع الجميع صيغة المخاطب المفرد(*)، بل مع الجميع بالمطلق. إذ أنني لم ألتق شخصاً

(*) في اللغة الروسية تستخدم صيغة المخاطب بالجمع للتدليل على احترام المتكلم للمخاطب، أما صيغة المفرد فيتداولها الأصدقاء في ما بينهم تدليلاً على التبسُّط، وقد يُفهم منها التحقير وعدم الاحترام في حال وجود التوتر أو سوء النية في العلاقة - (المترجم).

واحداً تحدث معه غورباتشوف بصيغة المخاطب الجمع، وكذلك كانت علاقته بمن هم أكبر منه سناً في المكتب السياسي من أمثال غروميكو وشريبيتسكي وفوروتنيكوف. أهو نقصان في الثقافة أم مجرد عادة؟ يصعب القول. ولكنني كنت أشعر على الفور بعدم ارتياح داخلي حالما كنت أسمعه يخاطبني بصيغة المفرد، وكنت أقاوم في داخلي أيضاً طريقته في التوجّه غير أنني لم أكلمه في هذا الصدد.

وانتهت واقعة الرسالة واللجنة عند هذا الحد.

في الوقت الراهن، أي في عهد الانفتاح والمكاشفة (الغلاسنوست)، تروى أشياء كثيرة عن منزل عائلة إيباتيف الذي أعدم القيصر مع عائلته في قبوه. وهذا أمر طبيعي أن يعود المرء فينبش في تاريخه عن مكامن التزوير والتلفيق والكذب والتعتيم. فالبلاد تريد معرفة الحقيقة عن ماضيها، حتى لو كانت هذه الحقيقة رهبة ومرة. ولقد كانت مأساة عائلة رومانوف القيصرية، بالمناسبة، ذلك الجزء الذي لم يكن مسموحاً التداول به لدى تناول تاريخنا بالبحث.

ولقد هدم منزل آل إيباتيف في تلك السنوات التي شغلت خلالها منصب سكرتير أول منظمة الإقليم. وسأروي كيف حدث ذلك.

غالباً ما كان الناس يزورون البيت المذكور، مع أنه لم يتميز كثيراً من حيث قدمه بالمقارنة مع البيوت الأخرى القائمة حوله، وقد وُضعت فيه مناضد صغيرة، ولكن الأحداث المأساوية الفظيعة التي جرت فيه عام ١٩١٨ جعلت الناس يقتربون منه ويسترقون النظر خلال النوافذ، ثم يقفون أمامه بكل بساطة صامتة.

وكما هو معلوم فقد أعدمت عائلة رومانوف رمياً بالرصاص بأمر

صادر عن مجلس سوفيات الأورال. ولقد قصدت أرشيف الإقليم وقرأت كل وثائق تلك الفترة. وحتى وقت غير بعيد لم يكن أحد يعلم أي حقائق جديدة عملياً عن هذه الجريمة. فما هو متوفر لا يزيد عن كونه رواية ملفقة نشرت في «موجز تاريخ» البلاد، ولذا يمكن للقارئ أن يتصور بأي عطش كنت أطلع تلك الصفحات العائدة لسنة ١٩١٨. وقد نشرت في صحافتنا - في الآونة الأخيرة - بعض هذه الوثائق التي تناولت أيام عائلة رومانوف الأخيرة، أما قبل ذلك فقد كنت واحداً من بين القليلين الذي اطلعوا على سر الإعدام الرهيب. لقد كانت قراءة هذه الصفحات صعبة وقاسية.

دنا موعد إحدى المناسبات المتعلقة بحياة آخر قيصر روسي. وكما كان الأمر دائماً، ظهرت أبحاث جديدة في صحافة الغرب كان يُدّاع بعض تفاصيلها عبر أثر الإذاعات الموجهة باللغة الروسية. وكان ذلك يدفع بالناس إلى زيارة منزل إيباتيف آتين من مدن أخرى. وكنت لا أعلق أهمية كبيرة على الموضوع بل أنقبل الوضع بهدوء كامل، لأنني كنت أعني أن هذا الاهتمام لم يكن نتيجة مشاعر حنين إلى القيصرية أو رغبة في بعث قيصر جديد. فما كان في أساس الاهتمام ليس أكثر من فضولية وإشفاق واحترام ذكرى، أي عواطف وأحاسيس إنسانية طبيعية.

ولكن معلومات وردت إلى موسكو عبر بعض الأقنية والمسالك تنبئ عن عدد كبير من الزوّار يحجّون إلى منزل إيباتيف. ولست أدري أي آليات بدأت تعمل حتى أصاب إيديولوجينا الرعب، فتعقد الاجتماعات واللقاءات. وما لبثت أن تسلمت بريداً سرياً من موسكو.

فضضت الرزمة وبدأت أقرأ. لم أصدق ما تقرأه عيناى. ثمة

تعميم داخلي صادر عن المكتب السياسي في صدد هدم منزل إيباتيف. ولأن التعميم سري فقد عني ذلك أن على منظمة الحزب الإقليمية تنفيذ المهمة وتحمل مسؤولية هذا القرار السخيف.

وهكذا، ففي أول اجتماع لمكتب المنظمة اصطدمت بردة فعل الفريق الآتي من موسكو. إذ كان من المستحيل عدم تنفيذ قرار المكتب السياسي السري. وبعد بضعة أيام تقدّمت الجراتات ليلاً من منزل إيباتيف، ولم يطلع الصباح حتى كان قد أزيل بالكامل من على وجه الأرض، وتمّ تعبيده بعد حين.

وهاكم مشهداً حزيناً آخر من حقبة الركود. كنت أدرك تماماً أن العار سيلحق بنا جميعاً إن عاجلاً أم آجلاً من جراء هذا العمل البربري. سيكون ذلك مخجلاً ولكن ليس في استطاعة أحد تغيير شيء.

وبالمناسبة أود الإشارة إلى أنه سيكون مثيراً أن تتخذ اللجنة المركزية قراراً بنشر جميع تعاميم المكتب السياسي وقراراته، العلنية والسرية.

وفي اعتقادي أنه حان الوقت لاتخاذ قرار كهذا، إذاً لانكشف الكثير من الأمور ولأمكن تفسير ما لم يكن له تفسير.

لقد أجرينا في الإقليم نشاطاً دعائياً واسعاً. وكنت أعمد إلى تحليل الأوضاع القائمة بصراحة، وقد أسعفني أن أخبر مداخلاتي لم تبلغ القيادة، ذلك أن المسؤول المباشر سيمونوف كان يضمها إلى الأرشيف بهدوء دون أن يلاحظ أحد. ذلك أنه لم يعد هناك في الأورال مبعثر واحد من المبحرين لبريجنيف، المنتشرين في أنحاء البلاد. بل كانت تسود موجات التنكيت عند بعضهم فيما ساد عند بعضهم الآخر عدم

فهم الوضع . أما الفئة الثالثة فقد كان يساورها الشعور بالقرف، فقد رأت إلى أين تسير البلاد فأثرت أن تجابه كل ذلك بالعمل المخلص الشريف في المواقع الملموسة . ففي إحدى جلسات المصارحة التي جمعتني بفيدل كاسترو - وكانت تجمعنا صداقة تتميز بثقة متبادلة - قال لي: «إنه لمن العبث أن تغضب وتوتر نفسك، الوضع بكل بساطة لم ينضج بعد للقيام بالعمل المطلوب . . لم ينضج . . ثمة مركز لديكم قوي جداً، إنه كالدرع يمنعكم من القيام بأي شيء» .

ولم تكن العلاقات والاتصالات بأعضاء السوفييات العسكري التابع لقيادة الإقليم العسكرية بالعلاقات والاتصالات السيئة: من هؤلاء سيلتشنكو وتياغونوف وغناشكوف وغيرهم . وكثيراً ما كنت أقوم بجولات استطلاعية في أوساط القطاعات العسكرية في الأورال على مختلف المستويات والأسلحة . وكان يرافقني أعضاء مكتب منظمة الإقليم حيث كانوا يقودون الدبابات ويتلقون التدريب على الطائرات أيضاً . كما أسهمنا مع العسكريين في ترميم ثكناتهم ومساكن عائلاتهم، وهو أمر اعتبرته ضرورياً، نظراً إلى الظروف السيئة التي كانت عليها . فوزارة الدفاع، بشكل عام، تعتبر الجنود تابعين لا صوت لهم . وعندما تساءلت في اجتماع إحدى الفرق: لماذا لا تمارس الانتقادات من تحت؟ ولماذا الجنود صامتون؟ أيعقل أنهم لا يملكون شيئاً يودون الكلام عليه؟ أثارت تساؤلاتي الارتباك والذهول وبلغت الأنباء القيادات العليا، إلا أنهم ابتلعوها . واستمرت أنهج الطريقة نفسها . وبالتدريج، بدأت تتكوّن حركة واقعية في أوساط المنظمات الحزبية والشبابية، إذ راح الكومسوموليون يمهّدون نوعاً ما لإصلاح الأوضاع، ثم ما لبثت العدو أن انتقلت إلى الاجتماعات في المنظمات الحزبية في نهاية الأمر، كما بدأت الانتقادات في اللقاءات مع

الجنود تتراكم ضد القيادات. وكنت أعتقد أن هذه المسألة ملحة وضرورية.

وكانت تجمعني أيضاً علاقات جيدة بلجنة أمن الدولة «كي. جي. بي - KGB» الإقليمية، حيث كان مديرها يو. إي. كورنيلوف يشارك في اجتماعات منظمنا بوصفه عضواً مرشحاً في المكتب السياسي للحزب. وكثيراً ما كنت أقوم بزيارته في مقره وأطلب منه إطلاعي على عمل جهازه فدرست بذلك نظام النشاط المعتمد في لجنة أمن الدولة وكيف تقوم بوظائفها، كما تعرفت على كل قسم موجود فيها. وكنت أعرف أن هناك مسائل لم يكن بوسعه إطلاعي عليها، ومع ذلك فقد درست بنية اللجنة ونظامها جيداً وبصورة كافية. ولهذا السبب تحديداً، لم تأت مداخلتي التي قدمتها في دورة مجلس السوفييات الأعلى صيف ١٩٨٩ - وأكد ما جاء فيها كريوتشكوف رئيس الـ «كي. جي. بي» - مصادفة، ذلك أنني كنت على معرفة بهذا الجهاز المغلق، المجهول من أكثر الناس.

في إحدى المرات وقعت حادثة مأساوية متعلقة بانفجار لمرض الحمى السيرية. وللتحري عن أسباب الوباء وصل إلى سفيردلوفسك نائب رئيس الـ «كي. جي. بي» ف. پ. بيروجكوف. كان ذلك أثناء سنوات عملي الأولى. كنا ثلاثة في مكتبي: أنا وبيروجكوف وكورنيلوف. كانت جلسة هادئة أشار فيها كورنيلوف إلى أن إدارة الـ «كي. جي. بي.» تجمعها علاقة صداقة وتعاون مع قيادة المنظمة الحزبية الإقليمية. وفجأة صرخ بيروجكوف: «أيها الجنرال كورنيلوف انفض!» فما كان منه إلا أن قفز واقفاً من وقع المفاجأة، أما أنا فقد أصبت بالذهول. وأردف بيروجكوف بكلمات كان يصر على مخرج حروفها من بين أسنانه: «إنك تقطع رقبتك حتى الوريد أيها

الجنرال، ففي كل نشاطك العملي يجب ألا تعمل بصداقة مع المنظمات الحزبية، بل يجب أن تعمل تحت قيادتها فحسب». هذا ما حدث تماماً... مشهد تربوي جرى أمامي.

ويجب القول إنه لم يتم القبض خلال سنوات عملي العشر على أي جاسوس أو عميل مطلقاً برغم كثرة المحاولات، وكان هذا مما يأسف له كورنيلوف ويجعله يعتقد أنه يعمل بصورة سيئة: «في أقليم كهذا ألا يقع ولو جاسوس واحد في قبضتنا؟ ومع ذلك فلا جواسيس!».

كثيراً ما كانت تتولد أوضاع حرجة. فعلى سبيل المثال أذكر حادثة الانفجار التي وقعت في محطة بيلويارسك النووية ليلة ٣١ كانون أول - (ديسمبر) - ١ كانون ثاني (يناير) ١٩٧٩، عندما سجّلت الحرارة هبوطاً شديداً بلغ حدود ٥٧ درجة مئوية تحت الصفر. ووقعت في نواحي مختلفة من الإقليم عدة حوادث ضخمة بصورة مفاجئة. ففي عنبر الآلات التابع لمحطة بيلويارسك النووية لم تتحمل المنشآت المعدنية القدرة الإجهادية، مما سبّب اندلاع شرارت بلغت خزانات الزيت فاشتعلت فيها النار وكان حريق كبير. بذل الاطفائيون جهوداً استثنائية تجلت فيها البطولة والشجاعة. كانوا يسحبون كل قدرتهم البشرية من سفيردلوؤسك ويقذفون بعناصرهم إلى موقع الكارثة حيث كان من المستحيل العمل دون ارتداء الأقنعة الواقية من الغازات الكثيفة الناجمة عن احتراق الهلاستيك. كانت الجهود تنصب على منع وصول النيران إلى صالة المفاعل النووي. وقد جهزت مئات الباصات لإجلاء سكان القرية، وانتصر الاطفائيون رغم كل شيء على النيران بالتعاون مع أخصائيين آخرين وربحوا المعركة وأنقذوا المحطة والناس قبل كل شيء... كان يمكن أن ينجم عواقب وخيمة كارثية، فالإقليم مكتظ بالمؤسسات العسكرية. وفي

خلال الحرب استقرت في هذه المنطقة مصانع أجليت من أمكنتها بعيداً عن الجبهة، وكان عددها يربو على ٤٣٧ مصنعاً ضخماً، فضلاً عن بعض المصانع التي كانت موجودة في أراضٍ سقطت تحت الاحتلال الفاشي. وليس من المبالغة في شيء القول إنه عندما تم نقل هذه المصانع إلى الأورال كانت تركب الآلات على قاعدة من الإسمنت لا يغطيها سقف ولا تحيط بها جدران ويبدأ الإنتاج على الفور لدعم الجبهة.

أما الناس فقد استقروا في الخنادق والسراديب والتخشييات المؤهّمة. ولعل إقليمنا هو الأول بين الأقاليم من حيث عدد التخشييات المؤقتة التي بنيت أيامذاك. ولأنني عشت في إحدى هذه التخشييات - وقد ضمت الواحدة منها من عشر إلى عشرين عائلة - مدة عشر سنوات فإن مجرد رؤيتها أو ذكرياتها يثير فيّ شجوناً ومشاعر حزينة. فمن غير الحائز أن يعيش الإنسان في القرن العشرين على هذه الصورة أو في ظل ظروف مماثلة. وعندما تسلمت مهام القيادة في الإقليم كانت ثمة عدة آلاف من العائلات في سفيردلوفسك ما تزال تسكن التخشييات. وفي وقت لاحق اتخذ قرار يقضي بتصفية كل التخشييات في أنحاء البلاد في غضون عشر سنوات. وكان واضحاً بالنسبة إلي أن أحداً لا يمكن أن يتحمل فترة زمنية طويلة كهذه، فعلياً أن تنتهي من هذه المسألة في فترة أقصر ونضع لها نهاية مرة واحدة وإلى الأبد.

وطلبت من المسؤولين في المدينة أن يجرؤوا حسابات لمعرفة حجم حركة البناء المطلوبة، فتبين أنه ينبغي بناء حوالي مليوني متر مربع، عندها فقط يمكن نقل سكان التخشييات إلى شقق. مليوناً متر مربع.. هذا مستحيل.. إن الإقليم كله لا يبنى هذا القدر، ثم إن

هناك العُجْز والعائلات متعددة الأطفال وقدماء المحاربين والمتنظرين أدوارهم في الطابور.

لم يصادفني مرة في حياتي القيادية صعوبة بمثل صعوبة اتخاذ هذا القرار القاسي، فالأمر لا يبدو سيئاً، ومع ذلك فهو ليس جيداً! ما هو الأهم؟ هل نسحب الناس من التخشييات ونجمّد طابور المتنظرين شققهم لمدة سنة، أم نعذب أهل التخشييات عشر سنوات ونضطرهم للعيش في ظروف لا إنسانية، لنعطي المتنظرين شققهم.

وعرضت الأمر في المكتب واتخذنا القرار الصعب: تجميد طابور الانتظار بحيث لن يحصل أحد على شقة خلال سنة باستثناء سكان التخشييات. ويجب أن يفهم الناس الآن ضرورة مساعدة من يعيشون في ظروف أسوأ. وبالفعل، فقد لاقى القرار تفهماً من قبل الشعب، على الرغم من أن ترويج المسألة تتطلب تفسيراً وشرحاً دائمين. وطار صواب مدراء المؤسسات. كان ذلك بالنسبة إليهم ضربة حاسمة. فقد استفدنا من قدرتهم وقوتهم البنائية، أما هم فلم يحصلوا بالمقابل على شيء. ذلك أن الكلام على الأخلاقيات والمثل لم يكن يحرك فيهم عاطفة. الرئيسي في الأمر أنني تفهمت وضعهم. كنت أنا نفسي مديراً اقتصادياً وأعلم تماماً كم ينتظر الناس البناء الذي يشاد، ثم فجأة يعطى لآخرين غرباء. الأمر قاس.

وكي أنقذ الوضع توجّهت إلى موسكو واليأس ينتابني، فلعلّ وعسى. التقيت كيريلينكو وشرحت له الوضع قائلاً: «إذا وردت شكاوى فستكون اللعنات موجّهة إلي، اصبروا على سنة وضعوها في الجارور. لا بد من القضاء على التخشييات»، فوافقتي. ثم توجّهت إلى كوسينغين أيضاً وشرحت الوضع وقلت إنني لا أطلب شيئاً، لا مواد بناء إضافية ولا قوة عاملة، بل إن ما أحتاج إليه لا يتجاوز

الدعم المعنوي؛ ونلت موافقة ألكسي نيقولايفيتش (كوسينغين) مع وعد بدعم من مجلس الوزراء.

هذا ما حصل بالتحديد. راح المدراء يكتبون الشكاوى والرسائل وبيعثون بها إلى موسكو، في الوقت الذي كنا نزيل فيه التخشييات الواحدة تلو الأخرى، حتى لم يعد أحد من أهلها إلا ويسكن شقة حديثة بعد سنة من اتخاذ القرار.

لم أشعر أبداً في يوم من الأيام برغبة في تعداد نجاحاتي وإنجازاتي التي حققتها أثناء اضطلاعي بدور السكرتير الأول. ولم أفعل ذلك حتى بعد مداخلة ليغاتشيف ضدي في الكونغرس التاسع عشر عندما أكد قائلاً: «بوريس، لست على حق» وشدّد على أنني نشرت الفوضى في العمل بسفيرلوفسك. وأعتقد أن الجميع يدركون أن هذا كذب، فلم أرد الانسياق في مناقشة لم أعتبرها مجدية.

ومع ذلك فقد عمّ الرضا حيث بات الوضع التمويني أفضل، إضافة إلى شق طريق سفيرلوفسك - سيروف. وبالمناسبة، أقف الآن عاجزاً عن فهم كيفية نجاحنا في تنفيذ هذا المشروع الضخم من حيث الجهود التي بذلت والأهمية الكبيرة بالنسبة إلى إقليم سفيرلوفسك.

يتميز الإقليم بأن مساحته تشبه قلباً مقلوباً، إذ يمتد من الشمال إلى الجنوب آلاف الكيلومترات فيما لا تتجاوز المسافة من شرقه إلى غربه أكثر من خمسمائة كيلومتر. ساد وضع تاريخي كانت مجموعة مدن الشمال الكبيرة بسببه معزولة عن المركز، أي سفيرلوفسك وتاغيل السفلى لعدم وجود طريق تصلها بهما. وشالنا غني بالمواد الخام والأحجار والمعادن الثمينة وصناعة التعدين واستخراج فحم كاربينسك وتورا.

وتستغرق الرحلة، إذا استخدمت السكك الحديدية، من كارينسك وسيروف وسيفيرو وأورالسك وكراسنوتورينسك إلى سفيردلوفسك أياً ما وليالي. وكانت فكرة وصل هذه المدن بمركز الإقليم بواسطة طريق معبّدة قد نضجت منذ زمن، ولكن المهمة اتسمت بصعوبة فائقة. فالطريق يجب أن يمر عبر مستنقعات ووهدان وعدة أنهر، أما المسافة فتزيد عن ٣٥٠ كلم. ونظراً لطبيعة التضاريس فقد بلغت كلفة الكيلومتر الواحد مليون روبل. وهكذا، تعيّن توفير مبلغ ٣٥٠ مليون روبل، ولكن من أين؟ ومع مرور الوقت كنا نشعر ضرورة هذه الطريق أكثر فأكثر.

وتوجّهنا إلى هيئات التخطيط المركزية لرصد الأموال، ولكن سرعان ما وردنا الجواب بالرفض.

جمعت أمناء المنظمات الحزبية على مختلف مستويات المنظمة الإقليمية (مناطق، مقاطعات...) وقادة السوفيئات ورؤساء اللجان التنفيذية للتشاور في ما ينبغي عمله. هل باستطاعتنا جلب المساعدات! وتداولنا طويلاً في المسألة، وفي النهاية قررنا تنفيذ المشروع باللجوء إلى قوانا الذاتية فحسب. وقرّرنا تقسيم الطريق إلى مراحل بحيث تصل كل مرحلة إلى مدينة من المدن المزمع ربطها. وفرضنا على كل مدينة تولّي شق حصتها من الطريق وتعبيدها مستخدمة مؤسساتها وقواها البشرية والتقنية والتخصّصية، فتشكل فرق العمل من عمال البناء والمتطوعين.

ولم يكن من الممكن استنهاض هذه الآلية من دون اعتماد تنظيم دقيق للعمل ومراقبة دائمة وعلى أعلى المستويات. فأنشئت لذلك غرفة عمليات أو هيئة أركان تلاحق العمل في كل مرحلته، فكنا نتنقل إلى المواقع بالسيارات أو بطائرات الهيلوكوبتر. كان العمل شاقاً

لكثرة المستنقعات والصخور. . . وأعتقد أن الطبيعة فعلت كل شيء
وأي شيء لتوقيفنا عن العمل! ورغم ذلك شققنا الطريق وعبدناها
بطبقات عدة من الإسفلت حتى تصمد سنوات كثيرة.

وعندما لم يبق سوى عام واحد على الانتهاء من الطريق حددنا
شهر الافتتاح، بل تاريخ يومه وساعته. واتفقنا على حجز باصات
لِنُقِلَ بها القيادات الحزبية والسوفياتية في المناطق التي يعبرها هذا
الشریان الحيوي، كما قررنا أن الجهة التي لم تقم بالتزامها أو تأخرت
في تنفيذه لن يسمح لقادتها بمرافقتنا في الرحلة. . . وقد حصل ذلك
بالفعل. هكذا ظهرت على الخريطة طريق سفيردلوفسك - سيروف
الجديدة وليدة كل سكان الإقليم وابتهم. كانت بالنسبة إلينا انتصاراً
مشتركاً عزيزاً على قلوبنا.

قد يقال، الآن، أليس هذا أسلوباً إدارياً - أوامرياً مقبلاً. . . أقول
وماذا كان يمكن عمله. . . كان الأسلوب الوحيد الذي أثمر آنذاك.

أنا ربيب هذا النظام. كان كل شيء غارقاً في طرائق القيادة
الإدارية - الأوامرية، ولذا فقد سلكت الطريق نفسه. وقد آتى هذا
الأسلوب أُكله آنذاك، خصوصاً إذا تميَّز القائد بصفات إرادية معينة.
فبالتدرج كنت أحس أكثر فأكثر أن قرارات المكتب - الصحيحة
والجيدة - لا تُنفَّذُ فضلاً عن أن قادة المناطق والقطاعات من أمناء
حزبيين ورؤساء لجان تنفيذية لم يكونوا ينفذون ما التزموا به من
وعود. وهكذا لم تنفع الاجتماعات واللقاءات، وأطلَّ النظام برأسه
يفرض نفسه.

وبالطبع، عكفنا لدى نهاية العقد، بعد أن فاض الكيل بما فيه،
على التفطيش عن طرائق أخرى للعمل وصوغها إذا أمكن، وبات من

الصعب البحث عن مقاربات جديدة؛ علماً أننا كنا نجتمع في المكتب كل عام في كانون الثاني (يناير) ونتداول، بحثاً عن أشكال جديدة للعمل لاعتمادها في تسيير حياة المنظمة الحزبية الهائلة. ومع ذلك فقد أحسست - وأنا هنا أعترف للمرة الأولى - أن الرضا كان يتجه هبوطاً. وبتُّ أراقب ذلك التعب الداخلي الذي يحز في.

وسارت الأمور في الإقليم كما كانت عليه في السابق، . . على نحو غير سيء.

يوميات الانتخابات

٢٢ شباط (فبراير) ١٩٨٩

انتهى اجتماع الدائرة الانتخابية الأولى في موسكو حوالى الساعة الثالثة صباحاً، وبعد ثلاث ساعات ركب الطائرة قاصداً مدينتي سفيردلوفسك. وطلبت من أعواني الموثوقين توجيه برقيات الامتنان والشكر إلى الدوائر التي رشحتني وإعلامها بأنني اتخذت قراراً بالترشح عن دائرة أخرى لم أذكرها.

أما سبب رحلتي إلى سفيردلوفسك فهو أنني لم أستطع إعلام مواطني عن نيتي ببرقية، أو ببساطة لم أشأ ذلك، وآثرت إعلامهم شخصياً.

وقد وصف كثيرون، سواء كانوا أعداء أم مؤيدين، فكرتي بالترشح عن دائرة موسكو، والتخلي عن الترشيحات في الدوائر الأخرى حيث كان الفوز مضموناً مائة بالمائة، بأنها غلطة كبيرة وثقة زائدة في النفس وغرور وغير ذلك من الأوصاف. ولم يكن لدي في الحقيقة ما أرد به عليهم، إذ كان هناك فعلاً خطر كبير ألا أصبح مندوباً، وفي هذه الحالة كنت أجرد نفسي بنفسي من آخر موقع سياسي أطل من خلاله على الناس.

وبالرغم من كل شيء كان لا بد أن أفوز بالانتداب عن الشعب في الدائرة الرئيسية في البلاد، عنيت موسكو. ولم يكن يحركني جنون

العظمة أو النرجسية، بل كان لا بد أن أثبت لنفسي ولكل الذين دعموني أن الزمن تغير. إن بوسعنا الآن تحديد مصيرنا بأيدينا، بغض النظر عن كل الضغوط الفوقية التي يرهقنا بها الجهاز والأيديولوجيا الرسمية، وأنه يمكننا الذهاب إلى قلم الاقتراع والإدلاء بأصواتنا بكل حرية.

فلو أنني انسحبت من دائرة موسكو وترشحت عن سفيردلوفسك مثلاً لكانت حملتي الانتخابية انتهت عند هذا الحد. ولم يبق إلا انتظار يوم ٢٦ آذار (مارس)، يوم الانتخاب، ومعرفة النتائج. ولم أشك لحظة في أن سكان سفيردلوفسك كانوا سيتخبونني لو أنني ترشحت عن دائرتهم.

لقد اعتبرت حملتي الانتخابية في العاصمة - وفرصي بالفوز كانت بنسبة خسين بالمائة - تكملة لمواقفي التي أعلنتها في دورة اجتماعات اللجنة المركزية المنعقدة في تشرين الأول (أكتوبر). ولعل الفرق يكمن في أنني كنت وحيداً بوجه كل قيادة النظام الحزبي - البيروقراطي المنهار. أما الآن فالوضع مختلف تماماً. والعدو ما زال هو هو، إلا أنني لم أعد وحيداً. كان معي ملايين المواطنين الموسكوفيين.

وصلت سفيردلوفسك صباحاً. ومع أنني لم أغفُ لحظة واحدة، إلا أن مسقط رأسي، هذه المدينة العزيزة، أزال كل التعب وكل توترات الأيام الأخيرة. وتوجهت للقاء مواطني على الفور. استمر اللقاء الأول ثلاث ساعات تخللها عناق مع الأصدقاء، وعند انتهائه توجهت إلى لقاء آخر في قصر ثقافة تابع لأحد المصانع، حيث كان في انتظاري ألف وخمسة ناخب طرحوا ما يزيد على خمسمائة سؤال: وكان ثمة سؤال من كل سؤالين: «بوريس نيقولايفيتش، انسحب

من موسكو وتعال إلى هنا «سيدبحونك» في موسكو، قد يخونك الموسكوفيون».

ولم ينته لقائنا إلا في الأولى صباحاً. وقد شرحت لمواطني أهمية خوض معركة الانتخابات في موسكو، وبدأ لي أنهم تفهّموا الوضع، ولكنهم قالوا لي، في الحقيقة، ألا أقلق في أي حال إذا أخفقت يوم ٢٦ آذار (مارس) في دائرة موسكو، لأنهم سيثبتون ترشيح كل مرشحهم في سفيردلوفسك حتى يتسنى لي الفوز عندهم في دورة الانتخاب الثانية. وعموماً كان مزاجهم رائعاً ومعنوياتهم مرتفعة وموقفهم حازماً. وأضافوا إن من يملك منهم الإمكانات المادية فسيطير إلى العاصمة للقيام بنشاط دعائي داعم.

ولم أستطع عملياً مجالسة أي من الأصدقاء أو تجاذب أطراف الحديث. كان ذلك محزناً، ولكن الوضع اضطرني للسفر على عجل، فالوقت لا يرحم. وعرجت على والدتي مودّعاً. . رباه كم كان عليها أن تقلق في الآونة الأخيرة.

هل كنت منجذباً إلى موسكو، أم كان الأمر صدفة؟
كيف تمكّنت من العثور على شقة في موسكو؟

(من الأسئلة التي وجهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية)

في الثالث من نيسان (إبريل) ١٩٨٥ كان اجتماع مكتب منظمة الإقليم منعقدًا، حيث تداول الأعضاء بالمشكلات المتعلقة بعمليات الزرع والبذر. كان الوضع حرجاً، إذ لم يتراكم كثير من الثلوج في الشتاء، وبالتالي فإن كمية المياه المخزّنة في التربة ستكون عملياً غير

كافية، وكان رأي المختصين أنه يجب الانتظار بعض الوقت قبل المباشرة بالبذر. والحقيقة أن الرأي قرَّ على ذلك، كما قرَّرنّا القيام بجولات تفقدية على كل المناطق الزراعية والتشاور مع أصحاب الأمر على الأرض. وفي المساء جُلْتُ على مخازن التموين. وقد كنت من حيث المبدأ أعرف الوضع تماماً، بيد أنني أردت معاينة الأمر شخصياً. طرأ بعض التحسن على التموين فظهرت الطيور على أصنافها والجن والبيض والسلامي، ومع ذلك لم يكن ثمة كفاية ترضي.

ولم أع في هذا المساء بالتحديد أن أفكاري كانت بعيدة في مكان آخر. وفيما أنا راكب سيارتي رن جرس الهاتف، وكانت موسكو على الخط: «عضو المكتب السياسي المرشح، سكرتير اللجنة المركزية الرفيق دولغيخ يود التحدث معك». وتكلم فلاديمير إيفانوفيتش ملقياً التحية وسأل مجاملاً عن الأوضاع لدينا، ثم قال إن المكتب السياسي كلفه أن يقترح علي الانتقال إلى موسكو للعمل في اللجنة المركزية رئيساً لقسم البناء. وبعد تفكير دام ثمانية أو اثنتين أجبت بالرفض.

وفكرت بيني وبين نفسي في ما لم أقله لفلاديمير إيفانوفيتش، فهنا وُلدت وعشت وعملت. والعمل هنا يعجبني رغم بطء التطور، ولكنه مع ذلك تطوُّراً والرئيسي في الأمر أن ثمة علاقات قوية كاملة مع الناس نشأت خلال أعوام مديدة. ولأنني تعودت العمل وسط الناس، فقد كان من المستحيل أن أنتقل إلى مكان آخر دون أن أنهي العمل حيث وجدت. وكان ثمة سبب آخر للرفض. ففي لحظة العرض لم ترد على خاطري فكرة أنه ليس منطقياً بالنسبة إلى سكرتير أول لمنظمة إقليمية ذي خبرة تتجاوز التسع سنوات أن ينتقل إلى منصب رئيس قسم البناء في اللجنة المركزية للحزب. . ولكن يبدو أن

هذه الفكرة كانت موجودة في وعيي . ذكرت سابقاً أن إقليم سفيردلوفسك يحتل المرتبة الثالثة في البلاد من حيث الإنتاج، وبالتالي فإنه من الممكن الاستفادة من سكرتير منظمة ضخمة كهذه على نحو أكثر فاعلية . ولقد كان هذا تقليداً متبعاً: فالسكرتير الإقليمي كيريلينكو رُقي سكرتيراً للجنة المركزية وكذا كان الأمر بالنسبة إلى ريبابوف، فلماذا أُعينَ أنا مجرد رئيس قسم في اللجنة المركزية؟ ولكنني لم أرد الانجرار في تسمية أسباب الرفض، فقلت إنني غير موافق، وانتهى حديثنا عند هذا الحد .

وبالطبع، فقد سهرت الليل أفكر عملياً في ما سيحدث لي، وماذا سيكون مصيري، مدركاً أن المسألة لم تنته مع انتهاء المكالمات الهاتفية . وهذا ما حدث بالفعل . ففي اليوم التالي اتصل عضو المكتب السياسي سكرتير اللجنة المركزية ليغاتشيف، الذي كان على علم بما دار بيني وبين دولغيخ، فجاء كلامه أكثر حزمًا . ولكنني استمررت في الرفض معللاً بأنه من الضروري بقائي حيث أنا، في هذا الإقليم الفريد الضخم ذي الخمسة ملايين مواطن، وحيث توجد مشكلات عديدة لم أحلها بعد . لا، لن أستطيع مغادرته؛ وعندها تحول ليغاتشيف ليستخدم الحجة التي لا يربح معها المرء، ألا وهي ضرورة الانصياع للانضباط الحزبي، فالمكتب السياسي اتخذ قراراً وعليّ واجب التنفيذ بوصفي شيوعياً . عندئذٍ أسقط في يدي فقلت: «إذن، لا مفر، سأنتقل» . وفي الثاني عشر من نيسان (إبريل) تسلّمت عملي الجديد في موسكو .

اتّسم فراقني مع سفيردلوفسك بالحزن، ففيها تركت الأصدقاء والرفاق . فيها معهد البوليتكنيك الأورالي، وفيها راكمت خبرة العمل المنتج لأنتقل منه إلى العمل الحزبي . . فيها كانت كل حياتي . . زوجة

وابتنان وحفيدة أيضاً. وبعد كل ذلك، فليست الأربعة والخمسون عاماً بالشئ القليل. . هكذا يجب ترك كل شيء والتوجه إلى موسكو لعمل جديد.

يوجد في البلاد مرض اسمه موسكو، ما تلبث عوارضه أن تظهر أولاً في تلك العدائية تجاه الموسكوفيين، وفي الوقت نفسه في رغبة جامحة للتوجه إلى موسكو والاستقرار فيها والتحول إلى موسكوفي. أما جذور وأسباب هذه وتلك فمفهومة، فمردها ليس إلى الناس بل إلى ذلك الوضع الاقتصادي - الاجتماعي المتوتر المتكون عندنا. هي موسكو التي يرتادها الأجانب، لا بد أنها جذابة ولو من حيث الظاهر، كما لا شك في أن فيها تمويلاً جيداً وسليماً لا توجد في الأطراف. وهكذا يصلها مواطنو المدن الأخرى يقفون في طوابيرها ساعات وساعات للحصول على السلامي المستوردة، وفي صدورهم تشتعل نار الحقد على الموسكوفيين لكونهم حسني الحظ، أليس كل شيء بين أيديهم؟ أما الموسكوفيون فيلعبون بدورهم الوافدين من المدن الأخرى الذين تغص بهم المخازن والذين لا يستطيعون بسببهم شراء شيء. وهكذا تحلم الأطراف بأن تهب أولادها لموسكو مهما كانت الظروف ومهما ساءت أو تواضعت. بل ظهرت مفردة جديدة لم تكن موجودة في قواميسنا منذ عهد قريب، وهي: المحدود (ليميتشيك) أي الشبان والشابات الذين يزاولون أعمالاً ليست بحاجة إلى تأهيل مهني، أملاً بالحصول بعد بضع سنوات على حق الإقامة والتسجيل في موسكو وليصبحوا مواطنين موسكوفيين كاملي الحقوق.

والحق يقال إنني أنا أيضاً كنت أشعر بالحساسية والحذر حيال الموسكوفيين. طبعاً لم يتسن لي في السابق الاحتكاك بهم عن قرب،

فاقتصرت لقاءاتي على القادة الاتحاديين والجمهوريين، التي تركت بدورها آثاراً غير محببة. ذلك أنهم لم يخفوا شعورهم بالتفوق على أهل المناطق والنظرة الدونية إليهم، فقامت بدوري بإعكاس ذلك - بشكل إنفعالي - على كل الموسكوفيين.

كما وإنه لم تراودني من قبل قط أي رغبة أو تطلُّع للعمل في موسكو. فكم من المرات رفضت فيها مناصب اقترحت علي، بما فيها منصب وزير. لقد أحببت سفيردلوفسك وأحبها الآن، ولم أعتبرها مدينة إقليمية تثير لدي مرُكَب نقصٍ ما.

ما علينا، هاأنذا رغم كل شيء في موسكو. أروني شقة، وكان مزاجي معكراً ولذلك بدا الأمر لي سيّان، فوافقت على ما عرضوه علي.. شقة في بناء قرب محطة قطارات بيلوروسيا، شارع تفيورسكايا - يامسكايا. منطقة ضاحّة صاخبة قذرة. أما قادتنا الحزبيون فقد كانوا يسكنون عادة في منطقة كونتسيشفا الهادئة النظيفة المريحة.

وسرعان ما اندمجت في العمل وبات القسم يعمل بنشاط. ولم يكن الجميع يتقبَّل أسلوب عملي، وهو أمر طبيعي. كنت أعود إلى البيت منتصف الليل أو بعده بقليل، لأعود إلى المكتب في الثامنة من صباح اليوم التالي. لم أجبر الآخرين على اتباع النظام نفسه، إلا أنني حاولت جرّ مساعدي، وخصوصاً نوابي.

لم يخالجي أي خوف قدسي عندما تخطيت الحواجز وبدأت العمل في مقر اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيياتي القائم في ساحة «ستاريا». فهذا المبنى بالذات هو عنوان السلطة في البلاد، وفيه يتركز جبروت الجهاز الحاكم. من هنا تخرج الأفكار والأوامر والتعيينات. ومن هنا تطلق البرامج التقليدية غير القابلة للتنفيذ والشعارات

الطنانة، وببساطة هنا ترتكب المغامرات والجرائم الحقيقية. هنا كانت تُحلُّ في غضون دقائق مسائل هزّت العالم لسنوات، كقرار دخول الجيش السوفيّاتي أفغانستان.

وعندما انخرطت هنا في العمل لم أفكر لحظة واحدة في كل ذلك. كان الأمر الرئيسي بالنسبة إلي يكمن في كيفية رفع مستوى قطاع البناء وتطويره. كنت بناءً وأعرف مشكلات هذا القطاع ومصائبه معرفة تامة.

كانت حياتي قد ترتبت على نحو معين، بحيث لم أكن يوماً خاضعاً أو مرؤوساً. لم أكن يوماً نائباً لرئيس ما. ليكن رئيس موقع ولكن لا نائب رئيس موقع، وليكن رئيس إدارة ولكن لا نائب رئيس إدارة... وهكذا... ولأنني لم أكن أبداً في موقع نيابة الرئاسة فقد اعتدت اتخاذ القرارات وعدم رمي المسؤولية على كاهل الآخرين. أما هنا، في اللجنة المركزية، حيث تسود آلية الخضوع والطاعة والتراتبية الحزبية الصارمة التي تبلغ حدود اللامعقول، فكل شيء ينفذ بحذر ويناقش قبل أن ينفذ... وبالطبع لم تلائم طبعي الاستقلالي الاعتدادي هذه الأطر البيروقراطية الباردة، فكانت تجربة قاسية جداً. كان قسم البناء يقع تحت سلطة سكرتير اللجنة دولغيخ فكان الأول الذي اصطدم باستقلاليتي بحكم العمل والتراتبية.

أذكر أنه كان مرة يترأس اجتماعاً لرؤساء الأقسام وكنت أحضر مثل هذه الاجتماعات للمرة الأولى. كان دولغيخ يتحدث ويتحدث، وأنظر حولي لأرى الجميع يكتبون ويكتبون محاولين التقاط آخر كلمة وكل كلمة يتفوه بها. أما أنا فكانت أسجل الأفكار الرئيسية والمبدئية على شكل موضوعات مختصرة. واسترعى ذلك انتباه دولغيخ الذي تعود على ما يبدو أن يسجلوا كل ما ينطق به، فتوجه إلي بلهجة

حانقة: «ولماذا لا تكتب؟». والحقيقة أنني لم أنبس ببنت شفة، إلى أن سألتني في مرة ثانية: «هل لديك سؤال؟ هل لم تتذكر أي شيء قلته؟ إيسألني». قلت: «لا، أتذكر كل شيء».

كان دولغيش يدرك أن وضعي مؤقت ومرشح لأن يتغير جذرياً في وقت قريب، فلم تقف بيننا نزاعات أو مشكلات.

استوى العمل كثيفاً فوق العادة، ولا أشعر الآن بالأسف لأنني عملت في هذا القسم، إذ تعرّفت على أوضاع البلاد عموماً وكانت لي اتصالاتي بالجمهوريات والأقاليم البعيدة مترامية الأطراف.

ونشأت بيني وبين الأمين العام علاقات، ولكن عبر الهاتف. وأقول الحق كنت أتعجب لماذا لم يرد أن يلتقي بي ويبادلي الحديث مواجهة. فقد كانت بيننا علاقات طبيعية أولاً، ثم إن غورباتشوف - ثانياً - كان يعلم تماماً أنه مثلي، جاء إلى اللجنة المركزية من منصب سكرتير أول لمنظمة إقليمية، علماً أن إقليمه كان من حيث الكمون الاقتصادي دون إقليم سفيردلووف، ومع ذلك فقد عُيِّن سكرتيراً للجنة المركزية مباشرة. وأعتقد أن غورباتشوف أحس بمكنونات نفسي، ولكن أحداً منا لم يُظهر للآخر عن أفكاره.

بعد مضي وقت قصير انتقلت زوجتي مع ابنتنا وصهرنا وحفيدتنا، وكانت ابنتنا الثانية انتقلت قبلنا إلى موسكو.

وعائلي الآن تتكون من زوجتي وابنتينا وزوجيهما وحفيد وحفيدتين... وقد كان الانتقال إلى موسكو صعباً بالنسبة إليهم، فهي مدينة ذات إيقاع مختلف عن إيقاع سفيردلوفسك وستكون فيها علاقات جديدة. وجرياً على العادة يتولى رب العائلة التخفيف عن أفرادها ويساعدهم على استيعاب الوضع الجديد، ولكني لم أضطلع

بهذا الدور. فلم يتوفر لدي لا الوقت ولا القدرة على متابعة شؤون البيت. كنت غارقاً تماماً في العمل، حتى أنه لم تتسن لي الفرص لمعايشتهم بكل معنى الكلمة.

مرت فترة قصيرة، تحديداً في دورة اجتماعات اللجنة المركزية المنعقدة في حزيران، فانتخبت سكرتيراً للجنة المركزية لشؤون البناء. وبكل إخلاص أقول إنه لم تحالجني أي أحاسيس مميزة بالسعادة أو الفرح، واعتبرت أن هذا هو مسار الأحداث الطبيعي، إذ كان لا بد من مكافأتي على جهودي وخبرتي. وتغير كل شيء، المكتب والوضع، وشاهدت بأم عيني كيف يعيش أرباب السلطة العليا في البلاد.

فإذا كان من المفترض الحصول على بيت صيفي ريفي بالمشاركة مع عائلة أخرى - وكان شريكى لوكيانوف وهو أيضاً رئيس قسم في اللجنة المركزية مثلي - فإنهم الآن، وبوصفي سكرتيراً للجنة المركزية، يعرضون علي بيتاً ريفياً كان يشغله الرفيق غورباتشوف الذي انتقل إلى بيت آخر شيد حديثاً.

كان العمل كبيراً مفعماً بالخطط والبرامج، وقد شملت الجولات جمهوريات وأقاليم قريبة وبعيدة كإقليم ليننغراد والشرق الأقصى وتركمانيا وأرمينيا وتومين وغيرها.

وكانت ثمة رحلة سأتصدى لها بالكتابة خصيصاً بالتفصيل. وصلت إلى طشقند لعدة أيام بهدف حضور اجتماع اللجنة المركزية الكامل للحزب في أوزبكستان، فأقمت في الفندق. وقد بلغ الكثيرين في المدينة نبأ وصولي فتجمع الناس حول الفندق طالبين السماح لهم بمقابلتي. وبالطبع أخذ الأمن يبعدونهم، ولكني أبلغت المسؤولين أنني سأستقبل الجميع خلال يومين، وطلبت من حارسي متابعة الموضوع والتأكد من تلبية المواعيد فعلياً.

كان أول الذين التفتيهم أحد عملاء الـ «كي . جي . بي» الذي راح يروي عن الرشوة الفظيعة المستشرية في الجمهورية . فالوضع بعد رشيدوف(*) لم يتغير في الواقع ، بل إن الأمين العام الجديد للحزب في الجمهورية يتلقى الرشاوى بالوتيرة والنجاح نفسيهما اللذين اعتمدهما سلفه . وقد أراني هذا العميل بعض الوثائق الخطيرة المتعلقة بنشاطات عثمان خاجاييف وطلب مني المساعدة . فليس بوسع أحد ، غير موسكو ، اتخاذ التدابير ، ذلك أن أي محاولة أو خطوة لتصحيح الأمور تلقان هنا مقاومة شديدة من قبل الجهاز الفاسد المهترئ . ووعدت أن أطلع بالتفصيل على الوثائق المقدّمة ، وإذا وجدت أن ما فيها جديّ فعلاً فسأطرح الأمر بنفسني أمام القيادة العليا في موسكو .

وتلاه زائر ثان وثالث ورابع ، وهكذا حتى استمعت إلى شكاوى المواطنين على مدى يومين . . كان ما سمعته مذهلاً : ولكن أبرزه ضلوع قيادة الحزب في أوزبكستان بقبول الرشاوى .

ومن كل ما سمعت استطعت تمثيل نظام متسق ومتناسك للرشوة يطال المسؤولين من تحت إلى فوق ، وبحيث ينبغي للإنسان الشريف أن يتمتع بشجاعة حقيقية حتى لا يصبح حلقة في سلسلة المرتشين هذه وكان من جاءني شاكياً ينتمي إلى هذه الفئة .

لقد أصبح الآن كل شيء معروفاً عن هذه «القضايا» ، ولكنها ، حينذاك ، تركت عندي ، لدى انقشاع صورتها الحقيقية ، انطباعاً رهيباً ومزعجاً . وقررت أن أتكلم مع غورباتشوف عند عودتي إلى العاصمة .

(*) أمين عام الحزب الشيوعي في أوزبكستان ، الذي طاله التطهير البيروسترويكي .

عندما هممت بالرحيل وقعت حادثة ذات دلالة . فقد طلبت فاتورة الحساب من الفندق كي أدفعها، فأبلغت أن الفاتورة قد سُدِّت . فطلبت من كبير الحراس أن يشرح للمضيفين الكرماء أنني لا أنوي المزاح، ولا بد من إصدار الفاتورة . وعاد وقد ركب اليأس ليقول إنه لا حساب لأنه دُفع بموجب مادة في نظام إدارة شؤون اللجنة المركزية في الجمهورية وأنه تأكد من ذلك . ولم أعد أستطيع كبح جماح نفسي وأخذت أصرخ مطالباً بالفاتورة . . .

بعد عودتي إلى موسكو قرأت الوثائق باهتمام شديد وتوجهت إلى غورباتشوف للقاءه . ورويت له بالتفصيل ما سمعت ورأيت، وأنهيت حديثي قائلاً إنه لا بد من اتخاذ تدابير حازمة وسريعة، كما لا بد بادئ ذي بدء من حل مسألة عثمان خاجاييف . ولكن ما حصل أذهلني . فقد مسَّ غورباتشوف غضب شديد وقال إنني لم أفهم شيئاً، وإن عثمان خاجاييف شيوعي شريف مضطر إلى مكافحة أذنان رشيدوف وهو بسبب ذلك عرضة لتهجمات المافيا القديمة إياها وشكاويها وتلفيقاتها . فما كان مني إلا أن قلت : «مikhail سيرغييفيتش، لقد وصلت لتوِّي من هناك . لقد انخرط عثمان خاجاييف جيداً في نظام رشيدوف وهو الآن يستثمر وبصورة ممتازة بنية لم يكن له يد في إشادتها . ولكن غورباتشوف قال إنني ضللت، وعلى وجه العموم فإن ليغاتشيف يضمن عثمان خاجاييف . ولم أعثر على رد أجيب به طالما أن الضمانة صادرة عن الرجل الثاني في الحزب . . كانت القضية إذن جدية ! وهكذا تمنيت على غورباتشوف في النهاية أن يعيد النظر كون القضية ذات أهمية استثنائية .

وعند هذا الحد انتهى حديثنا، وما وقع بعد تقديمي الاستقالة فمعروف جيداً، فقد عزل عثمان خاجاييف من منصبه وحمل

المسؤولية. أما ما يتعلق بضمانة ليغاتشيف فقد أصبح الآن كثير من الأمور معروفاً.

ولكن، أشير بالمناسبة، أنني هربت إلى الأمام. ستقع أحداث قريبة. أما الآن فما زلت بعد سكرتيراً للجنة المركزية أعمل على وضع برنامج يخرج قطاع البناء من أزمته.

ولم يدر في خلدي أن مصيري قد تحدد. يرن جرس الهاتف في مكتبي، وأستدعى إلى المكتب السياسي.

يوميات الانتخابات

٦ آذار (مارس) ١٩٨٩

كنت أفكر، أحياناً، كيف يرتكب معارضي الخطأ تلو الخطأ في قتالهم المرير ضدي، وكيف كنت تصرف لو أنني تزعمت الحملة ضد يلتسين المرشح لمقعد مندوب عن الشعب؟

وأعرف تماماً أنني لم أكن لأرتكب الحماقات التي ارتكبوها بحقي. كان أول ما يجب فعله أن أجرد هذا الاسم من السرية والتعتيم اللذين أحاطا به، إذ لا بد من جعله مرشحاً عادياً كـبـتروفي وسيدوروف مثلاً. ولكنني استدعيت أيضاً الصحف والمجلات على عجل لإجراء المقابلات واللقاءات، بحيث يصبح اسمه بعد مضي شهر مثاراً للملل، ولما استئنيت بالطبع التلفزيون بكل برامجه السياسية والتوجيهية من «ساعة ريفية» و«أخدم الاتحاد السوفياتي» و«وجهة نظر» و«الوقت» و«كشك الموسيقى» وغيرها، حتى أجعل مجرد ظهوره أو ذكر اسمه أو أفكاره يُشكلان حساسية لدى القارئ أو المشاهد والمستمع. كان ذلك كفيلاً بجعل يلتسين ينزلق ويزيح من الدرب.

أما ما حدث في واقع الأمر فنقيض ذلك. لقد كان اسمي تزداد هالته يوماً إثر يوم. فالصحافة الرسمية صامتة لا تذكر اسمي، ولا

مقابلات تجري معي إلا تلك التي أجرتها محطات الإذاعات الغربية. وكانت كل خطوة تتخذ ضدي تثير عطف الموسكوفيين وضيقتهم أكثر فأكثر. ولأن الخطوات تعددت فقد بات كل من اتخذها يعمل ما بوسعه، دون أن يدري، كي ينتخب الناس يلتسين نائباً عن دائرة موسكو الانتخابية.

سألني كثيرون بمزيد من الجدية: ألا يُعقل أن سكرتير منظمة موسكو الحزبية الأول ل. زايكوف هو أحد أعوانك الموثوقين السريين ويحمل الرقم أحد عشر؟ وعلى كل حال فقد نُصحت أن أتصل به إذا فشلت في الانتخابات لأشكره على «المساعدة والدعم» الكبيرين اللذين بادلي إياهما أثناء الانتخابات. فعدم الإدراك المطلق لقوانين النفس البشرية وعدم القدرة على الإحساس بالناس ورؤية رداة فعلهم كانا يوصلان معارضي في كل مرة إلى نتائج عكسية منقلبة عليهم.

وغالباً ما طرح علي المراسلون الأجانب هذا السؤال: هل أتمتع بتكتيك ما أعتمده في حملي الانتخابية أو هل لدي أسرار ما؟ وكنت أجيب بكل بساطة مهما كان ذلك غريباً: لا تكتيك إلا واحداً وهو التفكير الصحيح، وألاً تُرتكب أي تصرفات يمكن أن تشكل إهانة إلى منافسي بوجه ما، وأن أقول الحقيقة، والحقيقة فقط، في الاجتماعات واللقاءات مهما كانت جارحة أو مسببة لي بخسارة ما، وأن أكون صريحاً إلى أبعد الحدود، وأن أحس بالناس دائماً. هذا هو الأمر الرئيسي.

كنت أجري كل يوم تقريباً لقاءات مع مجموعات كبيرة من الناحيين، وقبل شهر من يوم الاقتراع كنت أجري لفائين يومياً. ولقد أصابني من جراء ذلك إرهاق شديد بالطبع، ولكنني كنت أخرج من

كل لقاء بشحنة كبيرة من الثقة بالنفس وبأن كل شيء سيكون على ما يرام. بل إن المسألة بالنسبة إلي لم تعد الفوز الذي أصبح همّاً تفصيلياً كما يقال، كل ما كان يهمني أن إيماناً كبيراً برز، فمع هذه الجموع من الناس ومع هذا العطش إلى العدالة سيكون بمقدورنا حتماً انتشال الخير من الهاوية التي وقع فيها.

وأنا لا أحبُّ المهرجانات، وخصوصاً تلك التي تضمُّ السوف الناس، ولكن كانت أيام احتشد فيها باللوجنيكي مائة ألف مواطن. لم يكن ممكناً هناك أن ترى لا وجوهاً ولا عيوناً. وهناك، في مثل هذا الحشد، لا يمكن للمرء أن يقيم صلة مباشرة مع الجو العام كما يحدث في صالة مقفلة. ومع ذلك فالمهرجان مدرسة جبارة وصعبة بالنسبة إلى رجل السياسة. ففيه ينبغي عليه استقطاب انتباه حشود الجماهير بكلمة واحدة... وبعبارة واحدة يمكنهم رميك عن المنبر.

أشعر بأسف شخصي لأن غورباتشوف لا يشارك في المهرجانات، فهو أمر مفيد له. فبالنسبة إليه، وهو الذي اعتاد على التوجّه إلى أناس جاهزين منتقين محمولين بالباصات «ممثلين للكادحين»، كان يمكن أن تكون تجربة مهرجانات اللوجنيكي درساً قيماً. ومن الممكن أن هذا سيحدث...

ومرة أخرى أكرر القول: إن المهرجانات أداة خطيرة جداً في الصراع السياسي. فهنا لا تُكبح العواطف والانفعالات ولا تُستخدم التعابير البرلمانية. ولذا يجب أن تكون الخطب مترنة وموزونة ودقيقة. كانت تتكون عندي أحاسيس مركّبة عندما أطل برأسي على جماهير الناس فتصرخ بعنف: «يلتسين! يلتسين!...». رجال ونساء وفتيان وفتيات، شبان وشباب... وأقول بإخلاص إنه لم يكن يخالجي لا الرضا ولا الفرح. إذ يجب الصعود إلى المنبر بسرعة والتقاط

الميكروفون والبدء بالكلام حتى يتمكن المرء من صدّ هذه الموجة من الحماس الجيَّاش وامتصاصها. فعندما يصغي الناس يتبدل الجو. وأنا أنظر إلى هذا الحماس بحذر داخلي أيضاً لأننا نعلم جميعاً كم من السهل أن يتحمّس المرء ليفقد بعد ذلك الإيمان بالسهولة نفسها. . ولذا، ينبغي هنا ألا ينساق مع الأوهام.

ولطالما تجادلت مع مساعدتي في صدد مسألة: أنه كلما علا الصراخ باسمي كلما كان المهرجان أنجح. . هذا هذر.

وعموماً، فإن مساعديّ خليط خاص من الناس. ولهؤلاء علي واجب الشكر على دعمهم اللامحدود وإخلاصهم وتضحياتهم وإيمانهم بي. وقد أسرتني كثيرون بأنني أقترف خطأ جسيماً لا يغتفر لأنني اجتذبت مساعدين غير محترفين وليسوا سياسيين ولا علماء، بل أشخاص عاديين وأذكاء وإنسانيون. لم أعرف منهم أحداً قبل الحملة الانتخابية، إذ كانوا يتصلون بي ويأتون إلي ويقولون: نود أن نكون مساعدين. وكنت أجيبهم: شكراً، ولكن فكروا جيداً، فالأمر سيكون صعباً؛ وكانوا يقولون: نعرف. كانوا يأخذون إجازات إدارية على حسابهم ويتفرغون للعمل في حملتي الانتخابية ليل نهار دون مبالغة. . . وكان يرأس فريق المساعدين ليف يفغينيقيتش سوخانوف المخلص، الذي أخذ على عاتقه مسؤولية تنسيق الحملة.

إنهم أشخاص رائعون. شكراً لهم. . .

أي نقائص شابت عملك أثناء توليك مهام سكرتير أول منظمة مدينة موسكو الحزبية؟

هل نقیصة التسلط والهيمنة من تلك النقائص؟

هل صحيح أنك تسلّمت في أول لقاء لك مع
الموسكوفيين رسالة من رؤوس المافيا الحزبية وزوجاتهم
يعدون فيها «بتقطيع أوصال الپیرسترویکا»؟
(من الأسئلة التي وجهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات
والاجتماعات الانتخابية)

عملت سكرتيراً للجنة المركزية عدة أشهر، وفجأة استدعيت يوم
٢٢ كانون أول (ديسمبر) ١٩٨٥ إلى المكتب السياسي. عمّ يمكن أن
يدور الحديث؟ لم أكن على علم بشيء، ولكن عندما لاحظت أن
الاجتماع مقتصر على أعضاء المكتب السياسي، ولا يحضره أمناء
آخرون للجنة المركزية، أدركت أن الحديث سيتناولني بشكل أو بآخر
على ما يبدو. وبدأ غورباتشوف الكلام على هذا النحو تقريباً: «لقد
تشاور المكتب السياسي وقرر أن تترأس منظمة مدينة موسكو
الحزبية» - وهي تضم حوالى مليون ومائتي ألف عضو، أما عدد
سكان المدينة فيربو على تسعة ملايين نسمة - . كان القرار بالنسبة إلى
مفاجئاً تماماً. نهضت ورحت أقوم القرار ومدى صحته: أولاً أنا
مهندس مدني وعندي خبرة عمل طويلة وغنية، ولدي آمال عريضة
في إخراج قطاع البناء من أزمته، ولعله من الأصلح والأفضل أن
أبقى في منصبي سكرتيراً للجنة المركزية لشؤون البناء؛ أضف إلى
ذلك أنني لا أعرف أحداً تقريباً من كوادر منظمة موسكو وسيكون من
الصعب علي أن أعمل في مثل هذه الظروف.

وبدا غورباتشوف وأعضاء المكتب السياسي بإقناعي بأن هذا
ضروري جداً وأنه يجب إقصاء غريشين وأن منظمة مدينة موسكو
الحزبية باتت هزمة متهتكة، حيث أنها لا تمثل قدوة للمنظمات الحزبية

الأخرى بأسلوب عملها ونمطه فحسب، بل باتت متخلفة عن كل المنظمات. وقالوا إن غريشين لا تشغل باله أمور الناس وحاجاتهم ومتطلباتهم وأنه يفشل الأعمال القائمة ولا يهتم إلا استعراض نفسه وتنظيم الاحتفالات المسبقة البرجة... وبشكل عام يجب إنقاذ منظمة الحزب في العاصمة.

كان الحديث في المكتب السياسي صعباً. ومرة ثانية ذُكرت بالانضباط الحزبي مردفين بالقول إنهم يعرفون أنني سأكون هناك مفيداً... وعموماً فقد وافقت على مضض، إذ أدركت الحالة المزرية التي تعيشها المنظمة وأنه لا يجوز ترك الحبل على غاربه خشية أن يعمد المكتب السياسي إلى تعيين أي شخص آخر يمكنه أن يسيء إلى الوضع أكثر مما هو سيء.

ولم يكن من النادر فيما بعد أن أتأمل في كيفية وصول غورباتشوف إلى ترشيحي لقيادة منظمة موسكوف. فلعله - على ما يبدو - أخذ بحسبانه خبرتي الممتدة عشر سنوات في قيادة إحدى أكبر منظمات الحزب في البلاد، إضافة إلى الخبرة التي راكمتها في الإنتاج... وهو دون شك كما يعرف طبعي تماماً ويثق بقدرتي على نفوذ القديم ومجابهة المافيا، نظراً لما أتمتع به من شخصية قوية وشجاعة، ما يمكنني من تغيير الكوادر جذرياً. كل ذلك كان معروفاً سلفاً. كنت في تلك الفترة، بالفعل، المرشح الأنسب لتحقيق الأهداف المذكورة التي وضعها. وجاءت موافقتي على تسلّم المنصب الجديد موافقة صعبة. لم أتعب المصاعب، وكنيت أدرك أنهم يستخدمونني لذلك فريق غريشين، ولم يكن هذا بالطبع شخصاً ذا ذكاء لامع، كما كان لا يتمتع بأي استقامة خُلُقِيَّة. أجل، لم يكن مستقيماً، بل مفاخر متنفخ ويمتاز بمستوى مرتفع من المداينة. فقد كان يعرف ماذا عليه أن يفعل دائماً،

وفي أي وقت، حتى يصانع القيادة ويمثلها. وكان شكاً كبيراً. كان يهين نفسه ليصبح أميناً عاماً للحزب، وقد قام بكل ما في وسعه ليقبض على زمام السلطة، وحمداً لله أنه لم يُسمح له بانتهاز هذه الفرصة.

لقد أفسدَ الكثيرين، وبالطبع ليس الجميع، في منظمة موسكو، بل في قيادتها تحديداً. هيمن في الجهاز أسلوب قيادة تسلطية. والتسلط دون ذكاءٍ كافٍ أمر رهيب، مما انعكس ذلك على القضايا الاجتماعية ومستوى معيشة المواطنين ومظهر موسكو الخارجي. وبدأت العاصمة تعيش حالة سيئة، بل أسوأ مما بدت عليه قبل عدة عقود خلت. . . باتت مدينة قلزة ترسم فيها طواير الانتظار التي لا تنتهي وتعجُّ بحشود كبيرة. . .

انعقد اجتماع منظمة موسكو الحزبية الكامل يوم ٢٤ كانون أول (ديسمبر)، وألقى فيه غورباتشوف خطاباً. وأقصى غريشين عن منصب السكرتير الأول، كالعادة، وفقاً لرغبته وبمناسبة إحالته على التقاعد. . . وهذا نمط كلاسيكي مُتبع لإبعاد غير المرغوب بهم عن مواقع السلطة. وأعلن الأمين العام ترشيحي، الأمر الذي لم يثر - بحسب رأيي - عند أحد لا تعجباً ولا سؤالاً. واقتصرت كلمتي على الإعراب عن الشكر للثقة التي وُضعت في شخصي، واعدتُ بخوض غمار عمل شاق وصعب. . . ومرّ الاجتماع الكامل بهدوء.

وفي شباط (فبراير) حُدّد موعد كونفرنس المنظمة لمناقشة التقرير وانتخاب القيادة الجديدة، وخالطني اعتقاد أن فيه ستنفجر المعركة الرئيسية، فسيحاول لواء غريشين إياه قلب الأمور والعودة إلى الوراء لا في موسكو وحسب.

وتطلّب الأمر التركيز على التحضير للكونفرنس. وأثناء كتابة التقرير التقيت بالعشرات من الأشخاص وجُلْتُ على مؤسسات العاصمة محلاً ومحاولاً العثور مع الاختصاصيين على المخرج الأنجع والأفضل من الحالة المتأزمة السائدة. واستمر تقريرى في الكونفرنس ساعتين، وبعد انتهائي منه قال لي غورباتشوف: «هبت ريح قوية منعشة». . . ولم تكن الابتسامة التي لاحت على وجهه مرحبة كما لم تبدُ على وجهه ملامح الرضا.

كان لا بد أن أبدأ عملياً من الصفر. وأول شيء ينبغي القيام به تغيير جهاز مكتب قيادة المنظمة حيث كان يتشر «أزلام» غريشين. لقد تحوّل غريشين منذ زمن إلى مجرد قرية منفوخة بالهواء، إذ لم تكن له سمعة أو هيبة في أي وقت، وها هي عجلة البيريسترويكا بدأت تدور، فكان وجوده في المكتب السياسي، وبكل بساطة، يعرقل أعلى هيئة تنفيذية في الحزب. وكان غورباتشوف دائماً غير حاسم في اتخاذ القرارات، فأطال مع غريشين اللعب، وكان المفروض أن يُزاح منذ زمن عن مناصبه. وعندما تصدّيت لكوارث موسكو الحزبية التي سببها مع تابعيه لم يُبدِ أي مظهر من مظاهر الاعتراض. ولكن قيل لي إن بعض ممارساتي أزعجته، وهذه مجرد أقوال. . . إذ لم تصدر عنه أي خطوات إجرائية ملموسة.

وجرت محاولات لإدائته في دسائس متنوعة، ولكن القضاء لم يعثر على أي وثائق تدينه، ف قيل لي إنه لمن المعقول أنها قد أُلغيت. وأنا لا أستثني أن يكون ذلك قد حصل فعلاً، لأننا لم نعثر حتى على المواد التي تقدم بها في خطاباته أثناء الاجتماعات الحزبية، وكان لا بد أن تكون موجودة. وبشكل عام فثمة حملة إشاعات خاصة بغريشين ولكنها كلها غير مثبتة. وأكرر القول إنني حين تسلمت مهامى كانت

خزنته خالية من أي أوراق، ولعل كل المواد المتعلقة به موجودة في لجنة أمن الدولة «كي. جي. بي» المركزية. لا أعرف.

وافترضت أنه سيحاول مضايقتي في أقسام الكوادر، وصحّ الافتراض، إذ تم ترشيح أحد أزماته - وعن طريق زمرته - لمنصب رئيس اللجنة التنفيذية لسوفييات موسكو. وعلى وجه العموم، ففي كل مرة كان يطرح فيها أمر أحد المناصب المفصلية، كنت أفكر أن أحد أتباع غريشين سيحتله، الأمر الذي جعلني أتخذ خطوات معينة تسد الطريق بوجه مثل هذا الاحتمال. وكنت أعتقد أن جهاز مكتب قيادة المنظمة، وخصوصاً أولئك الأشخاص الذين عملوا مع غريشين سنوات طويلة، ينبغي أن يتغير بالكامل. لقد كان هؤلاء الجهازيون ملوثين بأسلوب عهد الركود المفعم بالمالأة والمصانعة والمداهنة. كان كل ذلك قابلاً في وعيهم، ولم يكن من الممكن إعادة تأهيلهم، فوجب استبدالهم، وهذا ما فعلته.

أما المساعدون فقد غيرتهم بسرعة، ولكن أعضاء مكتب القيادة وجهاز المنظمة الحزبية بقوا إلى أن تم إقصاؤهم بالتدريج وبصورة واثقة حاسمة. وبدأت أبحث عن أشخاص ملائمين. ورُشح أ. زاخاروف من قبل جهاز اللجنة المركزية لتولي منصب السكرتير الثاني في المنظمة، وقد عمل في قسم العلوم التابع للمركزية وكان قبل ذلك السكرتير الأول لمنظمة منطقة لينينغراد.

وكان يشغل منصب رئيس اللجنة التنفيذية لسوفييات موسكو پروميسلوف الذي لم يكن معروفاً من قبل الموسكوفيين فحسب، فقد شاعت بين الناس نكتة لا تخلو من أساس تقول: «إن پروميسلوف توقف في موسكو لفترة قصيرة في طريقه من واشنطن إلى طوكيو جواً». فقد زارني هذا الشخص في اليوم التالي لانتخابي سكرتيراً أول

وقال دون مقدّمات: «كان من المستحيل أن يعمل المرء مع غريشين»، وأردف ذلك بكثير من الاستغياب بحق المسؤول السابق. ثم قال أيضاً فجأة: «إنني سعيد، بوريس نيقولايفيتش، كونكم أصبحتم السكرتير الأول!». وختم قائلاً إنه الآن كمن انفتحت أمامه الآفاق وعاد يتنفس ثانية ويشعر بملء القوة بما يؤهله، على الأقل، لأن يتم الخطوة الخمسية. وكان لا بد من إيقافه عند حده وإعلامه بأن الحديث سيتناول أموراً أخرى. وقلت له بقسوة كافية: «يجب أن تخرج». وحاول مرة ثانية سلوك أقنية أخرى للتقرب مني، ولكنني قلت: «أرجو أن تحضر لي استقالتك غداً قبل الثانية عشرة». وعند وداعه زدت قائلاً: «أرجو ألا تتأخر». وفي اليوم التالي لم يحضر في الموعد المضروب، فاتصلت به هاتفياً وقلت: يبدو أنك لم تنبّه إلى ما قلته البارحة، إنني أقترح أن تستقيل بالحسنى وإلا فبالإمكان اتباع طريقة أخرى... وقد فهم، ولم تمض عشرون دقيقة حتى تقدّم باستقالته.

بعد يومين اقترحت علي أربع مجموعات أربعة ترشيحات للء منصب رئيس اللجنة التنفيذية الشاغر، وكانت كل واحدة تدفع برجلها. ولا بد أن الجميع يدرك مدى أهمية منصب محافظ المدينة وماذا يترتب عليه. بيد أنني قرّرت اعتماد خيار غير قياسي، غير متبع. ذهبت إلى مصنع سيارات «زِيل» وأمضيت هناك وقتاً امتد من الثامنة صباحاً حتى الثانية بعد الظهر. تجوّلت في الأقسام والعنابر وقابلت عمالاً ومستخدمين وأخصائيين وحزبين وقادة أقسام ومصمّمين. كان هذا إحدى الزوايا. والزاوية الثانية، أنني سعت للتعرف إلى المدير العام ف. غ. سايكين، وجهدت ألا تفوتني أدق التفاصيل - مثلاً كيفية تحادته مع العمال والمروّسين وسكرتير المنظمة الحزبية في المصنع

ومعي - وبعد تحليل استغرق يومين اقتنعت بالفكرة أن بوسعه أن يكون محافظاً جيداً، وبالطبع ليس على الفور، بل هو في حاجة إلى المساعدة والدعم. وتحدثت مع غورباتشوف تليفونيا فاستحسن الفكرة.

ومن الأشخاص الذين تغيروا أيضاً أمناء منظمة المدينة. وقمت بزيارة مكاتب تحرير جريدة «موسكوفسكايا پرافدا» وعقدت اجتماعاً مع المحررين والمستخدمين استمر أربع ساعات ونيف جرى فيه حوار صريح مفتوح. كان هناك رئيس تحرير جديد هو ميخائيل نيكيفوروفيتش پولتورائين عمل سابقاً في صحيفة «پرافدا». كان هذا الشاب صحفياً لامعاً ومبدئياً سرعان ما غير الأجواء في الجريدة، إذ بدأت تظهر فيها مقالات أخافت الكثيرين وجعلتهم يتخذون جانب الحذر. ومن المقالات المهمة أذكر تلك التي بعنوان «عربات عند مداخل البنايات» وتتناول السيارات «الخاصة» الشخصية، وقد أثارت ضجة كبيرة في موسكو. ولم تكن هذه المقالات حادة فقط، بل أستطيع القول إنها كانت، آنذاك، مفعمة بالتحدي. وقد استدعي پولتورائين إلى اللجنة المركزية وكانوا قد اتصلوا بي قبل ذلك وسئلت عن رأيي؟ أجبت أن تقويي جيداً وأرى الأمر طبيعياً. هذا، وقد أثارت مجموعة مقالات عن المخدرات والمدمنين والدعارة والجريمة المنظمة كانت نشرت في جريدة «موسكوفسكي كومسوموليتس» ردود فعل عاصفة، وكان المتبّع أي يجري التعقيم حول هذه المواضيع. وبشكل عام امتنعت صحف العاصمة عن أن تكون هادئة مطيعة، الأمر الذي رحّب به أيمّا ترحيب. وعندما همّس لي أن الأمر لا يستأهل كل هذه الانتقادات المتصدية لمشاكل المدينة، وهي العاصمة، أجبت: «هل هذه الظواهر السلبية موجودة؟ أجل، موجودة؛ وبالتالي فنحن لن نصحح الأوضاع ولن نعالج هذه

التقريحات والدمامل بتغطيتها بالكرما اللذيذة لإخفائها عن العيون.
يجب الحديث عن أي ظاهرة سلبية مهما كان الأمر موجعاً.

والتفت كذلك هيئة تلفزيون موسكو، وقد عُيِّنَ رئيس جديد لها، وبدأت تظهر على الشاشة برامج ممتازة، وأهم ما فيها أنها برامجنا الموسكوفية الخاصة بنا.

ومن الطبيعي أن الصحافة والتلفزيون الموسكوفيين أصبحا يثيران بعد فترة قصيرة ردود فعل سلبية. وكما أسلفت، فقد تم استدعاء پولتورانيين مرات عديدة إلى اللجنة المركزية. وفي مرة من المرات جعلوه ينتظر بضع ساعات قبل استقباله، وكان ذلك مهيناً، فانبرت أدافع عنه بكل قوتي. كانوا يشكونه لغورباتشوف الذي كان يقول لي أثناء انعقاد المكتب السياسي: «هاك صاحبك پولتورانيين!...»، فأقول: «صاحبنا پولتورانيين يقود الجريدة جيداً، والطبعة تزداد حجماً؛ والأفضل أن تتبها لصاحبكم أفاناسييف». ويات واضحاً في تلك الفترة أن الاشتراكات في «الهرافدا» تتدنّى، علماً أن الشيوعيين كانوا ملزمين في الاشتراك في صحيفة الحزب الرئيسية.

وعندما عزلت من مناصبي كان واضحاً أن پولتورانيين لن يبقى في عمله، وهذا ما حدث فعلاً بعد وقت قصير.

حدث ذلك فيما بعد، أما الآن فما نزال نخوض المعارك من أجل موسكو.

كان كل شيء مهماً على الإطلاق: الكوادر والمجال الاجتماعي والتخلف الذي تدل عليه المؤشرات الهابطة ضمن الخطة العامة لتطوير العاصمة والموضوعة منذ عام ١٩٧٢. فبسبب استجلاب المحدودين من العمال من كافة أرجاء البلاد (وقد بلغ عددهم حوالي

سبعمئة ألف عامل محدود) تبين أن عدد سكان العاصمة فاق الرقم الموضوع بحوالى مليون ومائة ألف نسمة . فإذا أضيف إلى هذا العدد الوافدون والزوار فقد كان يصل صيفاً إلى حدود ثلاثة ملايين نسمة وشتاءً إلى مليوني نسمة . وهذه الزيادة لم تكن حصتها محسوبة في قطاع الخدمات الاجتماعية، مما سبب نتائج مؤسفة انعكست في ظاهرات القذارة وطوابير الانتظار ومحطات المترو المختنقة بالبشر، فضلاً عن ازدحام المواصلات العادية . وibat وجود المدينة يتأرجح عند حدود الممكن . والنتائج المؤسفة نفسها انعكست أيضاً في مجال الثقافة، ويكفي أن نشير إلى أن عدد المقاعد في المسارح للألف نسمة تدن إلى ما تحت المستوى الذي كان عليه عام ١٩١٧ .

وقد حاول أمناء اللجنة المركزية وأعضاء المكتب السياسي مٌد يد العون في الفترة الأولى، بفضل حث غورباتشوف لهم للسير في هذا الاتجاه، خصوصاً في السنة الأولى . وقتذاك بالتحديد تولدت لدي فكرة تنظيم المعارض الدائمة غير الموسمية . وأقيمت في المساحات غير المبنية الأكشاك والأكواخ، وعقدت اتفاقيات مباشرة مع المدن الأخرى والجمهوريات لتزويدها بالخضار والفاكهة . وبدأت هذه المعارض عملها، ومع أنها لم تنجح في كل المناطق بالنسبة نفسها، إلا أنها تحولت نوعاً من الأعياد العائلية المريحة . كان هذا شأناً مهماً، حيث افتقرت موسكو إلى ما يكفي من الأعياد . ومُذاك تعيش هذه المعارض في العاصمة وقد اعتاد أبنائها عليها، وأعتقد أنهم يعتبرونها وليدتهم ولا يستطيعون تصوّر مدينتهم خالية منها .

وتابعت السير في موسكو على بعض التقاليد التي كانت مألوفة لدي في سفيردلوفسك كالالتقاء بسكان المدينة . وكان أول لقاء أجرته مع القيمين على شؤون الدعاية في العاصمة وقد غصّت قاعة قصر الثقافة

السياسية بحوالى الألفي شخص. ألقيت في البدء كلمة قلت بعدها
 إنني على استعداد لأن أجيب على الأسئلة مهما كانت، حتى المزعج
 منها. ولحسن حظي أن عدد الأسئلة المزعجة كان ضئيلاً، ومع ذلك
 فقد طرح بعضها من نوع: «ما الذي دفعك الآن، يا يلتسين،
 لمجابهة المافيا الموسكوفية. هذا أمر عرفناه في السابق وخاصة قبلك
 خروتشوف، أراد أن يلبسنا معطفاً فإذا حصل؟ الجميع يعرف. إذا
 استمرت فلن يمر عامان حتى يجلس مكانك آخر». والطريف في
 الأمر أن هذا وقع فعلاً. فما إن مرت ستان حتى أقصيت من مهام
 السكرتير الأول وخرجت من المكتب السياسي. ولا أعتقد أن للمافيا
 في هذا دور، بل لعلها مصادفة بكل بساطة. وسأروي هنا بعض
 الوقائع والحوادث.

بدأت أتسلم مجموعات من الرسائل عن الفساد والرشوة في
 التجارة والميليشيا(*) . وأجريّ تحقيق خارجي لم ينفذ إلى عمق
 النظام، فإما أن المحققين لم يستطيعوا أو إنهم لم يريدوا. واشترك في
 التحقيق هيئات في وزارة الداخلية وأمن الدولة والقيادات الجديدة في
 قطاعي التجارة والتموين. وبدأت حملة تغيير المسؤولين، ولكن ما
 لبثت الدائرة أن انعقدت من جديد.

وكانت ثمة حقائق تترى من مشاهدات الناس ورسائلهم. ولكن
 سأروي ما حدث معي أو ما اصطدمت به شخصياً. تتالت الحوادث
 في مسلخ إحدى المناطق بموسكو حيث يجري «ذبح» الحيوانات النافقة
 فضلاً عن الرشاوى والسرقات. كان يغطي كل هذه العمليات
 سكرتير المنطقة. وبنتيجة الأمر تداولنا في القضية في اجتماع مكتب
 منظمة المدينة.

(*) أي الشرطة.

وفي يوم من الأيام أبلغت بأنه وصلت إلى المخازن كميات من لحم غنم، فذهبت ووقفت في الطابور، إذ لم يكن وجهي مألوفاً بعد لدى الناس. يصل دوري للشراء فأطلب كيلوغراماً من الغنم، فأجاب: «يوجد ضان ولا يوجد غنم». أقول: «هذا غير صحيح، أين المدير». بدأ الناس حولي يعون الأمر فارتفعت الأصوات. وأصرّيت على الدخول إلى المخزن. ورأيت لحم الغنم بأمر عيني يُحمّل إلى الخارج عبر شبّاك كبير. خلعنا الإدارة وأتينا بأخرى.

في مطعم أحد المصانع: «لماذا ليس هناك جزر؟»... «لم يجلبوا جزراً». ونحقق في أمر الجزر مع إدارة المصنع. جلبوا الجزر وأعادوا شحنه في اليوم نفسه. هذا ما قاله الحمالون، ولا وثائق تسليم أو تسلّم.

في مكتب مدير أحد المخازن التموينية ثمة بضع لفائف حلويات. «لمن؟» - «توصيات» «هل يمكن لأي كان أن يجز أو يوصي؟». لا جواب. ونبدأ النظر في الأمر مع المدير: فاضطر إلى الاعتراف بأن التوصيات ترد وفق الترتيب التالية: اللجنة التنفيذية للمنطقة فوزارة الخارجية فلجنة المنطقة الحزبية فدوائر المدينة وغيرها.. وهي توصيات مختلفة من حيث الوزن والنوعية..

وراجعت الميزان العام للمدينة في مجال المنتجات السكرية. غريب الأمر. يُجلب في كل طلبية بضعة آلاف من الأطنان أكثر مما يُستهلك هذا مع احتساب كمية التلف الرسمية.

وهكذا، لا أحد يستطيع كشف خبايا النظام المقل. ومع ذلك فقد وفقت إلى حدّ ما. فقد باتوا يعرفون أنني أكثر من جولاتي على المخازن التموينية والتجارية، ويعرفون بم أنا مهتم. ويبدو أنهم

خافوا. مرة، وفيها أنا خارج من أحد المخازن إذا بامرأة شابة تبادرنى بالقول: «يجب أن أتحدث إليك بأمر فائق الأهمية». فحدّدت لها يوم وساعة اللقاء في مكنتي.

لا يسعني الآن أن أتذكر ما روته لي دون أن يخالجنني شعور عام بالضيق. فقد حكّت لي عن نظام الرشوة القائم، الذي حاولوا جرّها إليه وإغراقها فيه منذ فترة قصيرة، فلم تستطع أن تتحمّل. والعجيب أن كل مفاسل هذا النظام مدروسة حتى آخرها ومعبوكة جيداً. إذ «يجب» على البائع أن يخطيء الحساب مع الزبون مما يوفر مبلغاً من المال يومياً يُعطى إلى الشخص المسؤول وهنا يجري التوزيع بين إدارة المخزن وبين المستخدمين. بعدئذٍ تقتسم المبالغ في الإدارة من تحت إلى فوق، وإذا توجهت إلى مخزن الحملة فعليك هناك دفع الأتاوة المتعارف عليها. وكل واحد يعرف شخصين أو ثلاثة. وفوق هذا النظام يوجد نظام آخر أكبر وأوسع وأشمل.

وفعلت ما بوسعي حتى لا يعرفوها. فقد أصابها الرعب وطلبت الحماية، وبعد وقت قصير تم نقلها إلى مخزن آخر. وقررت مناقشة الأمر ضمن حلقة ضيقة من الموثوقين، فقررنا ألا نحدث تغييراً في مكان واحد بل أن يشمل التغيير قطاعات وأقساماً ومخازن وعنابر بأكملها، ونزرع الطاقات الشابة «غير الملوثة». وتمكّنا من محاكمة ثمانمائة شخص خلال عام واحد.

ولكن هؤلاء لا يشكّلون سوى جزء بسيط من المافيا لا يتجاوز نسبة ١٥٪ من اقتصاد الظل، أما المافيا السياسية فإننا لم نستطع حتى بلوغها. لم نُمكّن من ذلك. وانتهت المدة: ها هما العامان قد انقضيا. وبمضي الوقت لم تعد منظمة المدينة مهمة كثيراً بهذه المسائل.

أما في ما يتعلق بالاجتماعات التي كنت أعقدها مع العاملين في الحقل الإيديولوجي، فإن موسكو التي تعودت على التقارير الغريشينة الطويلة المملة المثيرة للنعاس، اعتبرت هذه الاجتماعات وما دار فيها من حوارات مفتوحة وصریحة حدثاً. أما بالنسبة إلي فقد كان مفرحاً أن ألتقي رفاقي بالفكر فلا أتهيب الخوض معهم في أي من المواضيع أو الأعمال مهما صعبت.

أما وأن العمل ينتظرنا عند المنعطف - وأي عمل صعب هو - فلا أحد يراوده الشك. فمن بين ثلاثة وثلاثين سكرتير منطقة وجب تغيير ثلاثة وعشرين. ولم يخرج هؤلاء كلهم بسبب عجزهم عن إدارة منظماتهم، بل إن بعضهم نال ترقية. وأما الباقون فقد اضطروا إلى ترك كراسيهم مكرهين بعد كلام قاس وصریح معي أو في مكتب منظمة المدينة أو في مؤتمرات منظمات المناطق. واعترفت الأكثرية أنها لن تستطيع العمل وفق النمط والأسلوب الجديدين. وكان لا بد من إقناع بعضهم. وعلى وجه العموم، كانت هذه العملية قاسية ومؤلة.

وما تجدر الإشارة إليه أن التعيينات الجديدة لم تكن كلها متسمة بالدقة أو الصحة. فثمة مثل روسي يقول: مبادلة المخرز بالصابون، وما أعنيه أنا أجرينا تغييرات غير ذات معنى لم تستطع تغيير الأوضاع باتجاه تحسين أسلوب الأداء والعمل في بعض المناطق. ولقد كان لذلك عدة أسباب: أولاً، وكما قلت، لم أكن أعرف الكوادر كلها معرفة جيدة؛ وثانياً أن الاختيارات الجديدة تمت وفق مواصفات اللوائح الموجودة، وهي لوائح مليئة بالمغالطات ومبنية على أساس النظام المهترئ المعمول به. وفي جوهر الأمر، لم يكن الشخص هو موضوع الاختيار بل ملفه الذي في اللائحة. ولهذين السببين كانت الأخطاء.

وفي نتيجة الأمر، عندما بدأت الانتقادات تُوجّه إلي كوني تعاملت بصورة قاسية مع أمناء منظمات المناطق بإقصائهم عن مناصبهم ميناً وشمالاً، عمدت إلى تحليل الوضع الناشئ فتين أنه تم تبديل ٦٠٪ من أمناء منظمات المناطق الحزبية في عهدي. بالمقابل تم تبديل حوالي ٦٦٪ من أمناء منظمات الأقاليم في عهد ميخائيل سرغيفيتش غورباتشوف. وإذن، كان ثمة أساس للنقاش مع الرفيق غورباتشوف حول من منا بالغ في مسألة الكوادر أكثر.

ولكن القضية أنه لم يكن أمامه أو أمامي مخرج آخر غير تغيير أولئك الذين شكلوا عقبة كأداء في وجه عملية البيروسترويكا. كان هؤلاء غارقين حتى آذانهم في مستنقع الركود، يرون إلى السلطة - ويمارسونها - بوصفها أداة لتحقيق المكاسب الشخصية وللعيش في جنون العظمة. كانوا أباطرة صغاراً على مستوى المناطق، فهل كان من المعقول تركهم في مناصبهم يعيشون؟ وبدا كما لو أنه وجب إبقاؤهم.. وعموماً، صارت سياستي في تجديد الكوادر موضوع انتقاد شديد وقاس.

وقد خلقت الحادثة المأساوية التي أنهت حياة السكرتير الأول للمنظمة منطقة كيف (في موسكو)، انطباعاً مريراً لدي، حيث انتحر ملقياً بنفسه من الدور السابع. وقتها لم يكن يعمل في المنظمة الحزبية بل انتقل إلى وزارة المعادن ليشغل منصب نائب رئيس إدارة الكوادر. كان الوضع على ما ظهر جيداً لا يعكر صفوه شيء، ثم فجأة يقع هذا الحادث المؤسف. ثمة من اتصل هاتفياً، وإثر الاتصال رمى بنفسه من شباك مكتبه. فيما بعد، وعندما بُدئ بتسيم وضعي وتنظيم حملة معادية لي، حاول بعضهم اللعب بهذه الورقة الراحلة.

وهاكم مشهداً آخر من شريط نشاطي العاصف عندما كنت أشغل

منصب السكرتير الأول، وهو مشهد سيظلون يذكرونني به طويلاً،
عنيت به الوضع مع منظمة «پاميات» («الذاكرة»).

اتصل بي قادة إدارة الشؤون الداخلية، وبصوت ملؤه الرعب
أبلغوني أن حشداً من منظمة «پاميات» يتظاهر في وسط موسكو
التجاري، وأن المتظاهرين يرفعون بعض الشعارات والمطالب.

كانت هذه أول تظاهرة غير مصرح بها في العاصمة. فقد خرج
حوالي ثلاثمائة أو أربعمائة، وربما خمسمائة مواطن، للتظاهر في ساحة
الذكرى الخمسين لثورة أكتوبر، واحتشدوا هناك طويلاً رافعين
شعارات اتسمت بالرزانة بخصوص الپيرسترويكا وروسيا الحرة
وتعفن الجهاز. وكان هناك شعار: «نطالب بحضور يلتسين أو
غورباتشوف». وقد حضر سايكين عدة مرات ليقابل المتظاهرين،
ولكنهم لم يتفرقوا. ومرت بضع ساعات وبدأ الحشد يتعاضم. كان لا
بد من إجراءات ما.

ولأننا في حياتنا الواقعية لم يكن يُسمح لنا بالتظاهر إلا في مناسبتين
هما: الأول من أيار (مايو) والسابع من تشرين الثاني (نوفمبر)، بغض
النظر عن أن الدستور منحنا أشياء كثيرة، فقد كان ثمة طريقة ناجعة
ومجربة للتعامل مع ظاهرات مماثلة. . كان ينبغي استدعاء الميليشيا
فتحاصر المتظاهرين وتطلب إليهم للمرة الأخيرة أن يتفرقوا، فإذا لم
يفعلوا تبدأ المطاردة ويُؤايد الأيدي والاعتقالات فينتهي كل شيء على
نحو جيد وعادي. إلا أنني قرّرت التصرف بطريقة مغايرة. . وقلت
إنني سوف ألتقيهم. ومُذاك يعتمد من لا يكن لي العاطفة (!) إلى
اتهامي بالصدقة مع «پاميات». فلو أن المتظاهرين تلقوا الضرب على
الرؤوس لكان ذلك أرضى معارضي تماماً.

وقلت لسايكيين أن يبلغ قادة «پاميات» - وكان زعيمهم وقتذاك فاسيلييف على ما أظن - موافقتي على لقائهم، واقترحت ثلاثة أمكنة: قصر السوفييات ومقر قيادة منظمة الحزب وقصر الثقافة السياسية. واختاروا أن يتم اللقاء في قصر السوفييات إلى حيث توجَّهوا سيراً على الأقدام. اجتمعنا في القاعة الكبرى التي تتسع لألف شخص. وعندما استقر الجميع في أماكنهم طلبت منهم الإعراب عما يريدون وطرح مطالبهم. وتكلم عدة أشخاص فعبروا عن أفكار كانت بمعظمها أفكاراً متزنة وحكيمة. فقد طالبوا، مثلاً، بضرورة الاهتمام الجدي باللغة الروسية، وعرضوا مشكلة تشويه التاريخ الروسي وضرورة حماية معالم البلاد وصيانتها، وغير ذلك من الأفكار. ومع ذلك فقد كانت هناك أيضاً أفكار متطرفة. وفي نهاية اللقاء تحدثت فقلت إنه إذا كان مصير الپيرسترويكا والبلاد هو فعلاً ما يقلقكم، وليست الطموحات الشخصية، فإنه باستطاعتكم أنتم أن تقضوا على التطرف في صفوفكم. هاتوا برنامجكم ونظامكم الداخلي وتقدموا بطلب لنيل رخصة بوصفكم منظمة اجتماعية وبما يوافق الدستور، وابدأوا العمل. كان هذا ما انتهى عنده اجتماعي بمنظمة «پاميات». كانت هذه الأشياء المملّة، كأطر الدستور والبرنامج والنظام الداخلي، آخر ما يهتمهم. وحدث في أوساطهم انشقاق خرجت منه مجموعة متزنة. ولم يحدث فيما بعد أنني التقيت مرة ثانية بهم...

في تلك الفترة كنا نعمل بروح معنوية عالية. وكانت قيادة البلاد تثق بي وتقدم لي المساعدة مدركة ماهية موسكو وضرورة تنظيمها ووضعها على السكة. وبُدِّل قادة إدارة الشؤون الداخلية ولجنة أمن الدولة ونوابهم وكثير من رؤساء الإدارة الأساسية..

وطالبت قيادتي إدارة الشؤون الداخلية ولجنة أمن الدولة بتقديم

تقارير دورية عن أوضاع المدينة . وفي الوقت نفسه بذلت المساعدة عن طريق إشراك الأوساط الاجتماعية والهيئات الحزبية والسوقيات والمؤسسات الصناعية للمساهمة في فرض النظام بالعاصمة ، وكانت تنظم دوريات تفتيشية مفاجئة في كل أنحائها ، فجرى تفتيش كل حوش وقبوييت مهجور في المناطق الواحدة تلو الأخرى . وقد أثمرت هذه الحملات نتائج ممتازة ، إذ تم القضاء على بؤر التوتر والأماكن التي كانت تتجمع فيها العصابات والمدمنون على الكحول والمخدرات ، فضلاً عن أن الميليشيا عثرت على مطلوبين للعدالة على مستوى الاتحاد السوفياتي ككل ، الأمر الذي لم تكن تتوقع حدوثه . والرئيسي في أمر هذه الحملات أنها لم تتسم لا بالاستعراضية ولا بالأنية . وكنا نعد إلى تغيير إيقاعها الزمني كي لا ينشأ لدى هؤلاء الذين يخشون مواجهة الميليشيا أي نوع من التكيف إزاء عمليات تطهير المدينة وفرض النظام فيها .

وكما ذكرت آنفاً ، كانت موسكو تختنق بفائض البشر فيها ، وأردت التأكد بنفسني ، وليس فقط عن طريق الإحصائيات والأرقام ، من أوضاع المواصلات التي بلغت شأواً بعيداً من التوتر . ووضعت نصب عيني مهمة معرفة كيفية وصول الموسكوفيين إلى أماكن عملهم ، وليس فقط أن استقل المترو أو الباصات في أوقات الازدحام المعروفة .

وعلى سبيل المثال ، عرفت أن كثيراً من عمال مصنع خرونيشوف يقطنون في منطقة نموذجية حديثة اسمها ستروغينو . وصلت إلى هذه المنطقة في السادسة صباحاً وركبت الحافلة مع العمال شبه النائمين ثم قمت بتحويله إلى المترو . وفي الطريق سمعت من هؤلاء الناس المتعبين المتوترين أموراً كثيرة عنا وعن الرؤساء الذين خربوا البلاد . . . ثم انتقلت بعد المترو إلى حافلة ، وما كادت الساعة تبلغ

السابعة والربع تماماً، موعد بداية يوم العمل، حتى كنت واقفاً أمام مدخل المصنع. هذا مشهد واحد من جولات كثيرة مماثلة قمت بها.

كانت ردة فعل المكتب السياسي على رحلاتي في وسائل النقل العام متميزة. فقد كان واضحاً أن أحداً من أعضائه لم يبد اعتراضاً علنياً، ولكن بلغتني موجات ما كانوا يشعرون به من الاستفزاز. وعندما آن أوان الانتقاد انفجر ما كان متراكماً، إذ اعتبرت هذه الرحلات محاولة رخيصة لكسب الشعبية.

غباء، فالأمر الرئيسي الذي كان يعينني هو تلمس مشكلات المواصلات بنفسي، لمعرفة ماذا ينبغي فعله بصدها وكي نزيل الضغط في ساعات الازدحام شيئاً فشيئاً. وقد عمدنا بالفعل إلى وضع نظام مرّن بشأن بداية يوم العمل في المؤسسات والمصانع الموسكوئية وأطلقنا مزيداً من وسائل النقل في خطوط جديدة مستحدثة وغيرهما من التدابير العملية.

وأود هنا التحدث قليلاً عن الشعبية. فما أعجب له أن أحداً غيري لم يرد أن يكتسبها طالما أن اكتسابها أمر سهل! إذ يكفي أن يستقل الساعي وراءها وسيلة نقل عامة؟! أم لعلها الرغبة في ألا يتعب نفسه لمعرفة ماهية الشعبية، وهي مسألة نسيها الجميع منذ زمن بعيد. لا. ليس الأمر في هذا ولا في ذاك، بل في أن ركوب الـ «زبل» الفخمة أسهل وأكثر ملاءمة وراحة بالفعل؛ فلا زحام ولا محطات... ناهيك عن الضوء الأخضر الذي لا ينطفئ والتحيات التي تؤذيها شرطة المرور... هذا أفضل دون ريب...

وبشكل عام، لم تفاجئني ردود الفعل على تنقلاتي العامة. ففي سفيردولوفسك كان ذلك ظاهرة طبيعية، بل إن الناس لم يلقوا إليها

بالأ أو اهتماماً. وماذا في الأمر إذا استقل سكرتير منظمة الحزب الإقليمية الأول الترام؟ يفعل ذلك، إذن فهذا ضروري. أما في موسكو فقد تحول الأمر قضيةً مثيرة.

وأثناء تولي منصب سكرتير منظمة موسكو اتخذت عدة قرارات مبدئية حاسمة. فقد أقر المكتب السياسي وثيقة تتعلق بتطوير العاصمة، كنت قد تقدمت بمشروع صياغتها. وقد تضمنت هذه الوثيقة قراراً مهماً بوقف استجلاب المحدودين من العمال من أرجاء الاتحاد. ففقدت المؤسسات الذين كانوا يستجمعون المحدودين عمدوا إلى الاستفادة منهم في مختلف أنواع الأعمال الأشد وضاعة والأقل تصنيفاً بأبخس الأجور. والاعتماد على هذه الفئة كبج عملية تحديث المؤسسات والمصانع، لأنه كان من الأسهل استجلابها من مدن أخرى بالمقارنة مع الجهد الضروري بذله لتحسين ظروف الإنتاج.

وهكذا، فقد شكّل المحدودون عبيداً من نوع خاص مجردين من أي حقوق لمجتمع الاشتراكية المتطورة في نهاية القرن العشرين، إذ كانوا مشدودين إلى المؤسسات التي يعملون فيها حتى الموت، بالارتهاق لإقامة مؤقتة في موسكو والعيش في مساكن جماعية، أملأ بالفوز بإقامة ثابتة. وكان من الممكن إنزال العجائب بهم، حتى ما يخالف القوانين، دون خوف من أن يعمدوا إلى الأدعاء أو توجيه شكوى. . . وإلا فسُحِبَت الإقامة المؤقتة، وهاكم أربع أرجاء البلاد. . . وبسبب كل هذا التحقير والظلم انكب كثيرون منهم على معاورة الفودكا. كانت مأوي «المحدودين» بيئة خصبة لحالة إجرامية ما فتئت تزدهر توتراً. وبالمناسبة، أُشير هنا إلى أن الإقامات المؤقتة أعيدت مجدداً إلى بعض المؤسسات لاستجلاب المحدودين، وذلك بعد إقصائي عن مهامي الحزبية.

ومن القرارات المهمة، التي اتخذناها في إبان تلك الحقبة، القرار المتعلق بتحديد المؤسسات الواجب نقلها من موسكو كبعض المصانع والفبارك التي تلوث أجواء المدينة، وتنتج سلعا تُصدّر إلى خارجها. كما خُذت برامج تستهدف تحسين بنية العاصمة، إذ كان من الضروري إخلاء المناطق السكنية في مركزها التجاري وإعطائها للمخازن والمسارح والمتاحف والمطاعم لاستثمارها.

وأجرينا تحقيقات كبرى في بعض الإدارات والوزارات - كوزارتي التجارة الخارجية والشؤون الخارجية - وعندما جهزت تقارير اللجان المتعلقة بأوضاعها أُميط اللثام عن فضائح مثيرة تدعو إلى القرف، ليس أقلها علاقات القربى والصفقات...

إن وضع هذه الإدارات يثير العجب، وهو يعكس مجمل جوهر المجتمع الذي يتميز بازدواجية الأخلاق والنفاق العلني. فقد كانت هستيريا الكلام على فساد الرأسمالية وأمراض المجتمع الغربي الفظيعة وقدارة نمط حياته «هم»، تنفجر من كل منابرها صغيرها وكبيرها. وفي الوقت نفسه، كان الآباء الرؤساء المعيّنون وفق النومنكلاتورا يفعلون الممكن والمستحيل لإلحاق أبنائهم بالمعاهد التي تعدّ الدبلوماسيين كما يتم إرسالهم في بعثات إلى الخارج. كان بإمكانهم تدبيح أي كذب وتأليف أي خرافة في موضوعة «الاشتراكية المتطورة» وفي الغرب الذي يعيش آخر أيامه، لقاء السفر ولو بمهمة إلى الخارج لفترة شهر أو سنة لممارسة التعفن هناك! وفي الخارج سيكون ممكناً شراء آلات التسجيل بنقود المهمة، ليصار عند العودة إلى بيعها في مخازن القومسيون للحصول على كمية ضخمة من المال.

وهكذا، تصدينا لفرض النظام في هذه المنظمات التي ظلت سنوات طويلة مغلقة دون النقد. وكان الأمر سهلاً في ما يتعلّق بوزارة

الخارجية، إذ تولَّى الوزارة شيفارنادزه وسوَّى أمر أولئك الخبراء الكذبة التي غصَّت بهم مرجعية البلاد الرئيسية في السياسة الخارجية. أما في وزارة التجارة الخارجية وغيرها من الإدارات العامة فقد جرت تسوية الوضع ببطء وهدوء فخلعت القيادات الحزبية والإدارية واستبدلت بأخرى، فتحسَّنت الأوضاع فيها نوعاً ما.

كان دوام عملي مرهقاً وضاعطاً وأنا الذي أُنسم بالصبر: يبدأ يوم عملي في السابعة صباحاً حتى منتصف الليل أو بعده بساعة أو اثنتين. أما السبت فكان يوم عمل كاملاً. وفي الأحاد كنت أعكف على كتابة الخطابات والتقارير والردود على الرسائل، وأجول على المعارض الدائمة وقت الظهيرة.

وعندما أسمع من يقول إن القائد الذي يعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم يعتبر منظماً رديئاً لأنه لا يستطيع تنظيم نشاطاته، فإنني أعتبر هذه الأحاديث غير جدية البتة. وبالطبع، كان بإمكانني مثلاً العودة إلى البيت والعائلة بعد اجتماع للمكتب انتهى في الثامنة مساءً، فيُعتبر ذلك تنظيماً جيداً للعمل، أما إذا نزلت بعد العمل لأتجوَّل في المخازن بهدف معرفة أوضاع التموين ولأعرج على مصنع للقاء عماله ومحاورتهم ولأرى بنفسي كيف تنظم وريديات العمل الليلية لأعود إلى البيت عند منتصف الليل، فيعتبر هذا تنظيماً سيئاً للعمل. لا.. وهذا ما تفتَّقت عنه قريحة الكسالى لتبرير وضعهم الشخصي. في تلك الفترة لم يكن عندي وقت اسمه وقت فراغ.

أذكر أنني في إحدى الليالي، ولدى وصولي إلى البيت، فتح مرافقي باب الـ «زيل» فلم أقو على الخروج من السيارة، وظللت جالساً فيها نحو خمس أو عشر دقائق. كانت زوجتي تقف وراء زجاج نافذة الشقة وقد أخذ منها القلق مأخذاً وهي ترمقني بنظرات

متسائلة. لم يكن لدي قوة كافية كي ألوح لها بيدي من شدة الإرهاق.

وأنا، بالطبع، لم أطالب الآخرين ببذل عطاء كهذا في العمل، إلا أنني لم أكن أطبق هذه الأحاديث عن المسؤول الذي لا يعرف كيف ينظم نشاطاته..

وبغض النظر عما بدا أنه يحسن الأحوال، شعرت وكأننا بدأنا ندق رؤوسنا بالحائط. لن نتمكن بكلمات جديدة وجميلة عن الپريسترويكا هذه المرة أن نتذرع ونبرر. فالمطلوب استكمال التغيير بخطوات ملموسة كي نتقدم إلى الأمام، بيد أن غورباتشوف لم يرد أن يخطوها. وكان أكثر ما يخشاه التعرض للماكنة الحزبية - البيروقراطية، قدس أقداس نظامنا. وكان واضحاً أنني ابتعدت كثيراً في مداخلاتي أثناء لقاءاتي بالموسكوفيين، ومن الطبيعي أنه كان يتلقى تقارير دورية عما يصدر عني.. وساءت الأحوال.

وبالتدريج، أصبحت أستشعر التوتر الذي يسود اجتماعات المكتب السياسي ليس حيالي فحسب، بل حيال كل المسائل التي كنت أطرحها، وهكذا حل الشعور بالغربة. وتوتر الوضع أكثر إثر عدة صدمات جديدة مع ليغاتشيف في المكتب السياسي بصدد التسهيلات والامتيازات، وبلغ التوتر ذروته عندما عارضته بشأن قرار لمكافحة الإدمان على المسكرات، حيث طالب بإغلاق معمل البيرة في موسكو وتصفية كل مجموعات الاتجار بالمشروبات الروحية حتى النبيذ والبيرة.

وبصورة عامة كان من المذهل أن تتسم كل حملته ضد السكر والإدمان بالأمية والغباء. إذ لم يأخذ بعين الاعتبار لا الجانب الاقتصادي ولا الجانب الاجتماعي من المسألة، بل توغل في الأمر

بشكل عبثي وبلا معنى، مما جعل الأوضاع تسوء أكثر فأكثر مع مرور الأيام والأشهر. وقد تكلمت مراراً في هذا الشأن مع غورباتشوف، ولكنني لم أعِ تماماً ماذا كان يقصد باتخاذ موقف المترقب، مع أنه كان من الواضح أن التخلص من هذا الشر القديم قدم القرون لا يمكن أن يتم بمجرد قفزات فروسية. وبدأت التهجّات علي تشتد وتقسو. وبُسيطت لي الأمثال والإحصائيات من الجمهوريات: ها هي ذي أوكرانيا قد تقلص فيها بيع المشروبات الروحية بحدود ٤٦٪، فأردُ: انتظروا لنرى ماذا سيحدث هناك بعد ثلاثة أشهر. وبالفعل، لم يمض وقت قصير حتى أخذ المتعاطون في كل مكان يشربون كل ما هو سائل! وسرعان ما بدأوا أيضاً يشمون ما شئت من القذارات، وتعاطم عدد مقطري الفودكا البيتيّة، المكثفة، السيئة، كما ازداد عدد مدمني المخدرات.

إذن، لم ينقص استهلاك الخمر، ولكن المدخول الناتج من بيعها تحوّل إلى جيوب المقطّرين ومافيات السوق السوداء. وغت حوادث التسمّم بصورة كارثية، وكانت تنتهي غالباً بالموت. وفيما الوضع المتوتر يهيمن في الواقع كان ليغاتشيف يعلن بحماس عن النجاحات التي تحقّقت في مكافحة السكر والإدمان. وقتذاك كان يعتبر الرجل الثاني في الحزب الأمر النهائي يميناً وشمالاً، فكان من المستحيل إقناعه بشيء على الإطلاق. ولم أستطع والحالة هذه تقبّل عناده وسطحيته، إلا أنني لم أحصل على مساندة من أحد. وحانت لحظة التفكير في ما ينبغي عمله لاحقاً.

وفي كل الأحوال كنت ما أزال آمل بدعم غورباتشوف، وآمل أنه سيفهم عبثية سياسة أنصاف الحلول والمراوحة في المكان. فبدا لي أن براغماتيته وحده الطبعي، ببساطة، يكفيان ليدرك أن الألوان قد

حان لخوض المعركة ضد الجهاز، وأن استرضاء كلا الشعب ونافذي النومنكلاتورا لن ينجح، إلا إذا كان يمكن الجلوس على كرسيين في آن.

وطلبت موعداً لأثير حواراً حاداً. وتم لقاء استغرق ساعتين وثلث الساعة قلت فيها كل ما كان لدي من أفكار. أذكر أنني عندما خرجت من لقاءه كنت حائفاً جداً، وكانت وقائع الحوار ما تزال حية، فأسرعت أسجلها.

وبالنسبة لي كانت رنة الجرس الثالثة - كما يقال في المسرح - قد أظف موعدها أثناء إحدى جلسات المكتب السياسي حين نقوش مشروع التقرير الذي سيلقيه غورباتشوف بمناسبة الذكرى السبعين لثورة أكتوبر، وكان قد وزع علينا، نحن أعضاء اللجنة المركزية، قبل الاجتماع، فمُنحننا ثلاثة أيام لدراسته كما ينبغي.

كان النقاش مختصراً جداً وبالذور، فقد اعتبر الجميع أنه يجب الإدلاء ببيضع كلمات، فأجمعوا على بعض الملاحظات غير المبدئية. وعندما حان دوري حدّدت عشرين ملاحظة جدية تناولت الحزب والجهاز وتقويماً للماضي وتصورات لأفاق تطور البلاد وغيرها من المسائل المهمة.

وحدث غير المتوقع: لم يتحمّل غورباتشوف فقطع الاجتماع وانسحب من القاعة. فوجيء الجميع. ظل أعضاء المكتب السياسي والأمناء في أماكنهم صامتين لا يدرون ماذا يجب عمله. واستمر الوضع كذلك حوالى نصف ساعة. ثم عاد غورباتشوف وبدأ يوجه كلاماً إلى شخصياً عازفاً عن الرد على ملاحظاتي. . ويبدو أنه فجّر كل ما راكمه حيالي في الفترة الأخيرة، معتمداً لهجة تقرب من أن تكون هستيرية. وكانت تتنازعني في ذلك الوقت رغبة في الخروج من

القاعة حتى لا أصغي إلى ملاحظاته التي كانت أقرب ما تكون إلى الإهانات.

قال إن الوضع في موسكو من سيء إلى أسوأ وإن الجميع لديه انتقادات علي وإن لدي شخصية صعبة سماتها معقدة، وأنني دائم الانتقاد، حتى في المكتب السياسي أدلي بملاحظات ذات طابع معين. وقال إنه انكب على إعداد مشروع هذا التقرير وقتاً طويلاً، ومع علمي بذلك، فقد سمحت لنفسي بتقويمه على النحو الذي فعلت. تكلم طويلاً واستفاض، وأنا طبعاً لم أنتبه للوقت، ولكنه استغرق في الكلام على ما أعتقد حوالى أربعين دقيقة.

ودون أدنى ريب كان غورباتشوف في تلك اللحظات يكنّ لي الكراهية بكل بساطة: وأقول بكل إخلاص لم أكن لأتوقع كل ذلك. كنت أعلم أن كلماتي قد تستفزّه ولكن ليس بالشكل الذي به انفعل، كما لو أننا كنا في بازار، غير مدرك عملياً أي شيء مما قيل... وبالمناسبة، فيما بعد، تم تبديل أجزاء كثيرة من التقرير وأخذت بعض ملاحظاتي بعين الاعتبار أيضاً... وبالطبع لم يكن ما حدث كل شيء شيء.

جلس الآخرون صامتين يحسبون ويحلمون... ولم ينبر أحد منهم للدفاع عني أو للتعبير عن استهجانهم... كان الوضع صعباً. ولما انتهى نهضت وقلت: «إنني طبعاً سأفكر في بعض الملاحظات الموجهة إلي وفي ما إذا كانت منصفة أم لا. فإذا كانت منصفة فسأراعيها في سياق العمل، ولكنني أرفض معظم الاتهامات... إنني أرفضها لما فيها من تحامل وبسبب الشكل اللفظ الذي قيلت به».

وقد انتهى النقاش عند هذا الحد، وتفرق الجميع منكسبي

رؤوسهم . وقد اعترتهم الكآبة، وكنت في طليعتهم . وكانت هذه البداية بداية النهاية . بعد ذلك بات غورباتشوف لا يلحظ وجودي، بالرغم من أننا كنا نلتقي رسمياً مرتين على الأقل أسبوعياً: أيام الخميس في اجتماعات المكتب السياسي وفي غيرها من الاجتماعات واللقاءات . بل إنه لم يعد يمد يده ليسلم علي فيحييني بصمت وعن بعد، ولم نعد نتبادل الحديث .

وأحسست أنه قرر، آنذاك، قطع آخر خيط، وهكذا بدوت غريباً وسط فريقه المطيع .

يوميات الانتخابات

١٠ آذار (مارس) ١٩٨٩

لن أعتاد على ذلك. ففي كل مرة تنهمر على رأسي الافتراءات والاستفزازات المتلاحقة، أشعر بضيق وانزعاج رهيبين، وأعاني من جرائها، علماً بأنه آن الأوان لتقبل الأمور بهدوء ودون انفعال. ولكني لا أستطيع!

ومنذ وقت قصير اتصلوا بي من عدة مواقع منبئين عن إطلاق كراس من عشر صفحات مجهول المؤلف في منظمات المناطق الحزبية، يتناول طرائق التشهير بالمرشح يلتسين. وتمكّن أعواني من الحصول على نسخة منه وأكرهت نفسي على قراءته. . مرة أخرى انتفضت غضباً، لا الخشيتي من أن ينفض المقرعون من حولي، فالإنسان الطبيعي، المحترم، لن يتقبل على ما أعتقد افتراء وضعه مجهول، ولكن ما أذهلني تلك الدرجة من التشوّه الخلقي وانحطاط جهازنا الايديولوجي الذي يقوم بأكثر التصرفات وضاعة وإثارة للخجل.

ولم نستطع العثور على الجهة التي وضعت الكرّاس، بيد أنه صدر عن جهات عليا نظراً لكونه مرشداً للممارسات سريعة وناشطة. وهكذا، عمد أمناء منظمات المناطق الحزبية إلى جمع نشاط المؤسسات والمنظمات في قاعات منظماتهم وراحوا يقرأون على مسامعهم محتويات

هذا الكراس الهجائي . وأكاد لا أمسك نفسي عن إيراد مقتطفات
مثيرة منه :

«من مفارقاته أنه وفي الوقت الذي يبرز فيه نصيراً للطرائق
الضاغطة والسلطوية الهيمنية في عمله مع الكوادر، فهو يعتبر الدخول
في السوقيات الاجتماعي «ميموريال» أمراً عادياً. أليس عظيماً مدى
شمولية عواطفه السياسية؟ هكذا، إذن، في الـ «ميموريال» حيث
شكل مع سولجتسين فريقاً واحداً، ومع الـ «پاميات» التي هرع إلى
الالتقاء بها بعواطف مشوبة عام ١٩٨٧ . أليست هذه هي المرونة
التي تسيرها في الواقع اللامبدئية؟» .

«إنه يناضل بنشاط من أجل الترشيح في انتخابات مندوبي
الشعب، وهو في الواقع يكشف كل أوراقه» . .

«ما الذي يحركهم؟ أهـي مصالح الناس البسطاء؟ وإذا كان ذلك
صحيحاً فلماذا لا يدافعون عن هذه المصالح وهم راهنأ في مواقع
الوزراء؟ بل إن ما يحركهم فعلاً تلك الأنانية المتمكنة والطموحات
التي لم يستطيعوا التغلب على سلطانها، والقبض على زمام السلطة .
ولماذا يجب أن يتحوّل الناخبون بيادق بين يدي يلتسين؟» .

«يتكون انطباع أنه يسعى إلى النيابة عن الشعب لأنه يجد فيها
«سقفاً سياسياً» من السهل تحقيقه» .

«إنه ليس برجل سياسة ، بل هو محدود سياسي» .

كان من المفروض أن يتفرق الحزبيون بعد سماعهم قراءة هذه
الوثيقة ليثشا ما سمعوه بين قواعدهم ولفتح أعين الكادحين على
صورة يلتسين السيئة البغيضة .

ولكن الخطة أخفقت. ذهب الدعاة الإيديولوجيون بالطبع إلى القواعد الحاشدة، وهناك كان لهم استقبال!.. طبعاً كثيرون لم يحضروا هذه الاجتماعات، لا بل انبرى بعضهم يطالبون بوقف هذه الاستفزازات ضد المرشح يلتسين. وبصورة عامة نشأت ردود فعل متباينة، ولكن الجدير ذكره أن خطة الجهاز الاقتراعية لم تثمر إطلاقاً أي تأثير. وشكراً لصحيفة «موسكوفسكي نوفاستي» التي أحبطت هذا النشاط.

خلوت مرة إلى نفسي أحسب بهدوء كم من الممارسات المفتعلة ضدي الكبيرة منها والصغيرة - وكلها تهدف إلى الخزول دون انتخابي - فهالني عددها، حيث بدت كافية للتشويش على كل أعضاء مجلس السوفييات الأعلى. فمن الممارسات أيضاً منع الاجتماعات مع الكادحين في القاعات مما سبب توقفها، فضلاً عن تشويه السمعة ونشر الأكاذيب المطبوعة والخداع...

وبات الأمر محزناً عندما تولت القضية اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي. جرى ذلك في اجتماعها الكامل، الذي تضمن بالمناسبة انتخابات مخجلة لمرشحي الحزب كونه منظمة اجتماعية، فأخذت توصية خاصة تتعلق بي. ففي اليوم الثاني نشرت الصحف القرار القاضي بتشكيل لجنة برئاسة عضو المكتب السياسي ف.أ. ميدفيديف للتحقق في المداخلات والآراء الصادرة عني في اللقاءات مع الناخبين.

بدأ كل شيء عندما ألقى العامل تيخوميروف عضو اللجنة المركزية كلمة في الاجتماع، وهو نموذج العضو الطبع المطيع المنفذ المستعد. في الماضي القريب كان أمثاله من الأعضاء كثيراً، ذلك أن ما كانوا

ينطقون به اعتبر معبراً عن مواقف الطبقة العاملة، الأمر الذي يلقي ترحيب القيادة وتأييدها، فتعكسه قرارات مغامرة تصدر عن الحكومة، بدءاً باجتياح تشيكوسلوفاكيا وإبعاد سولجنيتسين والتشهير بساخاروف، وانتهاءً بإسداء المساعدة العسكرية العاصفة لأفغانستان. ولتحقيق هذه الأهداف كان دائماً يتوفر أشخاص مثل تيخوميروف جاهزون، ولقد صدق الكاتب دانييل غرانين حين أطلق عليه لقب: «تيخوميروف النومنكلاتورا».

ألقي صاحبنا بياناً جاء فيه إنه «لم نعد نستطيع السماح لأشخاص مثل يلتسين بالبقاء في عداد لجتتنا المركزية المتهاككة. فهو يخاطب أمام الناخبين مفترياً على الحزب ويسمح لنفسه بمهاجمة المكتب السياسي، وهو نفسه فضلاً عن ذلك بيروقراطي رغم أنه يشتم البيروقراطية في مداخلاته. ولقد حاولت أن أقصده شخصياً في مكتبه فجعلني أنتظر أربعين دقيقة، أنا عضو اللجنة المركزية».

كان ذلك كذباً عادياً. لقد أقي بالعفل وانتظر أيضاً أربعين دقيقة، ولكنه لم يطلب موعداً، وفي هذا الوقت كنت مجتمعاً باختصاصيين رؤاد في حقل البناء والإسكان. ولكن ما إن أعلمتني سكرتيري أن في غرفة الانتظار تيخوميروف، حتى طلبت من الرفاق المجتمعين الاستراحة قليلاً، وتبادلت الحديث معه بشأن مسألة تافهة. عندئذ تولدت لدي الشكوك: «لماذا ظهر الآن تيخوميروف؟...». وعندما ظهر على خشبة الاجتماع الكامل للجنة المركزية أصبح كل شيء واضحاً.

وقاطعته قائلاً إن ما يقوله غير صحيح وإنه افترأ. كان من المفترض أن يدين غورباتشوف الاستفزاز ضدي ويخفف من وقعه، إلا

أنه لم يتحرك، فبدا أنه انزلق نهائياً، لا بل بدا أن كل شيء محضّر سلفاً. وهكذا اقترح تشكيل اللجنة المذكورة.

وقد سببت الأخبار انفجار الناس أكثر فأكثر، إذ وردتني في الأيام التالية رسائل وبرقيات كثيرة من جميع أنحاء البلاد تستنكر إنشاء اللجنة. وبصراحة، فقد زاد قرار اجتماع المركزية رصيدي عند الجماهير ورفع من نسبة تأييدهم.

هل يعلم قادتنا الحزبيون أن الأشياء الضرورية والأكثر بدائية معدومة في البلاد: فلا غذاء ولا لباس ولا صابون؟ أم أنهم يعيشون وفق قوانين أخرى؟

في حقبة المكاشفة والglasnost بدا أنهم حكوا كل شيء، حتى أسرار السلطة السياسية «غير البعيدة في الزمن. ولكن لماذا يسود صمت مطبق عن قادة السلطة الحاليين؟

لماذا لا يعلم الناس شيئاً عن قادتهم ومدادخيلهم وأسلوب حياتهم؟ أم أن هذا سر لا تجوز معرفته؟

إحك لنا كيف كان شعورك عندما وجدت نفسك في «فردوس النومنكلاتورا»؟ وهل صحيح أن الشيوعية تسود فيه منذ زمن بعيد بثبات؟

(من الأسئلة التي وجهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية).

شاع كلام كثير حول انتخاب غورباتشوف أميناً عاماً للحزب في آذار (مارس) ١٩٨٥ في اجتماع اللجنة المركزية الكامل. ومن

التخريصات التي سمعناها أن أربعة من أعضاء المكتب السياسي حدّدوا مصير البلاد بدفعهم غورباتشوف إلى الأمام وانتخابه أميناً عاماً. وقد أعلن عن ذلك ليغاتشيف صراحة أثناء الكونغرس الحزبي التاسع عشر، فأهان برأيي غورباتشوف نفسه وكل من شارك في انتخابه. وبالطبع كان الصراع موجوداً فعلاً، إذ عثرنا - كما ذكرت آنفاً - على لائحة للمكتب السياسي الذي عمل غريشين على تأليفه عندما قرر أن يصبح زعيم الحزب. . كانت التركيبة المزمع إعلانها لا تضم إلا أزملة، وبالتالي فقد خلت من غورباتشوف وغيره.

وبالرغم من كل شيء فقد قرّرت اللجنة المركزية هذه المرة مصير الأمين العام. لقد أدرك كل المشاركين في دورة الاجتماعات، بمن فيهم أمناء المنظمات الإقليمية الناضجون المجربون، أن خوض التجربة مع غريشين يكاد يكون مستحيلاً. . بل إن نهاية البلاد والحزب مضمّنة فيها. ولو قدّر له أن يتولّى الأمانة العامة لتمكّن من إفراغ تنظيم الحزب على مستوى البلاد، كما سبق له وفعل في موسكو، في غضون فترة زمنية قصيرة. إذن، كان لا بد من الحؤول دون وصوله كما لم يكن من الجائز أن تُغفل صفاته الشخصية: من تيهه وخيالاته إلى زهوه وثقته العمياء بنفسه إلى إحساسه بتنزّهه عن الخطأ وهوس السلطة.

وأجمعت آراء فئة واسعة من الأمناء على دعم ترشيح غورباتشوف لمنصب الأمين العام من بين كل أعضاء المكتب السياسي. . فهو شخص يتميّز بالحسوية والذكاء وذو سن مناسبة تماماً، فقرّروا ترشيحه. وبدأوا يجولون على بعض أعضاء المكتب السياسي بمن فيهم ليغاتشيف. كان رأينا بشأن غورباتشوف متطابقاً مع رأيه لأنه كان يخاف من غريشين قدر خوفنا منه. وبعدها بات واضحاً أن هذا هو

رأي الأغلبية قرّرنا وقوف الموقف نفسه بوجه أي ترشيحات محتملة أخرى، سواء كان المرشح غريشين أو رومانوف أو غيرها.

ويبدو أن تداولاً جرى في المكتب السياسي، حيث كانت وجهة نظرنا الحازمة معروفة من أعضائه، فأيدّها أيضاً غروميكو. فهو الذي تكلم في اجتماع اللجنة المركزية الكامل وطرح غورباتشوف مرشحاً لمنصب الأمين العام. ولم يغامر غريشين وزمرته في اتخاذ خطوات مغايرة، وذلك أنهم أدركوا ضآلة حظهم بالفوز بل إن فرصهم كانت تساوي صفراً في الواقع، ولذا مرّ ترشيح غورباتشوف دون أي عقبات تذكر. كان ذلك في آذار (مارس).

وفي ٢٣ نيسان (إبريل) ١٩٨٥ بدأت دورة اجتماعات اللجنة المركزية المشهورة، حيث أعلن غورباتشوف مفاصل نهجه المستقبلي - نهج الپريسترويكا.

وثق الناس بغورباتشوف وآمنوا به سياسياً واقعياً وتقبلوا تفكيره السياسي الدولي الجديد. وقد فهم الجميع أنه لم يعد ثمة مجال للعمل والعيش كما عملنا وعشنا في السابق سنوات كثيرة. فالنمط القديم كان بمثابة نحر للبلاد. تحققت خطوة صحيحة رغم كونها طبعاً ثورة من فوق، ومثلها من الثورات ينقلب حتماً في نهاية الأمر ضد الجهاز إذا لم يكن ذا قدرة على الأمساك بالمبادرة الشعبية والسيطرة عليها في لحظة من لحظات الانعطاف. وها هو الجهاز بدأ يقاوم الپريسترويكا ويكبح جاحها ويصارعها حتى تمكّن منها ونجح عملياً في تجميدها. أضف إلى ذلك أن مفهوم الپريسترويكا نفسه لم يكن مشغولاً بعمق أو لم يخضع لتفكير عميق. وبدأ أنها مجرد مجموعة من الكلمات والشعارات والنداءات الرنانة إلى حد بعيد. ومع أن هذه الكلمات ليست جديدة على الإطلاق، إذ يمكن العثور عليها حتى عند كانط،

فهني معروفة منذ بضعة قرون . . .

فعندما قرأت كتاب غورباتشوف «البيروسترويكا والتفكير الجديد» كان يحدوني الأمل بإيجاد جواب على السؤال التالي: كيف يتصور المؤلف ستكون طريقنا مستقبلاً؟ ولا أدري لماذا لم يتكوّن لدي انطباع حول الكُلّية النظرية للكتاب. إذ ليس واضحاً مثلاً كيف يرى إلى إعادة بناء بيتنا، وطننا، وبأي المواد يزمع المباشرة بإعادة البناء ووفق أي تصاميم؟ إن مصيبة غورباتشوف تكمن في أنه لم يملك، ولا يملك، في هذا الصدد مخططات نظرية واستراتيجية معمّقة. ثمة فقط شعارات. ومن المثير للعجب أنه انقضى منذ إعلان البيروسترويكا في نيسان (إبريل) ١٩٨٥ أكثر من أربع سنوات، ومع ذلك ما زالوا يصفون المرحلة بأنها البداية أو المرحلة الأولى أو الخطوات الأولى. . أربع سنوات كاملة!

في الواقع إنها فترة طويلة. . فهي تشكّل في الولايات المتحدة عهداً رئاسياً ينبغي فيه على الرئيس أن يحقق كل ما بوسعه تحقيقه من الوعود التي قطعها عند انتخابه. فإذا لم تتقدم البلاد إلى الأمام لا يُعاد انتخابه. مثلاً، حدثت تغييرات إيجابية في مختلف القطاعات والمسائل إبان عهد ريغان، ولذا فقد أعيد انتخابه لولاية ثانية. فقد تبين أنه ليس بسيطاً كما تهيأ لنا أو كما صوّروه لنا. ومع ذلك بقيت أمراض عديدة لم يتمكن خلال ثماني سنوات من معالجتها، وبالمقابل كان واضحاً أن تقدماً كبيراً حصل، خصوصاً في الاقتصاد، إذ أمسى أكثر استقراراً.

أما عندنا فقد ازداد التوتر الوضع إلى درجة أصبحنا معها نخشى اليوم ممّا سيحمله الغد، وخصوصاً تلك الحالة الكارثية في الاقتصاد. وإن مصيبة غورباتشوف الكبرى تكمن في خوفه من اتخاذ القرارات

الحاسمة الفائقة الضرورة، وقد ظهرت هنا بأجلى مظاهرها.

ولكن، دعونا لا نستعجل الأمور. فبعد أن توليت منصب سكرتير اللجنة المركزية لأصبح إثر ذلك عضواً مرشحاً إلى المكتب السياسي، استغرقتني حياة جديدة تماماً، فشاركت في جميع جلسات المكتب السياسي وبعض جلسات الأمانة العامة. وكان المكتب السياسي ينعقد يوم الخميس في الحادية عشرة قبل الظهر ليتتهي في ساعات متأخرة من المساء.

لم تكن اجتماعات المكتب السياسي من هذه الناحية شبيهة بتلك التي ترأسها بريجنيف، عندما كانت تحضر مشاريع القرارات بسرعة لتقرر في غضون ١٥ - ٢٠ دقيقة. لا اعتراضات؟ إذن، لا اعتراضات، وينفض الاجتماع! في تلك الفترة كان بريجنيف مولعاً بالصيد فقط، هذه الهواية التي منحها كل وقته.

أما في عهد غورباتشوف فقد اختلفت الأمور كلياً. كانت الاجتماعات تبدأ عادة على النحو التالي: يجتمع أعضاء المكتب السياسي في إحدى القاعات، وأما الأعضاء المرشحون - وهم الفئة الثانية وفق التراتبية - وأمناء اللجنة المركزية - بوصفهم الفئة الثالثة - فيقفون بالصف في القاعة التي ستعقد فيها الجلسة، وذلك بانتظار ظهور الأمين العام يتبعه أعضاء المكتب السياسي بحسب رتبة كل منهم. وعادة كان ثاني السائرين وراء غورباتشوف غروميكو يليهما ليغاتشيف وريجكوف، والباقيون وفق أبجدية أسماء عائلاتهم. كان مرورهم أمام صفنا أشبه بمرور فريق لاعبي الهوكي، فيصافحنا كل منهم ليتجه إلى اقتعاد كرسيه المخصص له على جانبي الطاولة التي يجلس على رأسها الأمين العام.

ومن الملفت للنظر أننا على هذا الترتيب كنا نتناول الغداء أيضاً. وأتذكر هنا بالمناسبة عندما كنت أحوّل الغداء في الاستراحة بين جلستي مكتب الإقليم إلى تداول غير رسمي بمختلف المسائل المطروحة وتبادل للآراء. . وكان أمناء المكتب وأعضاؤه (وأحياناً المدعوون من رؤساء الأقسام) يحلون جملة مسائل خلال الثلاثين أو الأربعين دقيقة التي استغرقها الغداء.

أما هنا، في القمة، أو في ما يمكن تسميته بالأولپ الحزبي، فقد كان يُمارس الطقس بنوع من الدقة المتناهية.

ثم لا يلبث الأمين العام أن يفتح الجلسة بتلاوة جدول الأعمال، الذي لم يكن يسأل ما إذا كانت لدى أحد تعليقات عليه أو إضافات إليه. . ولا يرى مانعاً من البدء بمبادلة المجتمعين ذكريات ما عما كان شاهده في مكان ما أو في موسكو. وأذكر أنه خلال عامي الأول في أمانة منظمة موسكو لم أسمعته يتحدث على هذا النحو، أما في العام الثاني فحدث ولا حرج. . بدأت الملاحظات تكثر: ثمة شيء في موسكو ليس على ما يرام و. . . و. . . وكأنما كان يريد دَوْرَنِي عاطفياً ومن الداخل.

وما تلبث أن تبدأ مناقشة الوزراء الذين كان يتباحث غورباتشوف معهم دون مجالستهم. وكان يُستدعى وزير المستقبل إلى الاجتماع، يقف المرشح عادة خلف المنبر فتطرح عليه أسئلة عادة ما تكون ليست بذات أهمية، ولعل الهدف منها سماع صوته واستشفاف شخصيته والوقوف على آرائه في قضايا محدّدة. كان يستغرق إقرار ترشيح كل مرشح خمس أو سبع دقائق.

وكانت مناقشة أي مسألة تبدأ من تعرّف مبدئي على مواد جدول

أعمال جلسة المكتب السياسي، التي كانت توزع برأيي قبل وقت قصير، بحيث لم تتمكن من دراستها بصورة كافية، أحياناً كنا نعطي أسبوعاً، وفي الغالب يوماً أو يومين. كان من الضروري استعراض بعض المسائل مع خبراء يملكون الحلول. . ولكن الوقت قصير، إما لأنه لم يكن متوفراً وإما لأن هذا التصرف كان مقصوداً أو بسبب التنظيم غير الكافي. ولم يكن نادراً أن تبرز مسائل أمانة اللجنة المركزية على عجل فتعالج بانفعال وبلا تأهيل. كان ليغاتشيف خصوصاً يعشق هذه التعرجات عند ترؤسه اجتماعات الأمانة. وهو لم يكن الشخصية الثانية في قيادة الحزب من الناحية القانونية، أما من الناحية العملية فإن من يقود سكريتاريا اللجنة المركزية فلا بد أن يكونها.

كانت تنعقد اجتماعات سكريتاريا اللجنة المركزية كل ثلاثاء. وعملياً يمكن اعتبار فصل الهيئتين القياديتين المذكورتين (المكتب السياسي وأمانة اللجنة المركزية) فصلاً شرطياً. وفي أي حال كانت سكريتاريا اللجنة المركزية تلتزم دراسة المسائل الأقل أهمية، أما المسائل المهمة فكانت تعرض في اجتماع مشترك للهيئتين. ومع ذلك، وبغض النظر عن الديمقراطية الظاهرية كانت المناقشات جهازية، إذ كان الجهاز هو الذي يحضر المشاريع ليصار فيما بعد إلى إقرارها مسلوخة عن واقعها الحياتي ودون دراية بالأوضاع الملموسة. وثمة مسائل كانت تناقش بحضور بعض المدراء وخصوصاً أولئك الذين اشتركوا في إعداد المشاريع التي يقدمها الجهاز. وهكذا، يتبين أن الدائرة مقفلة. وبالطبع كنت أعرف ذلك جيداً كوني عملت نصف سنة رئيساً لقسم في اللجنة المركزية، أي إنني رأيت كيفية سير العمل من الداخل.

كلمة الافتتاح عادة كان يلقيها غورباتشوف مسهباً، ومستشهداً أحياناً ببعض الرسائل ليؤكد أفكاراً محدّدة. . كانت الرسائل طبعاً تُحضر له فيقرأها الواحدة تلو الأخرى. كل هذه البشائر والمقدمات حدّدت عادة النهايات التي ستنتهي إليها مشاريع القرارات والوثائق والبيانات المُعدّة من قبل الجهاز. إذن، ينجم في نهاية الأمر أن الجهاز هو الجهة الفعلية التي كانت تدير كل شيء، أما أعضاء المكتب السياسي فقد كان يشاركون في مناقشة المسائل شكلياً. وقد حاول ريجكوف في الفترة الأخيرة كسر هذه الممارسة وتجاوزها وذلك بعرضه المسائل المبحوثة على مجلس الوزراء وعلى الخبراء لمناقشتها بصورة أولية قبل عرضها على المكتب السياسي.

وبعد انتهاء الأمين العام من كلمته يعرب الأعضاء عن آرائهم باقتضاب شديد (من دقيقتين إلى خمس دقائق) مبينين جوهرها، وذلك بالدور من الشمال إلى اليمين، وتطن الكلمات: أجل - أجل، جيد، سيوثر، سيرفع المعنويات، سيوسّع، سيعمّق، الپيرسترويكا، إشاعة الديمقراطية، التسريع، الغلاسنوست، البديل، الخيار، . . . بدأوا يعتادون على الكلمات الجديدة ويردّدونها بحبور.

في البدء لم تكن ثرثرتنا الفارغة ملحوظة في الجلسات، ومع انقضاء الوقت أصبح واضحاً أن نشاطنا لا يتسم بأي فعالية أو تأثير كبير. وازداد خوف غورباتشوف أكثر فأكثر من نفسه ومن مداخلاته. كان يدور ويدور - وهو يحب ذلك ويتقنه - وتبين أن السلطة تبتلعه، فأخذ يفقد الإحساس بالواقعية ويعيش فيه الوهم بأن الپيرسترويكا تتطور وتتنوع وتعمّق فعلياً، وبأنها تتوغّل في المناطق ولدى الجماهير بسرعة. ولكن ذلك لم يكن واقع الحياة على الأرض.

ولا أذكر أن أحداً حاول - ولو مرة واحدة - أن يقول «لا» بما

يكفي من الحدة، ومع ذلك فقد أزعجت بعض الخواطر. بدايةً، كنت أصغي أكثر، وفيما بعد أصبحت أدلي برأيي بهدوء، خصوصاً إذا تمكنت من دراسة المشاريع المقدمة إلى المكتب السياسي، وفي مرحلة تالية رفعت صوقي أكثر. بعد ذلك بدأت أعترض بإصرار عندما كنت أرى أن مسألة ما تُحل بصورة خاطئة.

كان الجدل أساساً يدور بيني وبين ليغاتشيف وسولومينيتسيف، أما غورباتشوف فكان يتخذ موقفاً حيادياً، رغم أن موضوع الجدل قد يكون أحد تلك المواضيع التي نظر فيها هو مبدئياً. وهكذا، فقد فاض كيله وكان متوقفاً أن يسدد ضربته الحتمية.

وأود هنا التحدث قليلاً عن زملائي الذين عملت معهم في المكتب السياسي.

ولعله من المفيد أن أبدأ بالكلام على أ.أ. غروميكو، عضو المكتب السياسي، رئيس مجلس السوفيات الأعلى آنذاك. كان يضطلع بدور غريب: فهو كان موجوداً على نحو ما، بل وعمل على ما يبدو، وكان يلتقي بشخصيات ويلقي الكلمات، ولكن في الواقع بدا كما لو أنه لا حاجة إليه. فبوصفه رئيساً لهيئة رئاسة مجلس السوفيات الأعلى وطبقاً للبروتوكول فقد كان من المفروض أن يجري الاجتماعات والمحادثات الدولية ويستقبل الضيوف الرسميين، غير أن غورباتشوف هو الذي كان يقوم بكل ذلك، وأحياناً قاما به سوياً، وهكذا بدا وكأنه أتى من الحياة السياسية الفعلية ليتحوّل بكل بساطة إلى رمز، الأمر الذي لم يعه حتى النهاية. وكان غروميكو مُجَلَّ إلى الحاضر من ماض بعيد، بل بعيد جداً. وفي ظل هذه الظروف، كان من الطبيعي ألا يفهم جيداً وبقوة ما يجري حوله وعمّ يدور الحديث. وكان غالباً ما يتحدث في اجتماعات المكتب السياسي، وفي أي

موضوع .. وكان حديثه دائماً طويلاً، خصوصاً إذ تعلق الموضوع بشأن خارجي دولي، حيث كان يعتبر من الضروري جداً أن يتذكر السنوات الغابرة حين عمل في أميركا، وكيف كانت الأوضاع، وحين شغل منصب وزير الخارجية وكيف التقى ببعضهم - وهو أمر يجب أخذه بعين الاعتبار لأهميته وضرورة الاعتبار منه -، فضلاً عن تذكره جلسات الجمعية العامة لمنظمة الأمم المتحدة... إلخ.. كانت هذه ذكريات عجوز غير مثيرة للغضب، ولكن غير ملائمة من حيث توقيتها وغير ذات معنى، تمتد نصف ساعة، حتى أن غورباتشوف نفسه كان يعوزه الصبر للاستماع إليها.

كانت هذه السنوات الأخيرة التي يعيشها سياسي عتيق في عالم خاص معزول خلقه بنفسه. كانت ملاحظاته المفاجئة التي يدلي بها في اجتماعات المكتب السياسي من نوع: «هل تتصورون أيها الرفاق أنه في المدينة الفلانية لا يوجد لحم؟»، وكانت تحدث إنعاشاً وحيوية في الاجتماعات. أما كون اللحم غير موجود فهو واقع معروف منذ زمن بعيد، وكان الحاضرون يعرفون ذلك جيداً. كان دوام عمله حراً إلى أقصى الحدود. يصل إلى مكتبه في التاسعة أو الحادية عشرة ويغادره في السادسة، أما أيام السبت فلم يكن يعمل.. وباختصار لم يكن غروميكو يرهق نفسه، وهذا ما لم يكن مطلوباً منه أن يفعله، فمن الأهمية بمكان أن يضطلع بدوره المرسوم.. كان غير مزعج البتة.

وكان موقفه مني عادياً، بل إنه لم يتوقف عن مصافحتي ومبادلتي الحديث حتى بعد كلمتي في دورة اجتماعات اللجنة المركزية في تشرين أول (أكتوبر) ١٩٨٧، وكنت ما زلت بعد عضواً في المكتب السياسي.

أما رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي ن.إ. ريجكوف فكان

دائماً في الظل بغض النظر عن علو شأن منصبه. وإثر الكوارث المأساوية التي ألمت بأرمينيا، عندما اضطر في ظروف استثنائية أن يبرز بيديه أركان آلية الإغاثة الصدفئة والسهر ليالي طووالاً، عرف الشعب ولأول مرة أن ثمة رئيساً للوزراء يعمل من أجله. ومع ذلك فإنني أعتقد أن منصب رئيس مجلس الوزراء كان حملاً ثقيلاً عليه. . . وخصوصاً الآن عندما يتوجب إخراج البلاد من الفوضى الاقتصادية المستشرية. ومن الهاوية الساقطة فيها.

وفيما بعد، عندما توليت مهام وزير البناء، كان علي حضور جلسات مجلس الوزراء. وقد حضرت مرتين وخرجت باستنتاج أن امرءاً ذا تفكير حكيم وطبيعي لا يمكنه أن يواظب على تحمل هذه الفوضى الرهيبة. فذا وزير يشكو من وزير آخر ووزير ثالث من رابع. . . وهلمجراً، فضلاً عن «تدفيشهم» بعضهم بعضاً أمام الميكرفون الموضوع على المنبر وعدم تحضيرهم كلماتهم العملية، بحيث كان طبيعياً ألا يصدر أي قرار يُجمع عليه، كون الأمر فائق الصعوبة. أمل أن جلسات مجلس الوزراء الآن تجري في اتجاه مغاير لما عاينته. ومنذ ذلك الوقت قرّرت ألا أضيع الوقت فاستنكفت عن حضور جلسات المجلس. ولا بد أن أشير إلى أن الوزراء، مع ذلك، شكلوا المظهر الجدي لمجلس السوقيات الأعلى، فضلاً عن أن الوضع في البلاد لم يعد يحتمل إهدار الوقت لجمعجة غير مثمرة.

وكان يشغل منصب رئيس لجنة الرقابة الحزبية، عضو المكتب السياسي م. س. سولومينيتسيف. في الآونة الأخيرة تصرف كما لو أنه فقد الثقة بنفسه أو أن شيئاً توقع حدوثه. ونادراً ما كان يتكلم في الاجتماعات. والحقيقة أنه كان يوافق ليغاتشيف ويدعمه عندما كان يدور الكلام على مسائل معينة كمسألة مكافحة السكر والإدمان على

سبيل المثال . . كأنا وجد أحدهما الآخر . وعندما أحيل سولوميتسييف على التقاعد شعر ليغاتشييف بالغبرة لعدم وجود مؤيد آخر يعتمد عليه في المسألة المذكورة! وقد جمعنا الأقدار - سولوميتسييف وأنا - عندما كُلف برئاسة لجنة للتحقيق في أقوال صدرت عني ونشرتها الصحافة الغربية . ومن المفهوم أن الحوار سار في وجهة لم يكن سولوميتسييف يريد لها . ولم أعترف أو أعلن الندم ، لأنني اعتبرت نفسي محقاً على وجه الإطلاق ، كما أن أياً من آرائي أو أقوالي المتعلقة بانتقاد أعضاء المكتب السياسي أو تكتيك الپريسترويكا لم يتعارض لا مع الدستور ولا مع النظام الداخلي للحزب الشيوعي السوفياتي . كان سولوميتسييف أثناء الجلسة متوتراً وغير واثق من نفسه ، ويبدو أنه عانى في أوقات معينة من الشعور بالأسف والندم لأنه كلف بمهمة لم يستطع القيام بإنجازها . إنها لصورة محزنة فعلاً .

ونصل إلى تشيبريكوف . في البداية لم يتكلم رئيس الـ «كي . جي . بي» إلا فيما ندر ، . . كأن ينطق مثلاً حين تناقش مسألة عدد المواطنين الذين يجب السماح لهم بالسفر إلى خارج البلاد . ولم يمض وقت قصير حتى عين سكرتيراً للجنة المركزية فخرج من رئاسة أمن الدولة . كانت هذه الحركة الشطرنجية ملائمة لغورباتشوف حيث وُلِّي كروتشكوف المخلص والمطيع . وواقع الأمر أن الهيئات الأمنية وأمن الدولة ظلت كما في السابق تحت يدي رئيس الـ «كي . جي . بي» الأسبق الذي ما فتى يحتفظ بنفسية رجل الأمن ، فيرى في كل مكان مؤامرات الغرب وفي كل شخص مشبوهاً بالتجسس . . إلخ . فبالنسبة إليه كانت الغلاسنوست مثل سكين طعنت القلب أو كضربة وُجِّهت إلى جهاز أدنى وظيفته بامتياز فترة طويلة .

ولسوء حظ .إ. دولغيخ أن غريشين ضمَّنه لائحته من المقربين والمؤيدين وأزمع ضمه إلى المكتب السياسي الذي كان ينوي تأليفه مقترحاً تعيينه رئيساً لمجلس الوزراء. وبالطبع فإن كل من وقع ضمن فريق غريشين بات مجرداً من الثقة، وبالفعل طلب كثير منهم إعفاءهم من كراسيهم، ولكن دولغيخ استمر في عمله. . وأقول الحق إنه كان من أكفأ أمناء اللجنة المركزية من حيث المهنيَّة، وقد كان شاباً نسبياً، إذ لم يكن قد بلغ بعد الخمسين من عمره حينما أصبح سكرتيراً بعدما نُقل من مدينة كراسنويارسك. وقد اتسم بفكر منظم واتزان - إذ لم يصدر عنه أي قرار متعجل وغير مدروس - واستقلالية في حدود المعقول.

وعندما بُحث في المكتب السياسي أمر ترشيحي لمنصب سكرتير اللجنة المركزية عمد الجميع إلى التأييد (وقد جرى البحث في غيابي)، مدركين أنني مرشح غورباتشوف. وحده دولغيخ عبَّر عن وجهة نظره بالقول إن يلتسين انفعالي كثيراً في بعض الأحيان. وتم انتخابي سكرتيراً. فيما بعد، أعلمت طبعاً بكلمات دولغيخ، فاقتربت منه محاولاً بالطبع لا توضيح العلاقة، بل سماع رأيه مباشرة دون نقل عن آخرين، وكان من مقاصدي أيضاً التعرف على أخطائي، فأنا على أي حال بدأت عملي كسكرتير للتو. وبهدوء كرَّر أمامي ما صدر عنه في المكتب السياسي وقال إن قرار تعييني سكرتيراً قرار صحيح تماماً، ولكن علي كبح جماح عواطفه والإمساك بزمَام طبعي الانفعالي. وليس غريباً أن هذا المشهد غير المعتاد لم يبعدنا عن بعضنا، لا بل على العكس قرَّب بيننا، فظهر اتصال إنساني خاص وثقة متبادلة: وهما شيثان نادرا الوجود داخل مبنى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفيَّاتي.

وفي جلسات المكتب السياسي كنا نجلس جنباً إلى جنب ونتناقش بصراحة في مشكلات البلاد الناشئة وكيف يجري حلها بقرارات قافزة متسرّعة. ولم يكن يجب أن يوجه انتقادات في مداخلاته، بل كان يطرح اقتراحات شخصية، دقيقة، واضحة، معمّقة. وبرأيي كان وجوده في المكتب السياسي مفيداً، ولكن سرعان ما «أخرجوه» محالاً على التقاعد.

وأما أ.إ. لوكيانوف فقد ظل فترة طويلة الشخصية الأقل بروزاً في هذه الهيئة العليا للسلطة الحزبية. كان يشغل منصب النائب الأول لرئيس مجلس السوفيّات الأعلى في الاتحاد السوفيّاتي. وبعد نشوء أوضاع جديدة ناجمة عن انتخابات مؤتمر مندوبي الشعب ودورات اجتماعات مجلس السوفيّات الأعلى، تعاظم دوره فتكشف عن جملة مزايا بيروقراطية - حزبية لرجل الجهاز الأعلى، منها اللامرونة وانعدام كلا الحرية الداخلية وسعة الفكر. فهو عاجز عن إدارة الأوضاع غير القياسية أو غير الموصّفة التي غالباً ما تنشأ في سياق نشاط مجلس السوفيّات الأعلى، إذ يصاب بالرعب ويبدأ بالغضب حتى حدود الصراخ والضرب على الطاولة بقبضة يده. والآن فهذا المنصب يلائمه تماماً لأنه يوافق التركيبة القائمة، أما في وضع ناجم عن انتخابات حرة طبيعية (والتي أؤمن رغم كل شيء بحدوثها) فلن يكون بوسع الصمود في منصب كهذا مطلقاً.

ولنتحدث عن د.ت. يازوف. إنه مقاتل حقيقي ومندفع ومخلص. من الممكن اثباته على قيادة موقع جبهوي أو هيئة أركان ولكنه لم يكن مهياً لمنصب وزير الدفاع. فهو محدود لا يتحمل انتقاداً ولولا ضغوط غورباتشوف الفائقة على مندوبي الشعب لم يتم التصديق على تعيينه وزيراً. كيف يمكن أن نتوقع من نتاج الآلة العسكرية القديمة الخالص

مطلق تغييرات في الجيش أو مقارنة جديدة لحل مشكلات قدرة البلاد الدفاعية. . هذا ما لم يكن واضحاً بالنسبة إلي. جنرال، إنه جنرالنا مواطننا الرأني إلى سكان البلاد المدنيين وفي أعماق روحه يراوده حلم بجلب كل القادرين على حمل السلاح لتطويعهم عسكرياً إلى الأبد. إنني أبالغ بالطبع، ولكني أكن إعجاباً شخصياً للتقليد الأميركي في تعيين وزير الدفاع. . فهو لا يكون إلا مدنياً. وهذا صحيح بالطلق. فالعسكري المحترف يتصف عادة بدماغ تسيره موجة عسكرية، بحيث يجعله التهديد بالخطر غريب الأطوار فيعتريه باستمرار نزوع للقتال. . ولو قليلاً.

وإليكم شيربيتسكي السكرتير الأول للجنة المركزية للحزب الشيوعي في أوكرانيا. فواقع استمرار وجود هذا الشخص في تركيبة المكتب السياسي يعكس - وبأجلى صورة - اللازم وأنصاف الحلول التي ميّزت ممارسات غورباتشوف. وأنا واثق مائة بالمائة أنه عندما سيتسنى للقارئ مطالعة هذا الكتاب، سينزعون شربيتسكي من مكانه(*) . ولكنه الآن، في آب (أغسطس) ١٩٨٩، ما يزال مقتعداً كرسيه. فغورباتشوف يخشى إزاحته تماماً كما خشي سابقاً من حل المشكلة العالقة مع علييف، في وقت أصبح فيه واضحاً لدى الجميع إن إبقاء هذا الإنسان الملوث السمعة واليدين من جراء مصالحه الخاصة، الكبيرة والصغيرة، عضواً في المكتب السياسي لم يعد ممكناً البتة. وذهبت إلى لقاء غورباتشوف خصيصاً للتداول في هذا الأمر مصطحباً معي ملفاً يضم وثائق دامغة، استمر اللقاء ساعة حاولت

(*) هذا ما حدث فعلاً، فعندما حُضرت المخطوطة لطباعتها، كان ينعقد اجتماع اللجنة المركزية (أيلول - سبتمبر) الذي أحال شربيتسكي على التقاعد -
(المؤلف).

فيه إقناعه : «ميخائيل سيرغييفيتش، إنه لمن المخجل الجلوس معه، لا يجوز أن نعرض بالملتب السياسي على هذا النحو». ولكنه لم يصغ إلى آنذاك. صحيح أن علييف أحيل في نهاية المطاف على تقاعد شخصي مشرف، ولكن لماذا كان يجب تأجيل البت في هذه المشكلة الصارخة الحاملة حلها أصلاً منذ فترة طويلة؟!

أ.ن. ياكوفليف، سكرتير اللجنة المركزية، عضو المكتب السياسي. السياسي الأعمق رؤية والأذكى والأحكم. كنت دائماً أشعر بالرضا لدى سماعه يعبر عن ملاحظات وصياغات دقيقة متعلقة بالمسائل المطروحة في المكتب السياسي. كان بالطبع حذراً، إذ طالما حاول ألا يدوس طرفاً من أطراف ليغاتشيف كما فعلت أنا. ودون أي ريب كان الاثنان قطبين متناقضين تماماً. فتمودج الاشتراكية بالنسبة إلى ياكوفليف يختلف جذرياً عن تمودج ليغاتشيف الثكني - الكولخوزي. كانا مجبرين على التعايش وعلى التأكيد على وحدة المكتب السياسي إثر كل كلام يدلي به غورباتشوف.

ف.أ. ميدفيديف، سكرتير اللجنة المركزية، عضو المكتب السياسي. إثر المناقشات التي قام بها غورباتشوف وأسفرت عن تغيير موقعي الإيديولوجيين الرئيسيين ياكوفليف وليغاتشيف - الأول عُين مسؤولاً عن الشؤون الدولية والثاني عن الشؤون الزراعية - أصبح ميدفيديف إيديولوجي البلاد الرئيسي، وبصعوبة كبيرة تمكّن من القيام بموجبات منصبه الجديد، والأصح القول إنه لم يتمكّن من القيام بها بالمرّة. ولعل الفضائل الرئيسية التي دفعت بغورباتشوف ليوليه هذا المنصب تكمن في اثنتين: الطاعة وغياب الأفكار الجديدة. وما أثبتته الأيام أنه بصفات كهذه لا يمكن القيام بالواجب والمرحلة عاصفة محمومة. فلأجل الدفاع عن الجهاز البيروقراطي الحزبي

والإداري - الأوامري في عصر الپیرسترویکا والغلاسنوست لا بد من شخصية أخرى أكثر مرونة وذكاء وقادراً. أذكر عندما عملت سكرتيراً أول في سفیردلوفسك، التقى میدفیدیف بسكان المدينة فغادر المنبر بعد حوالی ثلاثین دقيقة قبل إنهائه كلمته یجرّ أذیال الخیة. فقد كان من غیر المحتمل ولا الممكن، حتى في تلك الآونة، الاستماع إليه وهو یطلق عباراته النمطة الجاهزة والبدايئة. فمن المفهوم الآن أنه یقود العمل الايديولوجي بجهوده ومقدراته المتواضعة، وليس عجیباً أن صحيفة «الپراڤدا» جريدة الحزب الرئيسية في البلاد وملاذ القوي المحافظة تخسر مشتركیها باطّراد. ومع ذلك، فما زال میدفیدیف جالساً في مكانه وسيظل كذلك إلى أن یقضي على الايديولوجيا قضاءً مبرماً.

لقد أعدت قراءة هذه الصفحات عن زملائي السابقين في المكتب السياسي فأحسست بالألم. . فهو غرفة عمليات الپیرسترویکا الرئيسية، ودفاع الحزب وقدرات البلاد الأملع.

وبالمناسبة، إلام أهداف؟ وماذا أريد؟ وهل كنت أتوقع غیر هذا من أولئك الذین في المكتب السياسي؟ فهم إما أشخاص وصلوا إلى مناصبهم بتسلّق سلّم اللجنة المركزية التراتبي درجة درجة (كلوکیانوف ومیدفیدیف ورازوموفسكي)، أو هم أشخاص «كانوا أمناء لمنظمات إقليمية أو مناطقیة (مثل غورباتشوف وليغاتشيف). ولن أنسى هنا الإشارة إلى یلتسين أيضاً الذي حقّق مستقبله المهني الحزبي في عصر الرکود البریجینی.

كنت أفهم تماماً لماذا كان كثير من الناس الشرفاء ینظرون إلى بعین الشک، حتى عندما وقعت ضحية النقمة. . فمن یكون یلتسين سوى موظف تجهازي حزبي وسكرتير أول سابق لمنظمة إقليمية. فلا یحوز الوصول إلى هذا المركز الرفیع، ومن ثم الانتقال إلى صفوف اللجنة

المركزية، مع بقاء المرء شريفاً وشجاعاً وحر التفكير. فلكي يحقق المرء هذه الإنجازات - وهذا رأي شعبي واسع - يجب أن يكون خبيثاً، متكيّفاً، دوغمائياً، يقول شيئاً ويفعل شيئاً آخر، ولا مجال هنا للتبرير، فإذا كان الوضع على هذا النحو ينبغي أن يُقَوِّم المرء بحسب عمله وموقعه الذي به يحوز ثقة الناس.

وأطرح أحياناً على نفسي سؤالاً: كيف حدث فأصبحت بينهم؟ لماذا توقف فجأة نظام انتقاء الأشخاص المحدّدين الطّيعين الخاصّين من أبنائه ليكونوا قادته، وهو الذي صمد سنوات كثيرة وقام بوظيفته الدقيقة على أكمل وجه؟ هاأنذا لم أطلق الوضع وشذذت عن القاعدة، وهذا لم يحدث أبداً على مدى عقود من السنين. يبدو أن آلية ما لم تدر عجلتها، أو كان ثمة صدأ تربّص في مكان ما منها. . .

فالعادة أن يجري بحث دقيق ودراسة مستفيضة لكل مرشح مقترح ليصبح عضواً في أمانة اللجنة المركزية أو في المكتب السياسي. فلا بد أن يكون كل شيء عنه معروفاً: كيف يفكر، ماذا يريد، وأن يكون خلواً من الألغاز من أي نوع. كانت سماتي الشخصية ومميزات طبعي واستقلالية أحكامي وآرائي معروفة من قبل غورباتشوف. ولربما كان يعتبر أنه من الضروري وجود شخص في المكتب السياسي يتصرف باستقلالية ويشاغب، وذلك في سياق تصوّره لقضايا الهيستريكا المستقبلية وتخطيطها. إلا أنه من المحتمل أن يكون غير رأيه بالتدرّج حيال هذه القضايا جراء انزلاقه أكثر فأكثر إلى عملية السلطة والعطش إلى الحكم، إذ كان يريد أن يحس هذه السلطة دائماً، بل وفي كل دقيقة. أصبح يريد أن تنفذ توجيهاته وحده لاعتقاده أن رأيه فقط هو الرأي الصحيح. وسرعان ما تعود على ذلك، بحيث لم يعد بحاجة إلى شخص قادر على خوض أي نقاش معه.

وأخذت نمط النعم الموافقة تبذل لغورباتشوف من قمة هرم السلطة الحزبية حتى قاعدته. وبشكل عام، يعتبر عمل جهاز اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي ظاهرة فريدة. فنحن عادة ننحي باللائمة على الوزارات كونها لا تنتج شيئاً وترزح مثل أنقال على كاهل المؤسسات التابعة لها. ولكن يمكن رغم ذلك تقويم نشاطاتها ولو بشكل غير مباشر عبر تقويم النجاحات المحققة في مختلف القطاعات. ولكن هاكم اللجنة المركزية... إنها لا تنتج شيئاً على وجه الإطلاق... لا شيء البتة غير الأوراق. فنجاح هذه الهيئة الحزبية الرفيعة يتحدد بهذه التلال من الأذونات والتقارير والردود والخطابات والتحليل ومشاريع الوثائق... التي لا يحتاج إليها أحد. فالجهاز في الوقت الراهن على مثال وصورة المكتب السياسي، فيما وضع اللجنة المركزية نفسها ليس أفضل ولا أسوأ منهما. فهي ليست موجودة كي تنكب على تحليل الأوضاع وصوغ استراتيجية الحزب وتكتيكه، بل إن دورهما يتجسد في دور الخادم الإيديولوجي للهيئة الحزبية الأعلى رتبة.

منذ عهد غير بعيد تكلم بريجنيف على الاشتراكية المتطورة، فبدأت تلك الآلة الضخمة تنتج «جبالاً» من الخرافات والأساطير عنها: انظروا كيف أصبحت الحياة جيدة في ظلها، وانظروا كيف تتطور وكيف ستتطور، وهاك نظريات عن مراحلها والطرق التي ستسلكها...

وكان لدى غورباتشوف تصوّر خاص به للبيروسترويكا، تصوّر أكثر حذراً مما عليه الآن، وما لبثت الآلة نفسها أن بدأت تُنشئ تفسيرات لمفهوم تطورنا المُحتسب... المتحفّظ. ومع مرور الوقت اضطر غورباتشوف إلى «الميل يساراً» حيث أكرهته الظروف والأوضاع، فراح

جهاز اللجنة المركزية الطائع يُنشئ تفسيرات أخرى لطريق التطور - مرة أخرى - الصحيح الوحيد، الذي صمّم مفاصله الأمين العام. كل شيء يوافق مبدأ: «تجدون عندنا ما تريدون».

ولعل الجميع يذكر تلك الحادثة المأساوية التي وقعت إثر وصول غورباتشوف لزيارة مصنع «فاز» للسيارات في تولياتي، عندما أعلن أنه ينبغي علينا أن نصبح «واضعي قوانين الموضة» في صناعة السيارات. فما كان من الصحافة والتلفزة - كعادتهما دائماً - إلا أن روجت لهذا الشعار الذي سيحقق إنجازات وانتصارات وآفاقاً جديدة. أما الخبراء فلم يعرفوا شيئاً وابتاتوا يدارون أعينهم من الخجل والامتناع. إن إعلاننا كهذا يعني عدم إدراك كلي في أي بلد نحن نعيش وفي أي وضع يجد نفسه. فالسيارة ليست مجرد حديد ومحرك، إنها سلسلة معقدة من حلقات متماسكة كالتصميم والهندسة والثقافة المنتجة، إنها طرق وخدمات... إلخ. وتكفي إزالة حلقة واحدة حتى ينفرط عقدها وينهار كل شيء... ولن تحصل لا على سيارة جيدة ولا على سيارة متوسطة الجودة... لا، سنصبح واضعي قوانين الموضة! والواقع أن غورباتشوف نفسه لم يفكر في هذا الموضوع... بل ثمة من همس في أذنه. وإذا كان صاحب الفكرة فيماكانه أن يفسر أو يصحح حتى لا يصاب بالخيبة. ولكن لا، فالمتبّع عندنا هو العكس، ذلك أن أي تحرّص سخيف يتحول بفضل الجهاز الإعلامي النشط إلى ذروة في الفكر الإنساني والألمعية والحكمة.

إن الجهاز ضروري بالطبع، على ألا يكون متضخماً. يجب أن يكون مُقلّصاً إلى أدنى حد، تعمل فيه أفضل أدمغة الحزب القادرة على تحليل الأوضاع وتوقّع منعطفات الأحداث الممكنة ورؤية طرق التطور اللاحق ومسالكة. وهذا بالتحديد أمر بالغ الأهمية نظراً

للدور الذي يضطلع به الحزب راهناً في حياة المجتمع.

ولكن، هاتوا وضعاً نزاعياً واحداً جرى التنبؤ به والاحتياط منه، هاتوا حدثاً متأزماً واحداً حُلَّ بشكل صحيح؟ هنا هي ذي قوانين المؤسسات الحكومية والتعاونية، ووناغورني كراباخ والبلطيق... إلخ.. فكل وضع محتم بلغ نقطة التأزم الحرجة، لم توضع له سوى حلول غير صحيحة - وكأن ذلك مقصود - مما جعل من تسويته بعد بضعة أشهر مسألة بالغة الصعوبة.

كم من الكلام سُفح عن كذب الدعاية البرجوازية في ما يتعلق بروتوكولات اتفاق مولوتوف - ريبنروب السرية؟! كم من المرات قال فيها الجهاز الدعائي إن كل ذلك ليس سوى تلفيق وتزوير؟!، علماً أن أي إنسان ذا عقل يعرف منذ زمن بعيد أن البروتوكولات المذكورة موجودة فعلاً ولا يجوز إنكار وجودها. ومر الزمن وكشف عن وجودها، فكمن من الاحترام والسمعة خسرنا جراء كذبنا وإنكارنا.

هكذا يمارس جهاز اللجنة المركزية وظيفته ناشراً التوجيهات وموزعاً الأوامر على البلاد أجمع. بيد أنني أكرر القول إنه لا علاقة للجهاز بكل ذلك، لأن قيادة الحزب العليا هي التي تريده على هذا النحو: جهازاً طيعاً طائعاً ملبياً. إن اللسان يعجز عن نطق هذه التركية من المفردات: لجنة مركزية للحزب الشيوعي السوفييتي بذاتها مستقلة وموجهة.

والطاعة والانصياع يكافآن بتسهيلات وامتيازات: مستشفيات خاصة، منتجات خاصة، مطاعم مميزة رائعة خاصة، ومكتب توصية على المأكولات والمواد الغذائية، نقل ومواصلات ممتازة خاصة. وكلما ارتقيت في سلم الخدمة كلما أمطرت عليك الخيرات والنعم، وبالطبع

يصبح الاستغناء عنها مؤلماً ومُغْضِباً.. كلما علوت كلما أُطِعت ونُقِّدت رغباتك. كل شيء مدرّوس بعمق. فرئيس القطاع مثلاً لا يحق له بسيارة ولكن له الحق في أن يحجزها لنفسه ولمساعديه. أما نائب رئيس القسم فقد منح سيارة «فولغا» خاصة به، ولرئيسه فولغا أخرى. وهكذا يصبح وضع الاتصالات والمواصلات الخاصة أفضل! أما إذا تمكّنت من القفز جيداً ووصلت إلى قمة هرم النومنكلاتورا الحزبية فسترى هناك، فوق، أن الشيوعية قد تحقّقت! وأن لا ضرورة للشورة العالمية ولإنتاجية العمل المرتفعة وللتناغم الكلي، إذ يمكن بناؤها في بلد على حدة من أجل أناس، أيضاً، مأخوذين على حدة!

وكلامي هذا على الشيوعية ليس فيه مبالغة.. ولنتذكر المبدأ الأساسي للمستقبل الشيوعي المشرق: «من كل بحسب قدرته، ولكل بحسب حاجاته». وفوق.. الوضع هكذا تماماً. أما القدرات فيا للأسف - وكما أسلفت - ليست كثيرة، وأما الحاجات فحدث ولا حرج!... إنها عظمة الحجم لدرجة أنه أمكن بناء الشيوعية لعشرين شخصاً فحسب.

والشيوعية تخلقها الإدارة التاسعة في الـ «كي. جي. بي».

إنها الإدارة الجبارة التي تستطيع أن تأتي بكل شيء. فحياة القائد الحزبي أمانة تسهر عليها عين لا تغفو ولا تطرف، رؤوم، حنون، تلبي كل الرغبات. بيت يحيط به سياج أخضر على ضفاف نهر موسكو، وسط مساحة شاسعة عبارة عن حديقة وملاعب رياضية، مع حراسة تغطي كل نافذة بجهاز إنذار. وأنا المرشح لعضوية المكتب السياسي كان عندي ثلاثة طبّاخين وثلاث خادّمات ومديرة منزل وبستاني. وقد اعتدنا أنا وزوجتي وباقي أفراد العائلة أن نقوم بخدمة

أنفسنا بأنفسنا، أما هنا فالاستقلالية بكل بساطة ممنوعة. . أمر عجيب، ولكن هذا الترف لم يخلق لنا جواً من الارتياح والحرية. فأي مرمز هذا الذي في بيت سكاني يمكن أن يشع دفئاً؟

أما أن تلتقي أحداً أو تنشئ علاقة ما معه، فهو أمر مستحيل. وإذا شئت ارتياد السينما أو المسرح أو المتحف أو أي مكان اجتماعي، فلا بد، أولاً، أن تتوجه فرقة كاملة من الكشافين الأمنيين للتنقيب والتفتيش. ثم بعدئذٍ يمكنك الظهور فيه. وفي هذا البيت المنعزل توجد صالة عرض سينمائية حيث يأتي الميكانيكي كل جمعة وسبت وأحد مصطحباً مجموعة أشرطة.

أما الطب فالأحدث بكل جوانبه. أجهزة كلها مستورد، عبارة عن آخر ما أنجزه العلم والتكنولوجيا. الغرف شقق كاملة واسعة حيث الرفاه والبذخ من كريستال إلى سجاد إلى ثريات. . . أما الأطباء فلا يتفرّدون مطلقاً في اتخاذ القرار، بل يعملون جماعاتٍ جماعاتٍ خوفاً من المسؤولية. قد يصل عدد الأطباء في المجموعة إلى عشرة من الاختصاصيين رفيعي المستوى. أما في سفيردلوؤسك فكانت تشرف علي طبيبة صحة عامة واحدة هي تامارا بافلوفا كروشنا. كانت تحفظني بامتياز، ولم تخطيء مرة في تشخيص أي حالة، كانت تتخذ وحدها دائماً قرار العلاج. . .

لطالما نظرت إلى هذه المجالس الاستشارية الطبية غير المسؤولة، التي كانت تعقد في الإدارة الرابعة، بمنتهى الحذر والريبة. ذلك أنني عندما صرت أتوجّه إلى مركز طبي عادي تابع لإحدى المناطق في موسكو، لم أعد أشعر - بوجه عام - بالصداع وتحسّنت صحتي. . حتى أنني لم أعد بحاجة للذهاب إلى الطبيب منذ أشهر. كان ذلك مجرد صدفة ولكنها تحمل دلالة ما. أما إذا كنت عضواً كاملاً في

المكتب السياسي فئمة طبيب خاص مفصول لخدمتك، يعاينك يومياً، ولكن انعدام الحرية المهنية الإنسانية يبدو كسيف ديموقليس مسلط فوق رأسه.

أما «حصّة الكرملين» الغذائية فتُقدّم بنصف ثمنها وتشتمل على أجود المنتجات المنتخبة. وأما عدد المستفيدين من هذه الحصّة - وهي متعددة الأنخاب والفئات - فيبلغ أربعين ألف شخص في موسكو. وثمة أقسام خاصة أو فروع «للغوم» (مخزن كبير، أو سوبر ماركت تملكه الدولة) مخصصة للنخبة الرفيعة. أما النخبة الأرفع فلها مخازنها الخاصة بحسب الرتبة. كل شيء خاص (special). خدمات خاصة، عيادات خاصة، مستشفيات خاصة، منازل خاصة، مجمعات سكنية خاصة، رعاية خاصة... أي كلمة هذه الـ «خاص»! أتذكرون مفهومي «التخصص» و«الأخصائي» ماذا يعنيان؟ والآن...؟ لـ «الخاص» الآن معنى خاص نفهمه جميعاً! إنه يعني منتجات ممتازة النوعية تصنع في أقسام خاصة من المعامل وتخضع لفحص طبي دقيق؛ والدواء مثال جيد... يوضّب أكثر من مرة ويراقب من أطباء يوقعون على أذونات إطلاقه... مثل هذا الدواء فقط يمكنك استعماله... وكم من «خاص» ينتج بكميات ضئيلة جداً و«خصيصاً» للذين فوق... في النظام!

وإليك العطل. اختر أين تريد أن تنتجع، في أي مكان من جنوب البلاد، وستحصل على منزل ريفي خاص... أما في الأوقات الأخرى فالمنازل هذه كانت تبقى فارغة من الساكنين... وثمة إمكانات أخرى للانتجاع، فعدا العطلّة الصيفية هناك العطلّة الشتوية ولهذا أمكنتها أيضاً... أسبوعان تقضيها في منشآت رياضية رائعة أيضاً للاستعمال الخاص... وهناك المسابح والسّونا...

أما الطيران فيخصص له طائرات خاصة . تقلع طائرة «إيل - ٦٢»
أو «تو - ١٣٤» وعلى متنها سكرتير اللجنة المركزية ، أو عضو مرشح
للمكتب السياسي أو عضو في المكتب السياسي . شخص واحد
يصحبه فريق الأمن والخدم!

والطريف في الأمر أن المرء هنا لا يملك شيئاً .. فكل شيء
جميل .. كل شيء أفضل ، ملك للنظام .. الذي هو يعطي ، وهو
الذي يأخذ . والفكرة من حيث الجوهر عبقرية .. يوجد شخص ما لا
فرق إن كان فلاناً أو علاناً ، لا يهم ، المهم أنه شخص يرتقي سلم
الخدمة ويتعاضد كل ما ارتقى . والنظام يؤمن له الامتيازات الخاصة ..
خاصة بكل درجة ، وكل درجة أعلى لها امتيازاتها الخاصة فيشعر
بسعادات الحياة الخاصة ومتعتها تنهمر عليه . وهكذا ، يدخل في روع
فلان أنه شخصية عظيمة . فقد نال ما يحلم الآخرون بنبيله .. بيد
أن فلاناً الغبي لا يفهم أنه ليس هو العظيم ، بل المكان الذي
يشغله . وإذا ما قصر فلان عن خدمة النظام ، إله النعم ، فتمة علان
سيظهر ليحل محله . لا شيء ملكك ، بل هو النظام الذي يملك . فقد
تفتق ذهن ستالين عن إبداع هذه الآلة التي اقتربت من حدود
الكمال ، حتى أن زوجات أقرب مقربيه وزملائه في السلطة لم يكن
ينتمين إلى أزواجهم .. ذلك أنهم انتمين إلى النظام . والنظام يستطيع
تفريق الزوج عن زوجته - كما حدث مع زوجتي كالينين ومولوتوف ،
اللذين لم يجروا أن ينبسا ببنت شفه - .

وقد تغيرت الأحوال بالطبع الآن ، ولكن الجوهر لم يتغير فبقي كما
كان عليه سابقاً . وعلى سبيل المثال يؤث المكان الذي يشغله
الشخص المهم بكل ما هو مطلوب ، لكن كل شيء مخنوم بطابع
الإدارة الرابعة ، بدءاً بالكُرسي وانتهاء بالدواء ، وهو ختم النظام ،

كي لا ينسى المرء المالك الحقيقي لهذه الخيرات .

سأتابع حديثي عن التسهيلات . تخصص لكل سكرتير في اللجنة المركزية ولكل عضو مرشح أو عضو في المكتب السياسي فرقة حراسة على رأسها رجل أمن ينظمها ويديرها . وكان ناظري الأمني شخصاً اسمه يوري فيدروفيتش، الذي تتلخص مهمته الرئيسية في تنظيم أي طلبات تصدر عن . . سيده، إذا جاز التعبير، أو وصيه .

فقد تحتاج إلى بذلة جديدة: وفي الوقت المحدد تماماً يدخل الخياط ويفرش بضاعته وقيس، وفي اليوم التالي يجري قياساً ثانياً، وهاك البذلة جاهزة بين يديك .

ولا بد من هدية تقدم إلى الزوجة في عيد ٨ آذار (يوم المرأة العالمي)، وهنا أيضاً لا مشكلة: يحضرون لك كاتالوغاً فيه الكثير الكثير من صور الهدايا التي ترضي كل الأذواق، حتى الذوق النسائي الصعب . . اخترا وبشكل عام، هناك نظرة احترام عميق حيال العائلات . أوصلوا زوجتي إلى العمل، ومنه، والأولاد إلى البيت الريفى ومنه، أليس لهذا الهدف خُصّصت سيارة «فولغا» مع السائق . أما سيارة «الزبل» فقد خُصّصت لرب العائلة .

والطريف في الأمر أن هذا النظام الوقح في جوهره يصبح وقحاً ومستتهتراً فجأة بحق أهل بيت المسؤول . فعندما كان الحراس ينفذون مهام تتعلق بالزوجة والأبناء، كان يطلب إليهم عدم تزويدي بالخضار والفواكه المجلوبة من السوق، إذ قد تكون هذه المنتجات مسمومة . وعندما سألت ابنتي مرة بخفر هل بإمكاننا أن نأكلها جاءها الجواب: أنتم تستطيعون، أما هو فلا . . أي يمكنكم أن تتسمّموا أما هو فقدسي . . .

والموسكوفيون، عادة، يتوقفون عندما تنهب سيارات «الزبل» الحكومية الطرقات بسرعتها الرهيبة. إلا أنهم لا يتوقفون بسبب احترام كبير يكنونه للجالسين في هذه السيارات، ولكن يحذوهم فضول المشاهدة التي تثير لديهم انطباعات معينة. إذ لا تكاد «الزبل» تخرج من أبواب المبنى حتى تكون نقاط شرطة السير قد جمّدت الحركة على الشارع الذي ستسلكه، ويضاء النور الأخضر عند كل التقاطعات فتسير دون توقّف. . شيء لطيف فعلاً. ويدّو أن القادة الحزبيين الرفيعين نسوا مفاهيم كالضوء الأحمر وشارات السير وغيرها. . .

وأعضاء المكتب السياسي تواكب سياراتهم سيارات «القولغا» الكشافة. فعندما تلقيت بعض التحذيرات والتهديدات خصصت لي أيضاً «قولغا» كشافة، فطالبت بردها فكان الجواب إن كل ما يتعلق بالإجراءات الأمنية ليس من شأني. وهكذا، فقد مرت فترة كان من المستحيل أن أغتال خلالها، إذ كانت الحراسة مشدّدة للغاية. ولحسن حظي أنهم رفعوا عني الحماية بعد وقت قصير.

كانت «الزبل» تحت تصرّف لي ليل نهار، فأينما كنت، لا بد أن توجد بالقرب مجهزة بكل وسائل الاتصال. فإذا أردت مثلاً تمضية الليل في البيت الريفي كان يقيم السائق في بيت خاص يمكنه تركه في أي لحظة فيكون تحت تصرّف لي.

أما عن البيت الريفي فالإيكم هذه الحكاية. قبل استخدامي إياه كان غورباتشوف يستخدمه، فتركه ليتقل إلى بيت آخر بني خصيصاً له.

في المرة الأولى، وعندما اقتربت من البيت، استقبلني رئيس

الحرس وأخذ يعرفني على الطباخين والخدم والحرس والبستاني. ثم بدأنا جولة في البيت والأنحاء الملحقة به. داخله لا يوصف. . في الصالون الواسع (مساحته خمسون متراً مربعاً) تنصدره مدفأة حجرية ويغطي أرضه المرمم والسجاجيد، وتتدلى من سقفه الثريات الفاخرة، وتنتشر في أرجائه قطع الأثاث الرائعة. . ودخلنا غرفة تلتها أخرى. . أربع غرف في كل منها تلفزيون ملوّن وأثاثها الملائم. . وهنا، في الطبقة الأولى شرفة واسعة وصالة عرض سينمائي وطاولة بليارد. . أما عدد الحمامات والمراحيض فقد اختلط علي، حتى أي لا أذكره. .

وعندما انتهت الجولة سألتني كبير الحرس بسعادة: «ما رأيكم؟»، صمت ولم أجب بشيء، أما عائتي فقد أصيبت بالوجوم والذهول.

هذا اللامعنى، الذي هيمن على كل شيء، كان قاتلاً. وإنني هنا لا أقصد العدالة الاجتماعية ولا انقسام المجتمع إلى طبقات ولا الاختلاف الكبير بين مستويات العيش، فكل ذلك مفهوم. ولكن لماذا الأمر على هذا النحو؟ لماذا يتم تحقيق حلم إشباع رغبات عظمة النومنكلاتورا الحزبية على هذا النحو العبثي؟ من يحتاج إلى كل هذه الغرف والحمامات والتلفزيونات مرة واحدة؟

ومن ذا الذي يدفع ثمن كل ذلك؟ هي الإدارة التاسعة في الـ «كي. جي. بي». ولكن من المثير أن نعرف وفق أي بنود تنفق هذه الأموال؟ هل هو بند مكافحة التجسس أم بند رشوة المواطنين الأجانب، أو بند التجسس الفضائي مثلاً وهو الأكثر رومانسية؟ . . .

ولقضاء العطلة فهناك مروحة وأسعة للاختيار: بيتسوندا، غاغاري، فالداي، وغيرها من المناطق الجميلة الرائعة. وكان كبير الحرس يُعطى - إذا لم أخطئ - حوالى أربعة آلاف روبل،

مصروف جيب كما يقال! أي أنه ليس مجبراً على إنفاق راتبه أثناء العمل. والأمر نفسه بالنسبة إلى العطل التي يقضيها المسؤول في بيوت الراحة صيفاً، فإذا أراد الذهاب إلى شاطئ البحر فلا بد أن يستقل السيارة إليها حتى ولو لم يبعد الشاطئ أكثر من مائتي متر. وكنت أفضل السير على الأقدام معتبراً ذلك رياضة أشعر بالحاجة إليها. وباختصار حاولت أن أنعش هذه الواحة الشيوعية المقطرة المصفأة بممارسات إنسانية عاصفة مليئة بالحركة. . ولا بد من الاعتراف، هنا، وبكل إخلاص أنني نجحت في ذلك، ولكن بصعوبة.

وأود هنا أن أعبر عن وجهة نظر نقاشية. فأنا أعتقد أن الپيرسترويكما لم تكن لتتوقف البتة - حتى ولو ارتكبت كل الأخطاء التي ارتكبتها في التكتيك - لو استطاع غورباتشوف مغالبة مغريات التسهيلات الخاصة الشخصية، لو أنه رفض كل تلك الامتيازات المعتادة والمتبعة، ولكن غير الضرورية. . لو أنه لم يعمد إلى بناء بيت في «لينينسكي غوري» وبيت ريفي في «بودموسكفوي» وترميم ثالث في «بيتسوندا»، ومن ثم بناء رابع جديد فائق الحداثة والتجهيزات في «فوروس». وفي نهاية الأمر يقف ليخطب في مؤتمر مندوبي الشعب بحماس ليقول إنه لا يملك أي بيت ريفي شخصي. . كم كان ذلك مرثياً، أو لم يدرك هو شخصياً خطل ما يقول؟ كان يمكن للأمور أن تتجه في مسار آخر تماماً لو لم يفقد الناس إيمانهم وثقتهم بالشعارات والدعوات المرفوعة. ومن دون الثقة لا يمكن تحقيق أي تغييرات مهما سمت وعلت. والناس يفقدون آخر قطرات الثقة عندما يرون أن المسؤول لا يغير الأوضاع بل يستفيد منها كما تستفيد كل الشريحة الحزبية العليا. . لماذا لم يستطع غورباتشوف أن يغير فعلاً؟ أعتقد أن

ذلك يعود إلى نوعيته الداخلية . فهو يجب أن يعيش مرتاحاً مرفهاً يلاً
الجمال أعطافه، وتساعده في ذلك عقيلته . فهي، بكل أسف، لا
تلاحظ كيف تنظر إليها ملايين النساء السوفياتيات بفضول الحائق،
أضيف إلى ذلك رغبته في أن تضطلع بدور ملحوظ في حياة البلاد
وعلى رؤوس الأشهاد . كان من الممكن أن يكون هذا التصرف عادياً
وطبيعياً في مجتمع شعبان وغني وراضٍ، أما في مجتمعنا فلا، على
الأقل ليس الآن . إن من أخطاء غورباتشوف أنه لا يشعر بردود فعل
الناس .

وأين يمكن له أن يحس بها إذا كان حبل الاتصال مع الشعب -
إليه ومنه - غير موجود أصلاً؟ فلقاءاته بالناس وأحاديثه معهم مجرد
مهرجان استعراضى، حيث تجتمع حفنة قليلة العدد من الكادحين،
محاطين بسلسلة من الحرس ورجال الأمن . . أما هؤلاء، الكادحون
الذين يمثلون الشعب، فقد أنتقوا انتقاءً أميناً موثقاً، وأقبلوا بباصات
خاصة . . . وبالتالي فإن الحديث الذي يجرى لا يعدو كونه
مونولوجاً . .

وماذا عن «الزبل» لزوجته؟ ثم ماذا عن مبادرته الرامية إلى رفع
رواتب أعضاء المكتب السياسي؟ فلا بد أن الناس ستعرف لاحقاً كل
هذه الأمور بطريقة ما، إذ لا يمكن إخفاؤها . إن ابنتي تُعطى كل شهر،
في العمل، قطعة من الزبدة بالكاد تكفيها . وعندما تضطر زوجتي
للذهاب إلى المخزن مرة أو مرتين أو ثلاثاً فلا تستطيع شراء الضروري
من المنتجات لتكفي البيت، فلننا وبرغم هدوئها واتزانها تنزعج وتتوتر
أعصابها .

وبالطبع لن تفر قيادة النومنكلاتورا من الحساب، سيكون عليها أن
ترد كل البيوت الريفية الانتجاعية والوقوف أمام الناس بسبب تشبهها

بالخيرات والامتيازات بأيديها وأرجلها وأسنانها. وقد بدأ بعضهم الآن يسدّد فواتير العظمة النومنكلاتورية عن طريق إخفاق مرشحهم الحزبين وموظفيهم في السوفياتات في الانتخابات. . إنه الجرس يُقرع أول مرة. فهم مجبرون الآن على تقديم التنازلات بتلبيتهم مطالب الكادحين، بيد أنهم لا يبدون مستعدين للاستنكاف عن التمتع بالامتيازات. .

منذ وقت قريب أعلن ريجكوف أن توزيع الحصص الغذائية سيتوقف، وأن المخزن المخصص لها في شارع غازنوفسكي قد أُقفل. وقد أُقفل المخزن فعلاً، ولكن الحصص ما زالت توزع كما في السابق، بعد أن زوّدت بها أقسام الحجوزات والتوصيات! وبقي كل شيء على قدمه. يحمل سائقو السيارات السوداء ما لذ وطاب من الحصص إلى رؤسائهم. من هم هؤلاء السائقون؟ إنهم سائقو القادة الحزبيين وقادة السوفياتات والوزراء والأكاديميين ورؤساء تحرير الصحف والمجلات وغيرهم من مسؤولي النظام.

إنني أكتب هذه الأسطر ولا أعلم شيئاً عن النتائج التي توصّلت إليها تحقيقات اللجنة المكلفة بقضية الامتيازات والتسهيلات. ولست أدري ماذا سيقدر مؤتمر مندوبي الشعب الثاني لدى بحثه هذه المسائل. ولكن أقول إن شيئاً لا يمكن أن يتفوق على هذه الصفاقة. وكلّي أمل أن نتمكن من الخروج إلى الأبد من مجتمع توزيع الخيرات وفق النومنكلاتورا المميزة إلى مجتمع حضاري، حيث يعتبر الروبل المقياس الوحيد للقيم المادية والثروات. . . الروبل المحصّل بالجهد والعمل. . . أمني بذلك كبير جداً.

وعندما يُشيع من ورائي أنني رفضت كل الامتيازات - حصص، بيت ريفي، طب خاص، . . . إلخ - سعيّاً وراء الشعبية والمداعة

مشاعر الناس العطشة إلى المساواتية والمطالبة بأن يعيش الجميع بالمستوى السيء نفسه، فإنني لا أغضب ولا ألقى بالاً إلى مثل هذا الكلام، وإنه لمن الواضح بالنسبة إلي عمن يصدر ولماذا. ولكن، هناك أناساً آخرين، بل من نوعية أخرى - كأصدقائي وحلفائي وأولئك الذين يكون لي العطف والتأييد - يسألونني أحياناً - وخصوصاً عندما ينشأ وضع خاص ملموس -: لماذا احتجت إلى رفض تقديمت الإدارة الرابعة؟ فمن أين لك الآن تدبر الدواء (وفي هذه الحالة كنت مصاباً بنزلة برد)، فلا شيء البتة: لا مضادات حيوية ولا أسبرو ولا قيتامين «C»!؟.

ولايكم هذه الحالة الطازجة. الوقت صيفاً والدورة منعقدة وأنا منكب على كتابة هذا الكتاب استرق الوقت إما ليلاً أو إثر العودة من الاجتماعات أو أيام الأحاد. . وبكلمة، لم يكن عندي وقت كاف للقيام بعمل طبيعى عادي ومتكامل. وفي آب (أغسطس) ذهب النواب في إجازة فقررت التفرغ للعمل في الكتاب. طبيعى أنه لا يمكن العمل في المكتب، حيث توجد مليون مشكلة، وكذلك في البيت حيث لا ينقطع رنين الهاتف، فقررت استئجار بيت ريفي في «بودموسكفوي» غير بعيد كثيراً عن العاصمة، حيث لا يعثر علي أحد. ويتضح أن إيجاد بيت في آب مستحيل، فالبيوت الريفية تؤجر في أوائل فصل الربيع. وأبدأ حملة تفتيش عن كوخ صغير - وليس بيتاً - يمكنني فيه الانعزال تفرغاً للكتابة، فالعطلة قصيرة وكل ساعة لا تقدر بثمن. وأتذكر سمعت التانيب نفسه. . هاك عدالتك الاجتماعية تشملك، لم يكن من الجائز رفض التقديمت. . . أين ستعمل على الكتاب الآن. . . كان يجب أن تنجزه أولاً، وبعدئذ أرفض ما شئت من التقديمت. . . وفي نهاية المطاف عثرتنا على كوخ صغير، ولعل ميزته الأولى أنه بعيد جداً عن موسكو. .

حوالى مائتي كيلومتر. . وكانت الطبيعة حوله رائعة، فكالعادة هناك طيور وغابة وفطر. . أما ما يتعلق بقضاء بعض الحاجات ففي الخارج، وهكذا، في ظل ظروف هذه الطبيعة الحية ولد هذا الكتاب.

ويبدو أنني استطردت كثيراً، فلنعد إلى الحديث عن الامتيازات. وبالطبع فإن أي إنسان يجب تناول طعام لذيذ وصحي، والذهاب إلى أطباء جيدين يعتنون به ويولونه الاهتمام، وقضاء عطلة الصيف على پلاجات جميلة. . إلخ. فمن الطبيعي حين أستغي عن كل التسهيلات أن تصطدم عائلتي بجملة من المشكلات تماماً كتلك المشكلات التي تنغص حياة ملايين العائلات السوفييتية.

وبصورة عامة، من المؤكد أنني أرغب كثيراً في أن أعيش كما يعيش كل العالم المتحضر، ولذا فإنني لا أفهم غورباتشوف - وقد قلت هذا منذ قليل - حين أعلن أمام مؤتمر مندوبي الشعب أنه لا يملك بيته الريفي الخاص. هل هذا مدعاة للفخر أو للسعادة. بل سيء جداً ألا يكون لدى المرء بيته الخاص. . يجب أن يكون لدى الأمين العام بيت ريفي خاص يُبنى بمال مقبوض لقاء العمل، كما هو وضع العامل والكاتب والمهندس والمعلم. . . ولكن يبدو أن بيتاً ريفياً مخصصاً من قبل الدولة له أفضل بالنسبة إليه.

وبما أننا ما نزال نعيش حالة فقر بائسة، فأنا لا أستطيع أن أكل الكافيار الأسود ولا أن أركب السيارة الفخمة التي لا تعرف الإشارات الضوئية، ولا أن أبتلع حبوب الدواء المستوردة من الخارج، فيما جارني لا تعثر على حبة أسبيرين لطفلهما.

إن هذا نجيل.

وفي هذا الصدد تبرز أفكار عن بلادنا والطريق المختار لها، وأسباب مستوى المعيشة المتدني، والنقص الدائم في كل شيء، والعامل الروحي - الثقافي - الأخلاقي، والمستقبل.

وهناك أناس كثيرون يقلقهم السؤال التالي: إلى أين نحن سائرون؟ هل نحن نبنى لأنفسنا بيتاً متواضعاً نعيش فيه ولو بصورة مجازية؟ إن مجتمعنا اليوم يحاول أن يهز التصورات القديمة بكل ما أوتي من قوة للعثور على الطريق الصحيح الوحيد. لقد انحرفنا وضعنا وارتركبنا أخطاء كثيرة. . وعند كل منعطف أو مفرق يتصدى لنا الكذب والتزوير والتلفيق والجمود الفكري. . فعلينا، إذن، جميعاً أن نعمل جاهدين كي لا نعود فنقع في مهاوي الماضي.

وأذا صدقنا الكتب المدرسية فإننا أنجزنا بناء الاشتراكية منذ زمن بعيد، ثم أكملنا - لسبب ما - بناءها وفي النهاية بنيناها «نهائياً بصورة لا عودة عنها». وما لبث أن تبين للإيديولوجيين أن هذا غير كاف فاعلنوا بمساعدة من ل. إ. بريجنيف مقولة «الاشتراكية المتطورة». وما هم الآن يكادون يكسرون رؤسهم تفكيراً: أي اسم سنطلق على المرحلة التالية؟.. فثمة ضرورة أن يكون هناك صيغة معينة. . لا نستطيع إكمال وجودنا دونها. ويوجد لدينا - وفق حسابات نظريتنا إذا لم أخطئ - ستة وعشرون تحديداً لنمط أو أسلوب الحياة السوفياتي، ومن البديهي أن يكون لدينا مثلها في وقت قريب من أنواع الاشتراكية.

وإذا شئنا أن نقارن نظرية الاشتراكية وممارستها، دون أحكام مسبقة، يتبين لنا بوضوح أن من أجزائها المكونة الكلاسيكية الثلاثة لم يتحقق في الواقع سوى واحد هو: الملكية الاجتماعية، التي نُفِذت بدورها على نحو قسري. أما عناصر الاشتراكية الأخرى فهي إما غير

موجودة في الواقع أو إنها شُوّهت إلى درجة لم يعد معها ممكناً التعرف إليها.

وحتى يمكننا أن نتصور إلى أين نحن ذاهبون فمن المهم جداً أن نعرف من أين نحن قادمون؟ في العشرينات «اجتث» ستالين طريق الديمقراطية من جذوره وأخذ يغرس اشتراكية الدولة الهيمنية - السلطوية والبيروقراطية - الإدارية. وخنقت الديمقراطية وهي بعد جنين، ولم يستطع أن يخلق في مجتمع مكتوم أي شيء غير طرح نفسه على الجميع. فالناس المكتومون (أي غير المتصارحين المتكاشفين) لن يتمكنوا من التوافق بعضهم مع بعض مطلقاً. فقد مورست ضغوطات مرعبة وانعدم خلال ذلك الحوار السياسي - الاجتماعي بين الحزب وبين الشعب. وبدأ غرس الإملاء والرعب السياسيين.

أما طريق إشاعة الديمقراطية في المجتمع فقد بشرُ بأفاق واعدة تسود فيه المصلحة الشخصية. . الاهتمام الشخصي، إضافة إلى حساب اقتصادي حقيقي وليس شكلياً أو استعراضياً. ولكن ذلك لم يحدث للأسف، فالسياسة الاقتصادية التي انتهجت بنيت على أساس «المصلحة الاجتماعية» فحسب. وتحت سقفها مُرّرت - ونفّذت - كل الطرائق الاقتصادية غير الصالحة، التي وإن خدمت أحداً فلم تخدم إلا المصالح الشخصية لحفنة من البيروقراطيين تحت ستار المصلحة الاجتماعية العامة. . وظل العمال والفلاحون بمنأى عن أي منافع تذكر ولم تُلبّ مصالحهم.

وفي هذه الأيام يكثر من الكتابة عن تجديد اشتراكتنا، غير أن هذا ليس دفاع سيء عنها إذا أردنا استعمال مفردات لجنة بقصد الوصف، ذلك أن بوسع المرء تجديد ما هو موجود في الزمان والمكان. وبالطبع، يمكن على سبيل المثال تجديد بيت مبني، قائم، كيفما أريد،

إن لجهة توسيعه أو إلحاق المزيد من البناء به أو إعادة تصميمه . . . ولكن ماذا لو كان غير موجود؟ رأيي هو التالي: إننا بدأنا بناء الاشتراكية لتوَّنا. نحن بحاجة إلى نظرية مخلص، شريفة، علمية حقاً يمكنها أن تستفيد من تجربة عمرها سبعة عقود من وجودنا فتأخذها بعين الاعتبار.

لن نخفي التصورات الدوغائية عن الاشتراكية بلحظة واحدة، بل ستظل نحاول الإفادة من قوة الاستمرار المستمدة من السنوات الخالية، وذلك لفترة طويلة من الزمن. وإن أُطلقت دور عوامل التطور الاقتصادية (بإهمال العوامل السياسية - الاجتماعية) زمناً طويلاً قد انعكس حتى على استراتيجية البيريسترويك العامة. والإصلاح الاقتصادي لم يتعزز بإعادة بناء متزامنة للبنية السياسية، (وكان من الأفضل أن تتقدمه).

وكان، أيضاً، من المفترض أن تبدأ البيريسترويك من الحزب، وذلك بإعادة بناء جهازه. كان من الضروري بمكان أن يتم تحديد موقع الحزب في المجتمع بكل دقة، فماذا كانت النتيجة؟ تبين أننا كنا نعيد بناء الاقتصاد، في مرحلة معينة، ونحن أسرى الأفكار الجامدة والتقاليد البالية الآتية إلينا من الماضي. . من تصورات ومفاهيم ميتة دون أن نكون مزودين بجملة قوانين عن الملكية والأرض والتعاونيات والإجارة والنظام الضريبي ونظام أسعار جديد.

واليوم في سياق سعينا لإحداث إصلاح سياسي مسرَّع نحاول التعويض عمَّا فاتنا. وأستطيع القول إن الإنجازات الضئيلة المحققة في هذا المجال أدت إلى تسييس ملحوظ في الوعي الاجتماعي. . وأصبح الشعب يندمج في السياسة بنشاط.

هذا، وقد وسَّعت السياسة الشعبية - التي بدأت من الدبلوماسية الشعبية - ترسانة وسائلها وأشكالها وطرائقها. وامتلات الحياة الاجتماعية تماماً بالإضرابات وبلغائها التي تشكَّلت. وتتطور الصحافة الشعبية على هيئة منظمات أهلية غير رسمية وصناديق ومجموعات مبادرة، إلخ. . وفي بعض الجمهوريات والمناطق نشأت جهات شعبية تمارس نشاطها الفعَّال فيعتبرها بعضهم أحزاباً سياسية جديدة في المجتمع. وأنا مع نشوء هذه الجهات شرط ألا تتناقض برامجها وممارساتها مع القيم الإنسانية العامة. ففي البلطيق طرحت الجهات الشعبية مسائل لم يسهم الحزب في حلها، عنت المشكلات القومية.

لقد هزَّت البيروسترويكاس الناس وأيقظت فيهم طاقة بناء ودعتهم إلى الإبداع الاجتماعي. ومن المهم أن تحتل هذه الأشكال المستجدة من السياسة الشعبية مكاناً جديراً في المجتمع، إذ يجب أن تعزز تضامن كل من أقلقه، ويقلقه، مصير البلاد، وكل من يسعى طامحاً إلى بناء ديمقراطي حقيقي. وإن إبعاد أصحاب الأفكار المغايرة من النضال من أجل البيروسترويكاس يضعف أشكال الحركة الشعبية. فلا بد، إذن، من تشجيع تخالف الأفكار، خصوصاً في الأوضاع الحرجة، نشداناً لاستمرار الحركة، ذلك أن وحدة الرأي الإرادية لن تفضي بنا إلا إلى الركود. . فكل كلمة جديدة، وكل فكرة جديدة تعتبران أثمن من الذهب. وعموماً، هل يمكن أن ننكر على الإنسان حقه في التعبير عن أفكاره؟!

يوميات الانتخاب

١٣ آذار (مارس) ١٩٨٩

بدأت المناظرة التلفزيونية للتو. ها إننا نتعلم من البلدان المتحضرة تقاليد الانتخابات المعاصرة، فَسَرْتُ لدينا طرفة اسمها المناظرات التلفزيونية.

ليس الأمر سهلاً. فالكاميرات تتفحصك وتجبرك على التصرف بشكل غير طبيعي بالكامل، فضلاً عن أن البث مباشر على الهواء.

وأضافة إلى كل ذلك، كانت هذه مقابلي الأولى بعد إقصائي من منصب سكرتير أول منظمة موسكو الحزبية، الأمر الذي كان يشكل حملاً ثقيلاً على كاهلي. وددت أن يشاهدني الناس بمظهر طبيعي عادي. وبصورة عامة تمكنت من تجاوز كل المحن التي ابتليت بها في السنة ونصف السنة الأخيرة.

وإذا أراد المرء أن ينظر بعين الجدية إلى الانتخابات فلا بد أن يتعلم كيفية الظهور على شاشة التلفزيون في مناظرة مباشرة.

واللقاء التلفزيوني عبارة عن شكل خاص لإقامة الصلات مع الناخبين، وهو لا يشبه اللقاءات التقليدية معهم في شيء. فهناك حياة، هناك تنفس الصالة وردّات الفعل على كل كلمة. . وأنت تشعر

بكل ذلك، إذ تنتقل طاقة الناس إليك، ومنك تنتقل طاقتك إليهم.. أما في التلفزيون فترمقك عين الكاميرا الباردة فلا يحترقها سواك والضوء، فتجد نفسك، بالتالي، مضطراً إلى تحيّل أناس حقيقيين (مثل كل ذلك)، يجلسون في بيوتهم على الأرائك ويشربون الشاي منهم من يصغي باهتمام ومنهم من لا يسمعك إلا بأذن واحدة.

لا علينا، فهذا ليس إلا من قبيل التنظير. أما في الواقع فالإيكم ما حدث. وصلنا إلى «أوستانكينو» (مبنى التلفزيون) قبل بدء البرنامج بحوالي نصف ساعة. فجلسنا نتحدث مع مقدم البرنامج عن كيفية تقديمه، وتكلم قليلاً وباختصار على الاتصالات الهاتفية التي تتم بالاستوديو. وبحسب شروط المناظرة التلفزيونية ينبغي على كل مرشح أن يرد على بعض أسئلة الموسكوفيين، التي يختارها مقدم البرنامج.

وبدأ البث المباشر على الهواء. تقدم المرشح يو. براكوف ببرنامجه الانتخابي، ثم أعطته بدوري عشر دقائق. وأكرر القول: كبحت جراح نفسي وتكلمت، شاعراً بأنني مقيد على غير ما اعتدت الكلام، ورغم ذلك فقد تقدّمت ببرنامجي الانتخابي كله.

طبعاً ليس مريحاً أن ترتاب بشخص ما لأمر ما، ولكن انتقاء الأسئلة - وأقولها بصراحة - أذهلني. فقد طرحت على براكوف أسئلة هادئة عادية، وكانت بمعظمها تدور حول مصنع «زيل» ومستقبله. ومرة أخرى اضطرت لأن أتلقى الضربات الموجهة إلي. كنت أتأجج من الداخل، ولعل ذلك كان لمصلحتي، فعمدت إلى الكلام بعاطفة أكثر وببساطة أكثر.

ومن المفهوم أن يعتمد المذيع إلى انتقاء الأسئلة المثيرة التي تستطيع توتير الجو وفق ما يراه، ولكن لست أدري لماذا ولأي حكمة بدأ يقرأ

رسائل وردت من المواطنين، إما أنهم ليسوا موجودين في العاصمة أو هم موجودون فعلاً ولكنهم لم يبعثوا بأي رسائل (وهذا ما تحقق منه الصحفيون فيما بعد). وهاكم مثلاً واحداً فحسب. يقرأ مقدّم البرنامج: «بوريس نيقولايفيتش، لماذا تقوم دائماً بكل شيء على عيون الناس للاستعراض؟ حتى زيارتك إلى العيادة للمعاينة تتم باصطحاب الصحفيين والمصورين؟...» هذا السؤال طرحه مواطن ما يعيش في منطقة ما بعنوان ما.

وبالفعل فقد قمت صباح ذلك اليوم بزيارة العيادة لإجراء فحص، والعيادة تابعة لإحدى المناطق بعد أن رفضت الارتباط بالإدارة الرابعة. وأذكر بالمناسبة أنني عندما أخذت استشارة لأعبثها راحت الموظفة المسؤولة عن التسجيل - وهي امرأة متقدمة في السن - تطرح علي أسئلة من نوع العنوان، العمر، مكان العمل... إلخ، وعن عملي أجبت بأنني وزير.. كاد قلمها أن يقع.. قالت: «المرّة الأولى في حياتي.. وزير يسجل نفسه في «عيادة منطقة».. وهكذا، ما إن خرجت من البناية حيث أسكن حتى وجدت مجموعة كاملة من المصورين ترابط عند المدخل. صوّروني عندما دخلت إلى العيادة وعند خروجي منها. هذا كل شيء. والمثير في الأمر أن هذا حصل في الثامنة صباحاً والعيادة لا تبعد سوى خمس دقائق سيراً على الأقدام، وإذن كان يجب أن أراقب بدقة ومع كل خطوة لأتمكن من ملاحظة أن أحد يصوّرني في الصباح أثناء سيري باتجاه العيادة.

وفي المناظرة التلفزيونية أجبت على النحو التالي: لقد بلغ مني الضيق مبلغاً كبيراً بالصحافة والصحفيين والمصورين، السينمائيين والتلفزيونيين، الذين لا يسمحون لي بممارسة رياضة المشي، وبات من الضروري طرح السؤال عليهم: لماذا هم دائماً إلى جانبي أو ورائي

يلحقون بي أينما ذهبت. فمن المحتمل أنهم يعمدون إلى التقاط الصور والأفلام لأن الأخبار انقطعت فترة طويلة، الأمر الذي ربما خلق لديهم هذا الاهتمام الزائد وغير الضروري..

ولكن هذا ليس كل شيء. ففي اليوم التالي، وشعوراً منها بأنها آذنتي، ذهبت مجموعة من المصورين نفسها إلى عنوان السائل الذي طرح السؤال باسمه وفتشت عليه،... كل شيء صحيح هنا يعيش هذا المواطن وفي هذا العنوان، ولكنه لم يتصل بالتلفزيون ولم يبعث برسالة، كما إنه لا يعلم شيئاً عن أي عبادة منطقة. وفي نهاية المقابلة قال: «لا يقلقن بوريس نيقولايفيتش، فأنا سأقترح لصالحه». وسجل الشبان المقابلة على فيديوكاسيت وأهدوني إياه.

وراح معاوني الانتخابيون يحققون في جزء من العناوين، وكانت النتائج نفسها: إما أن الأشخاص غير موجودين مطلقاً أو أنهم موجودون ولكن لا علاقة لهم بأي أسئلة طرحت.

أجل، في مناظرات تلفزيونية كهذه شاركت.

كانت دورة اجتماعات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي المنعقدة في تشرين أول (أكتوبر) ١٩٨٧، التي قيل عنها كلام خفي وسري كثير، هي الدورة التي قررت رغم كل شيء التكلّم فيها.

وفي أوقات لاحقة غالباً ما ساءلت نفسي: وهل كان هناك خيار آخر أمام ضرورة التصدي لهذه التغيرات الكارثية التي تصيبني في حياتي الشخصية؟ ولم أكن أشك لحظة في أنني سأتحمل العقاب المنتظر تنفيذه، فلماذا إذن انسقت مع هذا الأمر؟.

وبعد مضي سنتين تقريباً على الدورة المذكور أستطيع القول وبمتهمة الوضوح: نعم، كانت كلمتي آنذاك ضرورية، لأنها كما تبين وضعت

أسس منطق كل الأحداث الأخيرة. كان الجميع يغفلون حماساً واندحاشاً من الپیرسترویکا فلم يريدوا أن يروا أنه لا نتائج ملموسة على أرض الواقع، باستثناء بعض التغيرات والتقدم في مسألتی الغلاسنوست وإشاعة الديمقراطية. فبدلاً من أن يُجرى تحليل انتقادي وواقعي للأوضاع الناشئة، تحولت اجتماعات المكتب السياسي إلى مدائح تُتلى في حضرة الأمين العام. وقد بلغ نزاعي مع ليغاتشيف حدّه المنطقي المنتظر. ولكي تُفَقَّ دماطل موسكو المؤلة وحل مشكلاتها كان لا بد من مساعدة يسديها المكتب السياسي: فالعاصمة بنية معقدة، مكوناتها متداخلة تداخلاً شديداً، ولا يمكن حلها إلا بجهود متضافرة. ومع ذلك فقد بدأت أشعر في الفترة الأخيرة أنه لا توجد أي رغبة بإسداء المساعدة للمدينة لتحل مشكلاتها التي بلغت نقطة اللاعودة.

فهل كان ممكناً أن يعمل المرء في ظل ظروف كهذه؟

أجل، كان ممكناً، ولكن وجب أن أتغير وأصبح شخصاً آخر: أي أن أمتنع عن التعبير عن وجهة نظري، وألاً أرى البلاد تندفع نحو الهاوية، وأن أتشدد بالقول إن الحزب - كما يقول الأمين العام المنظم والأب الروحي - وماذا بعد؟ - هو باني الپیرسترویکا ومحركها.

من ذا الذي عرف أن هذه الشعارات المراثية ستخرجني عن طوري. في البداية راح الجهاز البيروقراطي - الحزبي يدك البلاد مستتراً وراء الحزب، والآن عندما لم يعد ثمة مجال للهزب وأصبح من الضروري تغيير شيء ما في هذا النظام الفاسد العفن، أخذوا يصرخون: إياك والحزب، فهو باني الپیرسترویکا ومحركها. كيف يمكن لنا أن نمسه، وقد رضعنا منذ الطفولة أن نرد كل إنجازاتنا إليه ونربطها باسمه؟! أضف إلى كل ذلك فإن دور الحزب عموماً أنه المنظم والمحرك كما ورد في المادة السادسة من دستور الاتحاد السوفياتي. إذن من هو المخطيء

في كل ما يحدث؟ أهى المجموعة التاريخية الجديدة التى اسمها الشعب السوفياتى؟ أم هو ذاك الذى نظم وحرك على مدى سبعين عاماً؟ فى كل يوم تسمع من كل الجهات والأنحاء اللعنات تصب على رأس الجهازين..

إن سمعة الحزب وهيبته لن تمسأ، لن ندعكم تضعوا أيديكم الوسخة عليه!...

لقد قطعت البلاد بعد ستين من انعقاد دورة تشرين أول (أكتوبر) أشواطاً كبيرة إلى الأمام، فقد عرف الناس دورهم.. إنهم ليسوا مجرد براغى فى آلة، بل إنهم أفراد.. أناس ذوو شخصيات. وبدأ الهجوم الشعبى على البيروقراطيين الحزبيين الذين لم يتوانوا عن الدفاع عن مصالحهم ومواقعهم بكل القوة التى لديهم. وحينها، عندما أدركت أنني يجب أن أتكلم، كان مسموحاً توجيه النقد شرط ألا يتناول بعض الأسس أو الأساء ذات الشأن الرفيع. فالأمين العام، مثلاً، كان يشبه أبانا - القيصر الذى يُعتبر أن التشكيك فى تصرفاته بمثابة تدنيس للقدسية الحزبية. فقد كان بوسع المرء فقط أن يبدي اندهاشه وإعجابه وسعاده كون الحظ حالفه فى العمل مع الأمين العام المعانى والمُتسم بالتواضع والكاره للمدائح... إلخ...

عندما توجَّهت إلى المنبر لم يراودني أبداً أن مداخلتي ستتحول خطوة إلى الأمام فى تعميق الغلاسنوست والنقد... لا، لم أفكر فى هذه الأشياء. كان المهم بالنسبة إلي أن أجمع إرادتي كلها فى قبضة واحدة وأنفجر لأقول ما لم أستطع إلا أن أقوله.

وكما ذكرت آنفاً، لم أكن قد حضرت كلمة مكتوبة، بل مجرد ورقة كتبت عليها موضوعات... رؤوس أقلام.

ولذا، فإنني أستشهد بما نشر فى مجلة «إزفستيا للجنة المركزية»

للحزب الشيوعي السوفياتي.

«يلتسين: إن التقريرين - تقرير اليوم وذاك الذي ألقى في الذكرى السبعين لقيام ثورة أكتوبر - وغيرهما من مشروعات التقارير، قد نوقشت كلها في اجتماعات المكتب السياسي. وأخذاً بعين الاعتبار أنني تقدمت بملاحظات لدى مناقشتها - أخذ ببعضها - فليس لدي اليوم ملاحظات على التقرير، ولذا فأنا أؤيده بالكامل.

ومع ذلك، فإنني أود التعرض لجملة من المسائل تراكتت لدي طيلة فترة عملي في المكتب السياسي.

إنني موافق تماماً على أن الپريسترويكا تواجه هذه الأيام صعوبات جمة، ولذلك تقع على عاتق كل منا مسؤولية كبيرة وواجبات كبيرة أيضاً.

وإنني أعتبر أنه يجب قبل كل شيء أن نعيد بناء عمل اللجان الحزبية، بل عمل الحزب عموماً، ابتداءً من سكرتاريا اللجنة المركزية - وهذا ما قيل في دورة اجتماعات لجنة الحزب المركزية المنعقدة في حزيران (يونيو) -.

وأرى لزماً علي أن أقول إنه وبعد مضي خمسة أشهر لم يتغير أي شيء من وجهة نظر أسلوب عمل سكرتاريا اللجنة المركزية وأسلوب عمل الرفيق ليغاتشيف.

ما قيل هنا اليوم، وقد قاله ميخائيل سرغييفيتش (غورباتشوف)، أنه لم يعد مسموحاً الاكتفاء بتوجيه التأييد أو التوبيخ على كل المستويات، وهذا يتعلق بالهيئات الاقتصادية وغيرها من الهيئات. أما الحزب فهو خارج كل ذلك في الوقت الذي ينبغي له فيه أن يسلك طريقاً ثورياً وأن يعتمد ممارسة ثورية. ولكن هذا الزخم الثوري، بل قل الرفاقية

الحزبية في الموقف إزاء اللجان الحزبية، لا يُستشعر من قبل رفاق كثيرين. وبالنسبة إلى ما يجب فعله هو أن نتعلم من دروس الماضي وأن نمنع النظر فعلياً في بقع التاريخ البيضاء التي تكلم عليها، اليوم، ميخائيل سرغيفيتش، تمهيداً لاستخلاص النتائج في ما يتعلق بيومنا الراهن وبغدنا. ماذا علينا أن نفعل؟ كيف نصحح الموجود ونمنع حدوث ما كان؟ إن ما شُوه بكل بساطة هو معايير حياتنا اللينينية حتى أدى بنا ذلك إلى إخراجها من معايير حياة حزبنا.

وأعتقد أن شيئاً ما قيل في المؤتمر عن سنتين أو ثلاث ستستغرقها الپيرسترويكا. . فها هما عامان، أو يكادان، ينقضيان، ويتجدد الكلام عن سنتين أو ثلاث أخرى. . إن هذا يضيّع الناس ويضيّع الحزب، ويضيّع الجماهير كلها، ولأننا نعرف مزاج الناس بتنا نلمس الطابع التموّجي لموقفهم من الپيرسترويكا. في البداية كان التأييد مرتفعاً عظيم الحماس، وقد استمر كذلك حتى أثناء انعقاد دورة اجتماعات اللجنة المركزية في كانون الثاني (يناير). أما بعد دورة تموز (يوليو) فقد بدأ الهبوط وهو مستمر الآن. إن هذا يقلقنا، ويقلقنا بالطبع أننا هدرنا سنتين لتدبيج هذه الوثائق التي لم تصل إلى الناس ولم تترجم في الواقع. لذلك، يتهيأ لي أنه يجب ألا نتعجل في تحديد مواقيت الپيرسترويكا فنكون أكثر حذراً بالنسبة إلى هذا الموضوع خلال العامين المقبلين، حتى تكون المواعيد المبذولة واقعية. إنها دون شك لا تُعطى لنا بسهولة، ونحن نعرف هذه الحقيقة، ولكن من الضروري بمكان تثوير ممارسة الحزب، والحزب تحديداً، بكل منظّماته ولجانه، كي لا نواجه الناس بعد سنتين وسمعة الحزب مصابة في الصميم أو هاوية إلى الحضيض.

وأرى أيضاً لزماً علي أن أقول إننا ننادي دائماً بوجود الإقلال من

الأوراق والوثائق، ومع ذلك فهي إلى ازدياد، وهذا بكل بساطة يثير نوعاً من اللامبالاة واللافتة حيالها في المواقع التحتية ولدى الناس. فالقرارات تتوالى الواحد تلو الآخر. ونحن ندعو بعضنا بعضاً لتقليص عدد المعاهد التي تخرّج البطالة، ولكني أقول إنه كان في موسكو العام الماضي ١٠٤١ معهداً، وخلال سنة اتخذت قرارات بافتتاح معاهد جديدة. وهذا يناقض بالطبع خط الحزب وقرارات المؤتمر والنداءات التي صدرت عنا جميعاً.

وتفلقني مسألة أخرى، وهنا في دورة اجتماعات اللجنة المركزية وأمام أعضائها الذين اعتبرهم الأكثر وثوقاً وصراحة، يمكن الإعلان عن مكنونات الصدر، بل ويجب فعل ذلك بوصفي شيوعياً.

يجب أن أقول إن الدروس التي كابدناها على مدى سبعين عاماً دروس قاسية. فقد كانت هناك انتصارات كما أشار ميخائيل سرغيفيتش، ولكن كانت هناك إخفاقات وهزائم قاسية أيضاً. وهذه الهزائم تراكمت تدريجياً بسبب انعدام الروح الجماعية، وبسبب تركّز السلطة الحزبية في أيدي أفراد أو في يد شخص واحد مترفع عن أي نقد بالمطلق.

في الواقع ليس عندنا في المكتب السياسي حالة مماثلة، ولكني قلق للغاية في الآونة الأخيرة من بروز بعض الدلائل والمؤشرات، وأكاد أقول بروز آيات التبجيل والإطراء من جانب بعض أعضاء المكتب السياسي المرشحين، ومن جانب بعض أعضائه الدائمين، نحو الأمين العام. وفي اعتقادي أن هذا غير جائز ولا يمكن السماح به، وبالتحديد راهناً، في وقت نركّز فيه أسس أشكال العلاقات الديمقراطية المبدئية بعضنا تجاه بعض، فضلاً عن علاقات الرفاقية والرفاقية بحد ذاتها. التمجيد، إذن، غير جائز. يجب أن نتقّد بعضنا وجهاً لوجه، وهذا

ضروري حتى لا نندفع نحو التبجيل ومنه بالتدريج إلى «عادة» عبادة الفرد. إننا لا نستطيع السماح بذلك. لا يجوز السماح بذلك.

أنني مدرك أن ما أتكلّم عليه لن يؤدي إلى اعوجاجات محددة حتمياً، ولكن المعالم الأولى لهذه الاعوجاجات بدأت تتمظهر، ولذا يتوجب بالطبع الحؤول دون تطورها.

والنقطة الأخيرة (صمت).

يبدو أنني لم أوفق في العمل ضمن تركيبة المكتب السياسي. والأسباب متعددة. لعلها التجربة والخبرة، ولعله أمر آخر. ببساطة ليس هناك دعم خصوصاً من جانب الرفيق ليفاتشيف، الأمر الذي دفعني إلى طرح مسألة إعفائي من واجباتي كمرشح لعضوية المكتب السياسي. وقد تقدمت بطلب مكتوب في هذا الصدد. أما ما يتعلق بكوني أميناً أول للجنة المركزية في العاصمة فهذا على ما أعتقد أمر سنتظر فيه دورتها المقبلة».

وجلست مكاني بعد الانتهاء من الكلمة. كان قلبي يخفق بعنف، يكاد ينخلع من مكانه في صدري. وقد علمت ماذا سيكون بعد. ستجري مذبحة مخططة، مدروسة، ممنهجة، وستنفذ بلذّة واستمتاع تقريباً.

كم من الأيام مضى وما زال ذلك المسير الصديء منغرزاً في قلبي.. فأننا لم أنزع.. إنه ما يزال معلقاً، ومع كل حركة ينزف الدم. والأمر حتى بالنسبة إلي شديد التعقيد عصي على الفهم. فهل كنت أنتظر رد فعل آخر من اللجنة المركزية التي يشكل المحافظون أكثريتها؟ وبالطبع لم أنتظر رد فعل آخر. وجاء السيناريو واضحاً وضوحاً شديداً، إذ كان محضراً مسبقاً ولا علاقة له بمدخلتي كما فهمت فيما بعد. فقد كان

يكفي أن يعطي غورباتشوف كلمة السر حتى يتزاحم المتزاحمون على المنبر مطلعين شتى الاتهامات بحقي من تفتيت وحدة القيادة إلى الطموحات والاشتراك في المؤامرات السياسية... وبكلمة، اتهامات تكفي حزباً معارضاً بأكمله. وقد راعني كثرة المتعطين للشهادة ضدي لتحطيم «الرفيق الحزبي المنحرف» تحطيماً معنوياً... ولا مناص من منع الراغبين في اعتلاء المنبر. وأعود مرة أخرى هنا للاستشهاد بمحضر الاجتماع:

«غورباتشوف: يبدو أنه من الأفضل أن أدير الجلسة.

ليغاتشيف: أجل، تفضل ميخائيل سرغيفيتش.

غورباتشوف: أيها الرفاق، يتهيأ لي أن مداخلة الرفيق يلتسين جدية. لم أرد أن أفتح الآن باب النقاش، ولكن لا بد من مناقشة ما قيل هنا قبل قليل.

وأريد أن أكرر عناوين إعلان الرفيق يلتسين الرئيسية. أولاً، قال إنه من الضروري تفعيل نشاط الحزب وليبدأ باللجنة المركزية وتحديد بأمانتها. وكانت ملاحظاته في هذا الصدد موجّهة إلى إيغور كوزميتش ليغاتشيف.

ثانياً، المسألة المتعلقة بوتاثر الپيرسترويكا. تم التأكيد على أنه حُدّدت مواعيت من سنتين إلى ثلاث سنوات، مع الملاحظة أن هذه المواعيت خاطئة، وهذا ممّا يضيّع الناس ويقود إلى بلبلة في المجتمع وفي الحزب. والوضع مفعم بالمخاطر التي يمكن أن تقضي على القضية.

ثالثاً، إننا نعتبر من دروس الماضي ولكن ليس على وجه تام كما يبدو من وجهة نظر الرفيق يلتسين، ذلك لأنه لم نوجد الآليات الضرورية لفعل ذلك في الحزب على مستوى اللجنة المركزية والمكتب السياسي،

بحيث تمكّنا من تلافي تكرار الأخطاء الجدية السابقة.

رابعاً وأخيراً، ما يتعلق بإمكانية الاستمرار في العمل على النحو السابق. فالرفيق يلتسين يعتبر أنه لا يستطيع العمل ضمن تركيبة المكتب السياسي، على الرغم من أن مسألة عمله أميناً أول لمنظمة العاصمة الحزبية لا تحسم في اللجنة المركزية بل في دورة اجتماعات لجنة المنظمة.

شيء ما جديد ينجم لدينا هنا. هل المقصود بالكلام فصل منظمة موسكو الحزبية؟ أم أن المقصود هو طرح الرفيق يلتسين مسألة خروجه من المكتب السياسي أمام دورة اجتماعاتنا هذه، فيما قرّر البقاء في منصبه سكرتيراً أول لمنظمة مدينة موسكو الحزبية؟ يمكن أن نستنتج رغبة في التصارع مع اللجنة المركزية.. هذا ما أفهمه، وقد أكون حاداً في ذلك».

إنني هنا لا أمسك نفسي عن قطع الاستشهاد بكلام غورباتشوف. لاحظوا كيف قلب بشكل بهلواني مضمون كلامي. هكذا، إذن، فكل ما أوده هو تزعم نضال منظمة الحزب في موسكو ضد اللجنة المركزية.. قضي الأمر وخيطة المسألة السياسية كما ينبغي ونطقت كلمة السر. وكنت، في الاجتماع، أحتج وأعترض وأستنكر، ولكن لا فائدة من ذلك ولا دور..

«اجلس، اجلس، بوريس نيقولايفيتش، إنك لم تطرح مسألة خروجك من قيادة منظمة المدينة. لقد قلت إنها مسألة من اختصاص المنظمة.

هوذا الأمر، تحتج كأنني لم أفهمك جداً، وكأنك طرحت مسألة استمرارك أميناً أول للمنظمة أمام اللجنة المركزية.

لقد فسرت بصورة صحيحة كل ما قلته في مداخلتك، أليس كذلك، رفيق يلتسين؟

دعونا أيها الرفاق نتبادل الآراء، فالمسائل وضعت بشكلها المبدئي.

يبدو لي أننا أمام حدث يمكننا ونحن نسير نحو الذكرى السبعين لثورة أكتوبر العظمى أن نستخلص منه العبر لأنفسنا وللجنة المركزية وللرفيق يلتسين، وعموماً لنا جميعاً..

يجب أن ننظر في الأمر.

من فضلكم أيها الرفاق، من يريد الكلام؟

أعضاء اللجنة المركزية يعرفون نشاط المكتب السياسي، وفي السياسة يفقهون، وأنتم مؤهلون للنظر في الأمر تماماً. إنني أدعوكم لتكلموا ولكني لا أصر ولا أجبر أحداً. وإذا أراد أحد من أعضاء المكتب السياسي أن يتكلم فليتكلم.. تفضلوا.

أيها الرفاق، من أراد الكلام فليرفع يده.

وسار كل شيء كما كان متوقعا. ولكن المسألة تأخذ بعداً عندما نقلبها في ذهننا نظرياً مفكرين في ماهية الردود التي سترد على موضوعاتي ومن سيتكلم. وبدا أن من سيتكلم لن يكون عياري كبيراً فضلاً عن كونه من الأبعدين.. وجاء الواقع مؤلماً، موجعاً، مفعماً بالخيانة.. فمن تسابق إلى الكلام من على المنبر أشخاص قريبون عملوا معي وربطتني بهم علاقات جيدة، ومع ذلك كانت عيونهم تبارق وتكاد تقفز من المحاجر. وأنا متأكد أن هؤلاء الناس سيشعرون بالخجل من أنفسهم عندما يقرأون هذا التزوير الفاضح الذي لفقوه بحقي.. ولكن ما العمل والكلام قد قیل ولا سبیل إلى الهروب منه؟

وتوالت الكلمات مفعمة بالديماغوجية والتفاصيل الصغيرة، وكلها تدور حول نقطة واحدة: أي يلتسين هذا. وتكررت الأفكار والتجنّيات والاتهامات نفسها. وكيف تمكنت من التحمّل، لا أدري.

من المتكلمين كان ريانوف، وقد عملنا معاً طويلاً في سفيردلوفسك. لماذا؟ لماذا تكلم؟ تكلم كي يشق طريقه إلى العُلَى.. نحو المستقبل، حتى ولو إلى التقاعد؟.. وقال ما قال. كان ذلك موجعاً للغاية.. وتكلم سكرتير إقليم پريمسك كونوليف، وسكرتير إقليم تومين بوغومياكوڤ وغيرهما من الذين عملنا معاً جنباً إلى جنب وأكلنا من خبز واحد وأرطال من الملح.. ولكن للأسف كان كل واحد منهم يفكر لنفسه فحسب، يفكر في ما يمكن تحقيقه من مكاسب شخصية. أما من أعضاء المكتب السياسي فقد فاجأني كلمتا ريجكوف وبياكوفليف اللذين لم أتوقع أبداً أن يصدر عنهما ما صدر. ويبدو لي أن كلمتيهما جاءتا تلبية لرغبة الأمين العام، لأنني كنت أكنُ لها دائماً احتراماً كبيراً، وهذا يعني أن إصغائي لما سيقولان سيكون مؤلماً بوجه خاص.

آنذاك أدركت أنه بعد الذي حصل ستبدأ عملية طويلة جداً يجب تحمّلها، وأنني الآن، وفي هذه الدورة، لن أقصّي من المكتب السياسي. فلا بد إذن من انتظار انعقاد دورة اجتماعات منظمة موسكو الحزبية، عندئذٍ سأعفى أولاً من مهام منصب السكرتير الأول تمهيداً لإقصائي عن المكتب السياسي في دورة اجتماعات ثانية للجنة المركزية. وهذا ما حدث فعلاً. وصوّت المجتمعون في نهاية الدورة على التوصية المختصرة التالية: «اعتبار مداخلة يلتسين خاطئة سياسياً»، مع اقتراح لمنظمة مدينة موسكو الحزبية النظر في مسألة وجودي على رأسها، على الرغم من أن مداخلي لم تتضمن أخطاء

سياسية، الأمر الذي يستطيع أي امرئ التأكد منه لدى قراءتها منشورة في المجلة.

وبالمناسبة، عندما أعلن عن صدور العدد الثاني من مجلة «إزفستيا» للجنة المركزية» للحزب الشيوعي السوفييتي لسنة ١٩٨٩، متضمناً محاضر دورة اجتماعات اللجنة المركزية في تشرين أول (أكتوبر)، لم أتعجل شراءها بقصد قراءتها مفضلاً انتظار ورودها بريد الاشتراك. ولما قرأت مداخلتي تعجبت بعض الشيء إذ بدا لي أنني كنت أكثر حدة في الكلام آنذاك، ولكن يبدو أن الحدة تلتطف بمرور الأيام. وهكذا، أخذ المجتمع يتقدم، وكم أثير من المناقشات الحادة سواء في الكونغرس الحزبي التاسع عشر أو أثناء الحملة الانتخابية. أما في الدورة التي تكلمت فيها، فقد كان ذلك المرة الأولى التي ينتقد فيها الأمين العام للحزب، لا في المطبخ، بل في هيئة حزبية عامة. وللمرة الأولى يُحكى فيها علناً وبهذه الشمولية عن الأسباب التي تكبح البيروسترويكا. . وهكذا، أيضاً، تحقق مبدأ التعددية للمرة الأولى منذ إعلانه.

أما مداخلات الآخرين، بمن سُموا خطباء، فلم أطلعها، إذ لم أرد إكراه نفسي على ذلك. . فمطالعتها تعني بالنسبة إلي أن أعيش التجربة المؤلمة مرة ثانية بكل ما فيها من ظلم وعدم إنصاف وإحساس بالخيانة. . . لا، لم أستطع ولم أرد.

كان وقتاً صعباً، عانيته بكل آلامه، وفي غضون بضعة أيام كنت أعيش بقوة الإرادة فقط، فلم أدخل المستشفى على الفور. وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر)، عيد الثورة وقفت على المنصة فوق قبر لينين، وكنت متأكداً أنها ستكون المرة الأخيرة. وأكثر ما أحنّني أنه لم تتسنّ لي الفرصة لتحقيق كل ما فكّرت فيه من مشاريع للعاصمة ومن

حلول للمشكلات الساخنة التي تفتك بها، وكانت كثيرة العدد. وأعتقد أنني نجحت في تحريك أوصال منظمة المدينة مع أنني عجزت عن تحقيق إنجازات كثيرة، مما يجعلني أشعر بالخطأ حيالها وحيال شيوعي موسكو وسكانها. ولكن، ومن ناحية ثانية، وبما أن موقف المكتب السياسي مني لم يكن ليتغير، وبما أن اقتراحاتي بصدد تحسين مستوى المعيشة في العاصمة توغلت في طريق مسدود ولم يرغب في تحقيقها، فلنني لم أسمح لنفسي بأن يتحول الموسكوفيون أسرى وضعي الخاص.. فكان لا بد بالفعل من الخروج...

وفي ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) وقع حادث طريف ومؤثر. فقد كنت ما أزال عضواً مرشحاً للمكتب السياسي حيث لم تنعقد بعد الدورة التي سيُتخذ فيها قرار بإعفائي من عضويته. وفي يوم عيد الثورة اليوبيلي اجتمع الأمناء العامون للأحزاب الشيوعية والعمالية في البلدان الاشتراكية، وكانوا قد وصلوا موسكو للمشاركة في الاحتفالات ولعقد اجتماع عام في ما بينهم. وكان كل أمين عام يلتقي غورباتشوف في اجتماع ثنائي. ومن الطبيعي أن يطرحوا جميعاً أسئلة تستفسر عني فكان يجيبهم رايوا الوضع بالتفصيل. وأستطيع التكهّن بما كان يقوله ملقياً باللوم علي. وفي يوم العيد سار الجميع - أعضاء المكتب السياسي وأمناء اللجنة المركزية - باتجاه منصة لينين وفق الترتيب المتبع وعلى رأسهم غورباتشوف.. وكان قادة الأحزاب الضيوف يقفون فأخذوا يصفحوننا مبتدئين بالأمين العام. ويأتي دوري لأصافح فيدل كاسترو فأقرب منه، فإذا به يضمني إليه ويتمتم بكلمات ما بالإسبانية لم أفهم منها شيئاً، ولكنني أحسست بدفء التضامن الرفاقي. فشددت على يده وقلت: «شكراً!». وأكمل مصافحة الآخرين، فأصل إلى العسكري ياروزيلسكي واحتضان ثان مع كلام روسي: «بوريس

نيقولاييفيتش، اصمدا»، ورددت بهدوء شاكرًا المشاركة. حدث كل ذلك أمام عيني غورباتشوف وأمام أعين قادة حزبنا الآخرين، مما زاد عندهم اليقظة والحرص تجاهي أكثر بصورة أكيدة.

لقد حاولوا ألا يتكلموا معي كي لا يُرَوّأ متلبسين، علماً أن بعض أعضاء المكتب السياسي، آنذاك، كانوا يكونون لي في أنفسهم تضامناً معنوياً وإن لم يكن في كل المسائل. . ولكن كان ثمة تضامن ما. بل إن بعضهم بعث إلي بطاقة معايدة، أما غورباتشوف فلم يفعل، كما لم أرسل له أيضاً أي بطاقة وقتذاك، وقد هنأت من هنأتي على قلة عددهم.

وفي مثل هذه الاحتفالات كان كل قائد منا يُفصل لأحد الضيوف من الأمناء العامين، وكان فيدل كاسترو عادة من نصيبي، وكانت تربطني به علاقات جيدة جداً. أما في هذا العيد فلنني لم ألق بأبي من الضيوف. وكنت أشعر بالضيق والانزعاج في الكوكتيل الذي أقيم على شرفهم، كوني وحيداً فأثرت أن أبقى جانباً.

وفي التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) بدأ يتتابني صداع يترافق مع أوجاع قلبية مما استدعى نقلي إلى المستشفى. بدا أن جسمي لم يتحمل التوتر العصبي الذي ضغط عليه طيلة الأيام الماضية، فحدث الانفجار. وحُقت بشتى أنواع الأدوية المهدئة المزيلة لتوتر الجهاز العصبي. كان كل شيء يتم بسرعة. ومنعني الأطباء من مغادرة السرير مع متابعة العلاج بالأدوية والحقن. وغالباً ما كانت الأوجاع تتتابني ليلاً حيث لم أكن أتحمل الصداع الفظيع على مدى ثلاث أو خمس ساعات. وأرادت زوجتي زيارتي فلم يُسمح لها وقالوا إنه لا يجوز إزعاجي وإن حالتي حرجة.

وفي صباح يوم ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) رن جرس الهاتف وكان على الخط غورباتشوف الذي يبدو أنه لم يتصل بالمستشفى بل ببيت الريفي، حيث لم أكن موجوداً بطبيعة الحال، فحوّل الاتصال إلى المستشفى. قال بلهجة هادئة: «بوريس نيقولايفيتش عرّج علي لفترة قصيرة، وماذا لو عقدنا بالمرّة اجتماعاً كاملاً لمنظمة موسكو بعد اللقاء؟». قلت إنني لا أستطيع المجيء، فأنا طريح الفراش وممنوع من مغادرته بأمر الأطباء، فرد قائلاً وبنشاط: «لا بأس، سيتعاون الأطباء معنا».

ما حدث لم أستطع فهمه، ولن أستطيع فهمه أبداً. فأنا لا أذكر البتة خلال كل حياتي العملية أن عاملاً أو قائداً مريضاً يُخْرَج من المستشفى ليُقال من عمله أو منصبه. إن هذا لأمر مستحيل، وهو يناقض أبسط الأنظمة والأعراف المعمول بها. ومهما كان موقف غورباتشوف مني سيئاً فهل يعقل أن يتصرف معي على هذا النحو اللاإنساني، اللاأخلاقي؟... والواقع أنني لم أتوقع منه مثل هذا التصرف. ممّ كان يخاف، ولماذا كل هذه السرعة؟ هل اعتقد أنني قد أغرّ تكبري مثلاً؟ أم أنه اعتبر من الأفضل تصفية الحساب معي في دورة اجتماعات المنظمة وأنا على هذه الحال؟ على أي حال يستحيل فهم هذه القسوة...

ولم يكن أمامي إلا التهيؤ للخروج، ملبياً دعوة الأمين العام، فأخذ الأطباء المتعاونون المطيعون يحقنونني بالمستحضرات المهدئة، وبدأ رأسي يدور ورجلاي ترتجفان، فيما لم أعد أقوى على الكلام إذ انعقد لساني ولم يعد يطاوعني. ولما رأني زوجتي على هذه الحال راحت ترجوني ألا أخرج وتحوّل الرجاء إلى إقناع فمطالبة. أما أنا فكنت كآلة مبرمجة بالكاد أجر رجلي محاولاً المشي ولا أكاد أفهم شيئاً

مما يدور حولي. وركبت السيارة متوجهاً إلى مقر اللجنة المركزية.

ولم تتحمل زوجتي التي أصابها الذهول، فانفجرت بوجه رئيس إدارة الـ «كي. جي. بي» التاسعة بليخانوف قائلة: إن هذه سادية، كيف تجرأتكم على إطلاق مريض وهو تحت رعايتكم، والمفروض أن تحموه، والآن يمكن أن تقتلوه بتصرفكم الجبان هذا... وبالطبع لم يكن لديه جواب يرد به، وماذا يستطيع أن يقول وهو مجرد برغي في النظام الذي يستمر في أداء وظيفته «بامتياز»: يجب حماية يلتسين، إذن سنحميه، يجب إحضاره، ولو كان مريضاً، إذن نحضره... دون أي تفكير. بل أعتقد أنهم لن يتورعوا عن إحضاري حتى من القبر، لو لزم الأمر، إلى أي اجتماع أو دورة أو مؤتمر. المطلوب فقط تنفيذ المهمة.

وبحالي التي وصفتها أحضرت إلى المكتب السياسي ولم أكن عملياً أفهم شيئاً. وبالحالة نفسها أخذت إلى اجتماع منظمة موسكو الكامل حيث كان جميع الأعضاء بانتظاري. كان المسؤولون الحزبيون الرئيسيون يجلسون في أماكنهم على منصة هيئة الرئاسة، والأعضاء في الصالة يرمقونهم بأدب وطاعة.

ماذا يمكن أن نطلق من تسمية عندما يُعمدُ إلى قتل الإنسان بالكلمات؟ كان ذلك شيئاً فعلاً بعملية قتل حقيقية... لقد كان من الممكن أن أعفي بكل بساطة في الدورة الأولى، ولكن لا، يجب التمتع بعملية الخيانة حين يبدأ الرفاق الذين عملت معهم جنباً إلى جنب لستين، بقول الأكاذيب والزور والإهانات التي لا أستطيع حتى الآن فهمها. ولو لم أكن آنذاك تحت تأثير المخدرات التي حقنت بها تصديت لكل واحد تفوهه بحقي زوراً وبهتاناً ولكشفت له شره وحقده لمنزرعين فيه! إنني أخطيء الأطباء وأحملهم مسؤولية إحضاري إلى

هنا من جهة، ومن جهة ثانية أشكرهم على إنقاذ حياتي آنذاك، لأنهم حقنوني بتلك المهددات التخديرية بحيث لم أعد عملياً قادراً على تمييز أو استيعاب أي شيء... فيما بعد لطالما عدت إلى محاضر هذه الدورة محاولاً فهم الدافع الذي كان يحفز الأشخاص على اعتلاء المنبر للكلام... ولماذا باعوا ضمائرهم وتهاقوا على تنفيذاً لتعليقات الطليع الرئيسي؛ الصياد الأول: هاتوه (وبالروسية «آتو»، وهو نداء لتحريض كلاب الصيد على اللحاق بالطريدة - المترجم)، أجل هاتوه.. كان سرباً من كلاب الصيد على أتم الاستعداد لتقطيعي إرباً... لا أستطيع استعمال وصف آخر...

كانت الحجة ضئيلة جداً، ولذا فقد كان ما قيل إما ديمagogية أو زوراً أو أوهاماً أو كذباً عادياً. بعض الذين انقضوا علي فعلوا ذلك رعباً: المطلوب مطاردته، لا مهرب، إذن فلنطارده؛ وبعضهم نشأ لديهم شعور غريب: وقعت... كنت مسؤولاً ولم أكن أجرو حتى على لمسك، أما الآن...! كل ذلك توحد في كتلة واحدة ونجم شيء ما رهيب للإنساني.

هكذا خُلعت... وطبعاً خلعت «وفق رغبتى» وسط احتفال ملؤه الضجيج والقعقة والصراخ، ما تزال أصداؤها تضجُّ في كياني حتى الآن. وقد نشرت مواد الدورة كلها في صحيفة «موسكوفسكايا پرافدا». ذلك أنني عندما توليت قيادة المنظمة طالبت الصحيفة بنشر كل مواد الاجتماعات من تقارير ومداخلات وكلمات وتوصيات بالكامل دون أدنى تصحيح أو تزويق أو تلخيص، وهو أمر لم تتجرأ حتى اللجنة المركزية للحزب أن تعتمده أو تقره لخوفها من النتائج... وإذن، أضحيّت ضحية مبادرتي الشخصية.. أقول هذا على سبيل المزاح.. بل إنني أعتقد العكس تماماً، فالحقيقة والمكاشفة

لا يمكن أن تكونا ضاريتين بالمطلق. وقد شكّلت المواد المنشورة في الصحيفة المذكورة بالنسبة إلى الناس غير المتحاملين ضربة قاسية، إذ بيّنت بوضوح مدى التملُّق والمصانعة والخوف - بل الرعب - التي تفتك بالقيادة الحزبية العليا.

بعد الاجتماع عدت ثانية إلى المستشفى، إلا أنني أبللت قبل انعقاد دورة اجتماعات شباط (فبراير) التي كانت بالنسبة إلي الضربة الرابعة. واقترح فيها غورباتشوف لإخراجي من عداد المرشحين لعضوية المكتب السياسي.

تكلم غورباتشوف بحذر عن التقاعد، واقترحت علي مجموعة الأطباء فوراً التفكير في الأمر. وبعد أن تشاورت مع زوجتي قلت بادية الأمر: فلنتنظر حتى أخرج من المستشفى ونعود إلى هذا الحديث. ولكني فكرت، بل وأمعنت في التفكير وتوصلت إلى الجواب: لا. التقاعد لن يكون بالنسبة لي سوى موت أكيد. لن أستطيع البقاء في البيت الريفي أزرع الفجل وغيره من الخضراوات. إنني بحاجة إلى الناس، ودون عمل سأضيع. وقلت للأطباء إنني غير موافق على التقاعد.

ولم يمض وقت قصير حتى اتصل غورباتشوف مرة ثانية بي في المستشفى مقترحاً علي العمل نائباً أول لرئيس البناء الحكومي ووزيراً في حكومة الاتحاد السوفياتي. وكان الأمر آنذاك بالنسبة إلي سيان. فوافقت دون أن أفكر ولو ثانية واحدة. ولكنه أضاف: «لن أدعك تعمل في السياسة».

غالباً ما يطرحون علي سؤالاً أصبحت أطرحه أيضاً على نفسي: لماذا لم يرد أن يصفني معي الحساب حتى النهاية؟ فعلى وجه العموم

كان الوضع عندنا دائماً ينجح في ما يتعلق بالخصوم السياسيين . كان من الممكن أن أحوال إلى التقاعد أو أبعث سفيراً إلى بلد ناءٍ . أما غورباتشوف فقد أبقاني في موسكو ومنحني منصباً رفيعاً نسبياً، وجوهر الأمر أنني معارض مُنحى عن السلطة .

في اعتقادي أنه لو لم يكن لدى غورباتشوف يلتسين لكان عليه أن يوجده . فبغض النظر عن علاقته السلبية بي التي نشأت في الفترة الأخيرة، فإنه كان يدرك ضرورة وجود شخص إلى جانبه يتمتع بالحدة والقدرة على إزعاج الجهاز البيروقراطي والحؤول دون أن يعيش الهدوء والسكينة . ففي هذه المسرحية الحية - كما في أي مسرحية جيدة - وُزعت الأدوار كما يلي : ليغاتشيف - المحافظ، الشخصية السلبية؛ ويلتسين القزاعة ذو الميول اليسارية، ثم هناك الحكيم المدرك كل شيء البطل الرئيسي غورباتشوف نفسه . ويبدو أن هذا ما كان يتراءى له .

وفضلاً عن ذلك، أعتقد أنه خشي ردة فعل الرأي العام الجبار في حال أحوالي على التقاعد أو بعثي سفيراً إلى مكان بعيد . ففي تلك الفترة انهمرت الرسائل من كل حذب وصوب على اللجنة المركزية وصحيفة الهزأدا والصحف والمجلات المركزية الأخرى، تستنكر القرارات الصادرة بحقي عن دورة اللجنة المركزية . وهذا أمر كان يجب الاحتياط له .

وكان ينبغي علي أن أخرج من الأزمة التي غرقت في وحوها . ونظرت حولي فلم أر أحداً . . كأنما تشكّل فراغ تام . . فراغ إنساني . غريبة هي الحياة . . أنا الذي عملت طوال حياتي مع الناس، والآن لا أحد . وبوجه عام فأنا أعشق الجماعة . . ولطالما كنت منجذباً إلى الناس وليس إلى الوحدة . وعندما يخونك عشرة، واحد إثر واحد،

تأتي العشرة الثانية من أولئك الذين عملت معهم ووثقت بهم، لبدأ بالظهور شعور غريب بالقضاء المحتوم. أيمكن أن هذا من سمات العصر المميّزة؟ أيمكن أن مجتمعنا قسا قلبه، عقب كل هذه العقود السوداء، حتى امتنع الناس عن أن يكونوا أختياراً. كأنما رُسمت دائرة حولي لا يعبر خطها أحد خشية أن يتلوث. . كأنني مجذوم، مجذوم بالنسبة إلى كل من يرتجف خوفاً على مصيره ومستقبله. . ولذلك كنت بالنسبة إلى الناس العاديين - وكم كان ذلك محزناً - ودائماً لسبب ما غير مفهوم. . ممّ يخافون؟

أجل، كثيرون أداروا رؤوسهم، بينهم المؤقتون - أولئك الذين جهدوا دائماً ليظهروا لي صداقاتهم ورفاقيتهم - وهم في الواقع ليسوا سوى طفيليين التصقوا بي لحاجتهم إلى بوصفي مسؤولاً عن منظمة موسكو الحزبية. . ليس أكثر.

وخلال اجتماعات اللجنة المركزية وأثناء غيرها من المناسبات لم يكن ثمة مهرب أمام قادتنا إلا أن يجيوني ولكن بحذر معين بإشارة من رؤوسهم علامة على أنني حي طبعاً اسماً، أما سياسياً فلست سوى جثة.

وكان يتتابني أيضاً إحساس غامض حيال انعدام الاتصالات الهاتفية من قبل أولئك الذين لم تكن اتصالاتهم تتوقف. . وفجأة صمت قاتل. غريب أمرهم. . . كثيراً ما ساءلت نفسي ماذا كنت سأفعل لو وجدت نفسي مكانهم؟ كنت واثقاً بشكل مطلق إنني لن أقاطع أبداً إنساناً أصابته كارثة. . لأن ذلك يناقض أبسط المبادئ الإنسانية.

من الصعب علي أن أصف الحالة التي أغرقتني في لجّتها. فقد

بدأت أعاني صراعاً مع نفسي وأحلل كل تصرف وكل كلمة وكل مبادئي وكل آرائي المتصلة بالماضي والحاضر والمستقبل . كما وبدأت أيضاً بتحليل علاقاتي بالناس وحتى بعائلتي . . . تحليل دائم في الليل والنهار . أدأعب النوم ثلاث ساعات أو أربع ، وبعدها تتسلل الأفكار نفسها ويعود الصراع والتحليل .

في مثل هذه الأحوال يجد كثيرون ملجأهم في الله ، فيما يعتمد آخرون إلى معاقرة الخمرة . . أما أنا فلم ألتجئ إلى ذاك ولم أعاقر هذه . بقيت عندي الثقة بالناس قائمة ، ولكنها كانت ثقة من نوع آخر . . ثقة بالأصدقاء فقط ، أما تلك الساذجة فقد اختفت مرة واحدة .

لقد مررت ، عبر نفسي ، مئات من الناس ، أصدقاء ورفاقاً وجيراناً وموظفين عملوا معي ، كما مررت علاقاتي بالزوجة والأبناء والأحفاد وثقتي بنفسي ، فماذا بقي لدي هناك ، حيث القلب ؟ كل ما بقي تحول جراً ملتهباً ، فكل شيء حولي وفي كان ملتهباً . .

أجل . . كان ذاك وقت معركة قاسية . . معركة مع الذات . وأدركت أنني إذا خسرتها فسأكون خاسراً مدى الحياة ، ولذلك كان توتري شديداً ووهني عظيماً .

كانت آلام الصداق تعذبني فتجيتني كل ليلة تقريباً . وكثيراً ما استدعينا الإسعاف لأعطي حقنة مسكنة يسري مفعولها فترة ليعود كل شيء مجدداً كما كان . وكنت بالطبع ألقى الدعم من عائلتي قدر ما استطاعت بذله . فكم من ليالي مسهدة قضتها نايينا وابنتاي لينا وتانيا . . وكنت عندما يبدأ الصراع مستعداً لأكسر رأسي بالجدار وأحبس الآلام حتى لا أصرخ . كان ذلك عذاباً جهنمياً . . وكثيراً ما كان يفرغ صبري فأفكر أن النهاية أصبحت موشكة .

كنت أثق ببعض الأطباء كيوري ألكسييفيتش كوزنتسوف وأنا تولي ميخائيلوفيتش غريغورييف وغيرهما . إذ كانوا يطمئنونني أن هذه حالة مؤقتة وسأتخطأها، وهي ناجمة عن إجهاد نفسي وتوتر عصبي سرعان ما سيعالجها الزمن. ولكن رأسي لم يكن يهدأ . كان يعمل ليل نهار. ولم تعد أعصابي تتحمل فأفلت مني، بعض الوقت، زمام الأمور، الأمر الذي انعكس على العائلة. وعندما كانت نوبات الهدوء تهل كنت أشعر بالخلج والندم. لقد تحملت عائلتي الكثير آنذاك، ومع ذلك فقد غفرت كل شيء. كانت زوجتي وابتنائي تحاولن تهدئي لأنصرف عن التفكير. لله، كما تحمّلن مني، وإني لشاكر لهن حسن المعاملة والمساعدة على إنقاذني من وهدة الروح والعذاب.

فيما بعد، سمعت كلاماً على أفكار تدور حول الانتحار. . ولا أعلم مدى صحته، ولكن الوضع الذي عشته كان يدفع بي دون ريب إلى مخارج الخلاص. . إلا أنني لست كذلك. شخصيتي ليست شخصية من يستسلم. . لا لم أكن لأنتحر مطلقاً.

أجل، حياة منفي. . ومع ذلك لم تكن حياة في جزيرة نائية. . بل قل هي أقرب إلى شبه جزيرة متصلة باليابسة بطريق ضيقة صغيرة. . هي تلك القلة القليلة من الناس المقربين والأصدقاء والكثرة الكثيرة من سكان موسكو وسفيردلوفسك، بل وحتى مواطنين في جميع أنحاء البلاد. . فهؤلاء جميعاً لم يخافوا الاتصال بي رغم أنوف النافين.

وهكذا، أصبحت أخرج للتنزه في الشوارع أكثر كأحد سكان موسكو العاديين، بعد أن كنت نسيت في حومة العمل وفي غمرة الحراس والمرافقين كيف تكون النزهات. . وأهم شيء أنها دون حراسة. . كانت تلك حالة رائعة، ولعلها السعادة الوحيدة في أيام المحنة السوداء. وكنت ألتقي دائماً بوجوه الناس تفر عن الابتسام في

الشارع والمخزن والسينما مرحبة ومحبة . . كان ذلك يخفف عني وطأة النكران، فها هم أناس عابرون يعترفون بالجميل بعكس بعض من سُموا أصدقاء.

كنت أذكر دائماً بأنني منفيٌّ وفي كل مكان، رغم أنني عملت وقتذاك وزيراً للبناء في حكومة الاتحاد السوفياتي، ولا شك أن اتخاذ القرارات، والحالة هذه، كان مهمة شاقة.

أي كابوس هيمن علي خلال سنة ونصف . . أي عمل لم يعجبني ولم أرتح له، رغم أنه من اختصاصي. ولكن يبدو أنني أخذت بالعمل السياسي والحزبي حتى ابتلعتني كلياً لما فيه من تعامل مباشر مع الناس.

وكانت الصحافة الغربية تبدي اهتماماً مستمراً باسمي، وكثيراً ما كان الصحفيون يقصدونني لإجراء المقابلات طلباً للحقيقة. ذلك لأنني لم أرد إخفاء شيء أو التعتيم عليه إبان لقاءاتي بهم. كم من العقود مرت مفعمة بروح العداء للصحافة الغربية كنا فيها نقنع أنها مخادعة كاذبة تفعل أي شيء بوسعها حتى تكتب زوراً وبهتاناً. أما في الواقع، فإن نمثلي الصحافة الغربية الجادة يتميزون بالأهلية والمهنية العميقة وبمراعاة الخلقية والأداب الصحافية . . وأنا لا أتحدث هنا عن الصحافة «الصفراء» التي قُدِّر لي - ويا للأسف - أن ألتقيها أيضاً.

بهدوء، وبمقاربة فلسفية، قُدِّرت موقف صحافتنا المتجاهل، وكنت أعرف أنه لا ذنب للصحافيين في ذلك. لا بل لاحظت كيف أن بعض المحررين كانوا يحاولون تمرير بعض المواد التي تتضمن اسمي أو إشارة إليه، وذلك بطريقة لا تثير حفيظة رؤسائهم . . وحتى هذه المواد الضئيلة كانت تسترعي الانتباه قبل النشر فتزعج، مما كان يسبب

أضراراً جديّة لمن حاول تمريرها . أما المواد التي كانت تنشر فمليّة
بالحق والظلم .

وأما العلاقات مع المثقفين فقد كانت شائكة ومعقدة، ذلك أن
أحداً ما أطلق على ما يبدو أسطورة مفادها أنني ذو شخصية طابعها
ستاليني، وهذا مغاير للواقع والحقيقة على وجه الإطلاق، على الأقل
لأنني في داخلي وبكل كياني ضد كل ما حدث في تلك السنوات . .
فأنا لا أنسى أبداً كيف قبض على والدي ليلاً، وكان عمري آنذاك
ست سنوات .

إلا أن المثقفين أنفسهم لم يسيروا في ركاب الجهاز ومدوا لي يد
التضامن . من هؤلاء إيرينا أرخيبوفا وكاترينا شيفيليوفا وكيريل
لافروف ومارك زاخاروف وغيرهم كثير من الكتاب والفنانين الذين
كانوا يتصلون بي مهثين بالأعياد، ويبعثون بالرسائل ويزوروني
ويدعونني إلى المسارح والحفلات الفنية . ولا أنسى على سبيل المثال
تلك البرقيات المرححة الطيبة التي كان يبعثها كاتب أدب الأطفال،
مبتدع شخصية «تشيوراشكا» الحيوان اللطيف المحب لدى
الأطفال، إدوارد أوسپينسكي . تلك اللفتات جميعها عزيزة علي جداً .

وهكذا، بصعوبة كبيرة وبجهد جبار انتصرت على نفسي . كان
ينبعث في شيء ما شهراً إثر شهر، وتوقف الصداق عن تعذيبي وبت
أغفو قريراً .

أما الأوفياء حتى النهاية، المخلصون حتى النخاع، الذين لم يتوانوا
عن إسداء العون والمساعدة في أحلك اللحظات، فهم زملاء
الدراسة . . وإني لأحس تجاههم بشكر لا ينتهي، إنهم ما يزالون
يكابدون حتى الآن، كوني ما أزال أخوض صراعاً بلا نهاية .

وبالتدريج اعتدت الحياة مجدداً وانغمست في عمل الوزارة، فتبين لي أنني لم أضع مهارتي وخبرتي المهنية الفنية فكنت على معرفة واضحة بمسائل البناء المطروحة، ومع ذلك فقد كنت أخشى أنني تخلفت عن الركب بعض الشيء.

ولم يجمعني مع غورباتشوف أي لقاء أو حديث. . بل لعلها مرة واحدة اصطدمت به أثناء استراحة بين جلستي اجتماع للجنة المركزية. كان يسير في الرواق وأنا واقف جانباً بحيث لا يمكن أن يمر بي دون أن يراني، فتوقف واستدار نحوي وخطأ وهو يقول: «مرحي، بوريس نيقولايفيتش». فقررت بدوري رد التحية باللهجة نفسها: «مرحي، ميخائيل سرغييفيتش». أما بقية الحديث فيجب ربطه بما جرى قبل بضعة أيام بالتحديد.

بغض النظر عن النقرة والعقوبة، وهما في واقع الأمر نفي سياسي، فقد دُعيت مرة إلى مدرسة الكومسومول (الشبيبة الشيوعية) العليا لإلقاء المحاضرات أمام الشبان والشابات. ولم تكن دعوتي بالأمر السهل عليهم، إلا أن سكرتير منظمة الكومسومول في المدرسة يوري رابتانوف كان صاحب المبادرة مدعوماً من الملتحقين، وأكثرتهم من الشيوعيين الشباب الناضجين ذوي الذكاء والحيوية.

في البداية، ذهب رابتانوف إلى رئيس المدرسة، فما كان هذا الأخير إلا أن لَوَّحَ بيديه: «هل جننت؟ أندعويلتسين؟!». ولكن «يورا» أصر واحتكم إلى لجنة الحزب التي تزعمها رجل تميَّز بالتقدمية أكثر من رئيس المدرسة فقال: «دعونا نطرح المسألة في اجتماع اللجنة». وقررت اللجنة دعوتي، حيث اضطر الرئيس إلى التصويت إيجاباً لما أحس بالجو يؤيد الاقتراح فخشي إن عارض أن يصبح العمل ضمن المجموعة شاقاً. واتصل بي الطلاب هاتفياً فحدّدنا يوم اللقاء

وساعته. وبالطبع شاع النبأ أول ما شاع في اللجنة المركزية لاتحاد الشبيبة الشيوعية، إذ علمت أن سكرتيرها الأول ف. ميرونينكو زار المدرسة مرتين في محاولة للحؤول دون دعوتي، ولكن الشباب أنفدوا رأيهم. وأدركت أن اللقاء سيكون حاداً جداً، وهو ما حدث بالفعل. بداية ألقى كلمة كانت عبارة عن جولة أفق طرحت فيها رؤيتي إلى بعض المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية، كما تحدثت فيها عن العمليات الجارية في الحزب. وهكذا، حدّدت مداخلتي فوراً حدة الأسئلة والأجوبة. كان مبدئي، وما زال، إن أجيب على أكثر الأسئلة إحراجاً. وبدأت تردني أسئلة حادة معقدة، وأحياناً مثيرة للغضب. . . وكان بينها تساؤلات ذات طابع شخصي تتناولني وتتناول غورباتشوف وأعضاء آخرين في المكتب السياسي وأمانة اللجنة المركزية. . . وقد أجبت عليها كلها. كان ثمة السؤال التالي: «ما هي نواقص الرفيق غورباتشوف؟». سؤال لم يكن ليُطرح مطلقاً في السنوات الخالية.

واستغرق اللقاء حوالي خمس ساعات وقفتها وراء المنبر. كانت ردود فعل المستمعين عاصفة، وقد نشرت مقتطفات من اللقاء في جريدة المدرسة، طبعاً بشكل مقتضب ولكنه حاد بل أكثره حدة مما سمحت به المكاشفة التي كان يُعمل بها آنذاك في الصحافة عموماً. وبديهي أن حديث الخمس ساعات قد سُجِّل لمن يريد الاستماع إليه. . .

وهكذا، سألني غورباتشوف في الرواق بعد تبادلنا التحيات: «هل التقيت الكومسوموليين؟». أجبت: «أجل، كان لقاء عاصفاً ومثيراً». «ولكنك انتقدتنا هناك، وقلت إننا لا نولي الكومسومول اهتماماً كافياً؟. . .». رددت بالقول: «ليس دقيقاً ما نقل إليكم. أنا لم أقل

«غير كاف»، بل قلت «اهتماماً سيئاً».

وظل واقفاً، بدا أنه لم يعثر على جواب يرد به. ومشينا معاً خطوات إلى الأمام. . قلت إنه لربما يجب أن نلتقي، فقد تبرز مسائل للنقاش. . فقال: «نعم، يمكن». وكان هذا كل شيء. واعتبرت أن الكرة بين يديه وعليه أن يبادر. وانتهى الحوار القصير.

ومرت سنة ونصف لم نلتق فيها أو نتبادل كلمة واحدة.

ومع ذلك أحسست أن الجليد تحرك. كانت محتتي تخطون نحو نهايتها، ليبدأ زمن جديد، زمن غير عادي لم يخطر على بال، وحانت اللحظة التي ينبغي علي أن أجد فيها نفسي.

يوميات الانتخاب

٢٦ آذار (مارس) ١٩٨٩

الأحد. اليوم الأخير. أشعر بالقلق يساور كل أفراد عائلتي. . .
ويستقل إلي بطريق ما. . . ولم يكن يشعر بحالتي أحد إلا زوجتي
وابنتاي. وحانت مني التفاتة عبر النافذة فاعتراني كابوس إذ رأيت
مجموعة من المصورين والمراسلين ترابط عند مدخل البناء. . . كان
أولئك مراسلي شركات التلفزة الغربية. فمرور الأشهر القليلة الماضية
أضحى تجاورهم ظاهرة عادية مألوفة لدي. . . كأنهم أعواني في حملتي
الانتخابية. وفي الأيام الأخيرة أخفقت في أن أخطو خطوة واحدة هرباً
من المراسلين الصحفيين. . . كان هذا أمراً مستحيلاً، وبالطبع كنت
أفهم أن هذا هو عملهم، مهنتهم، ولكن أقول بإخلاص إن الملاحقة
شكّلت ضغطاً لا يطاق.

وتقبلت المسألة، سيكون هنا اليوم هرج ومرج صحفيان عظيمان.
وستعرف زوجتي وابنتاي ماذا يعني كل ذلك، وأعتقد أنه سيثير لديهن
انطباعاً ثقيلاً.

وهانحنذا نحضر أنفسنا ونلبس ثياباً احتفالية، أوليست
الانتخابات عيداً شعبياً. خرجنا من البناية. وانقضّت علينا جمهرة
المراسلين الغربيين، وبالكاد رأيت مراسلاً صحفياً سوفياتياً. ولا

أدري لماذا يصوّرون موكبنا العائلي من البيت وصولاً إلى قصر الطلائع في منطقة فرونز، المعتمد مركزاً انتخابياً. ولم أفهم تماماً، بصراحة، لماذا يسجلون هذه اللقطات «التاريخية». . يلحقون بنا، يتراكمون، يلتقطون الصور والأفلام من خلف ومن أمام.

أما أمام قصر الطلائع فقد كان المشهد مخيفاً. . كان ثمة أكثر من مائة مصور ومراسل عدد هائل من الكاميرات والأضواء والميكروفونات. . وأحاطتني مجموعة من المراسلين يقذفون أسئلة بكل اللغات يتصايحون ويصرخون. وأحاول جاهداً عبور الجمهرة لأطمئن على عائلتي التي سبقتني. . ها هم ما زالوا صامدين وقد أنهكت قواهم. . . صعدنا إلى الدور الثاني للتسجيل والحصول على ورقة الاقتراع.

واقتربت من الصندوق فواجهتني عشرات العدسات. . ثم فجأة ضحككت في سري إذ تذكرت ألوف الصور المماثلة تترأى لي من الماضي القريب حين كان الزعيم الهرم يتقدم بجلال وعظمة من صندوق الاقتراع. كان واضحاً أن عيد الانتخاب يعجبه، خصوصاً أن صورته ستصدر في صحف اليوم التالي على الصفحة الأولى وقد كتب تحتها: «أمين عام الحزب الشيوعي السوفياتي، رئيس مجلس السوفيات الأعلى الرفيق ل.إ. بريجنيف يقترح. . .».

وعندما سُدِّدت نحوي عدسات كاميرات التصوير الفوتوغرافي والتلفزيوني والسينمائي أحسست كم سيكون الوضع محرجاً تمتد قائلاً: «لن يمشي الحال. . إن هذا من مظاهر عهد الركود»، وأسقطت الورقة في الصندوق بسرعة وهرعت نحو الباب. وأعتقد أن أحداً لم يفلح في تصويري لحظة اقتراعي الاحتفالية. كان المصورون يتدافعون، فاشفقت على أعضاء لجنة الانتخابات في هذا المركز لما

تسبب به مجيئي، وحاولت الإسراع بالخروج قدر استطاعتي حتى أخرج معي هذه الجماهرة الصحفية الهادرة.

وبقيت حوالى نصف ساعة مطوّقاً لا أستطيع اختراق الحصار، فوقفت أجيب على الأسئلة المتعلقة بالانتخابات وفرص النجاح والماضي والحاضر... وأخيراً تمكّنت من الإفلات مع عائلتي فاتجهنا إلى بيت ابنتي الكبرى القريب والجميع يلحقون بنا. توارينا في الشقة لنلتقط أنفاسنا بهدوء والتمعّن في ما يجري اليوم من أحداث مهمة. إنه يوم مصري.. ففيه ستحدد نتائج الصراع بيني وبين منافسي والجهاز.

كان أعوانى الانتخابيون المخلصون منتشرين في كل مراكز الاقتراع أولاً لمراقبة عدم حدوث أي تزوير ممكن (وكنّت أثق أن أحداً لن يتجرأ على القيام بأي تزوير)، وثانياً لإبلاغي بالنتائج الأولية أولاً بأول.

كان قلقنا واهتمامنا ينصبان على كل رقم، بل على كل صوت، ذلك أننا علمنا بالقرار المفاجيء، الذي اتخذ، وهو إلحاق أصوات كل العاملين السوفييات في الخارج - ٢٩ بلداً - بدائرة موسكو الانتخابية الكبرى. لعل هذا الإجراء كان المحاولة الأخيرة من قبل الجهاز للتأثير على نتائج الانتخابات. وكان معروفاً لدى الجميع أن هذه الأصوات لن تكون سارة.. ففي السفارات سيصوت الجميع، الطائعون، على النحو الذي سيفعله السفراء. لا علينا، كان ذلك خارج البلاد، وينبغي أن نركز جهودنا في الداخل، هنا في موسكو كي تأتي النتائج لصالحنا مهما كان أمر أصوات الخارج مؤسفاً.

عندما يشّ الصحفيون المتجمعون أمام بيت ابنتي الكبرى من

الانتظار، انفرط عقدهم وتفرقوا، فصار بإمكاننا الخروج والتنزه في شوارع المدينة.. أي نزهة بديعة كانت اليوم.. الناس يمرون بنا يحيون ويتسمون ويتمنون الفوز.

جاء المساء وصدرت النتائج الأولية.. كان تفوقي واضحاً في كل مراكز الدائرة..

بوريس نيقولايفيتش! أنت تحظى بتأييد في كل أنحاء البلاد، ومع ذلك فمن الغريب أن تنتخب مندوباً عن كيريليا إلى الكونغرس الحزبي. لماذا لم تنتخب في موسكو أو سفيردلوفسك؟

أخبرنا من فضلك، لماذا لم يدعمك غورباتشوف في الكونغرس؟

هل تذكر تشيكيريف؟ عمّن كان يدافع عندما دقّ على صدره؟

ألم تكن تفضل توجيه النقد إلى عبادة الفرد، التي ميّزت تصرفات الأمين العام، في الاحتفال بذكر ثورة أكتوبر السبعين وليس في المؤتمر الحزبي التاسع عشر؟ ألم يخنك جسّ اللحظة السياسية؟

(من الأسئلة التي وجّهها الموسكوفيون أثناء اللقاءات والاجتماعات الانتخابية)

استعد الجميع للكونغرس الحزبي التاسع عشر: القيادة وجهاز اللجنة المركزية، حيث توقع المجتمع ككل والحزب حدوث أمور مهمة فيه. ويمكن القول الآن إن الكونغرس استطاع أن يدفع تطور

المجتمع نحو الأمام، غير أنه لم يستطع أن يتحوّل لحظة انعطاف تاريخي في حياة البلاد، كما كان متوقعاً. ذلك أن بعض قراراته جاءت أكثر محافظة من وضع المجتمع آنذاك. وعلى سبيل المثال فإن اقتراحاً يهدف إلى دمج وظائف القادة الحزبيين والسوقيات بعضها مع بعض - ابتداء من الأمين العام وانتهاء بأمناء منظمات المناطق - كان بالنسبة إلى المواطنين مثل قصف الرعد في سماء صافية. حتى أن ستالين، على ما أذكر، لم يسمح لنفسه بدمج هاتين الوظيفتين... وكان أن الناس عارضت الاقتراح بقوة في حين انصاع مندوبو الكونفرانس واتخذوا توصية في هذا الصدد.

وكما ذكرت جرى التحضير للكونفرانس على قدم وساق، وجاء انتقاء المندوبين دقيقاً وحذراً فوق العادة وفق تعليقات صادرة عن اللجنة المركزية. وقد ساهم رازوموف نائب رئيس قسم التنظيم في اللجنة المركزية بنشاط في تنظيم عملية الانتخابات التزويرية. فقد كانت كل مسائل التنظيم والكوادر عملياً بين يديه، ولهذا السبب تجلّت الذاتية والإبعاد والانحياز والكراهية والحماية كمعايير لعملية الانتقاء بصورة تامة.

آنذاك كنت أعيش حالة النفي وأعمل في وزارة البناء، وبالتالي لم يكن لدى قيادة الحزب والسلطات، بالطبع، أي نية في رؤيتي أعود مجدداً إلى الحياة السياسية. أما أنا، فقد كنت أشعر بالقوة والرغبة للشروع عملياً من جديد في النشاط، حيث إن مبادئي لم تكن تسمح لي بالخروج من ساحة الصراع السياسي.

حينذاك، أيضاً، كان التعتيم ما يزال يجلّل مداخلتي التي ألقيتها في دورة اللجنة المركزية المنعقدة في تشرين أول (أكتوبر)، ولم يكن الشعب يعرف عنها شيئاً.

وبدأت المنظمات الحزبية المنتشرة في أنحاء البلاد ترشحي لأكون مندوباً إلى الكونغرس، فكانت مهمة الجهاز الأولى الحؤول دون ذلك. كنت وزيراً، والمصب كبير بما فيه الكفاية، ولم يكن ثمة شك أن الوزراء سيُنتخبون مندوبين. ونظرت حولي في منظمات المناطق لأرى الجميع يُنتخبون باستثنائي. ساد صمت كامل، وبالطبع كان ثمة فرصة واقعية ألا أُنتخب. في البداية لم يخطر ببالي واقعية مثل هذه الفرصة إذ بذل الجهاز جهوداً فائقة حتى لا أصل، ومراً بعض الوقت وسرعان ما تبين أنني كنت الوزير الوحيد الذي لم يُنتخب، عندئذٍ أدركت جدية الأمر.

اعتبرت أنه من الضروري أن أكون موجوداً في الكونغرس الحزبي التاسع عشر، بل ومن الضروري أن أشارك بإلقاء كلمة. ولكن ما العمل وقد نجح الجهاز الحزبي الذي يتحكم بالانتخابات في إبعادي؟ لم أكن أعرف ماذا يجب عمله. ومن ناحية أخرى، لم أعمد إلى الاتصال بالقيادة، بغورباتشوف أو أعضاء المكتب السياسي، لمطالبهم بأي شيء بوصفي عضواً في اللجنة المركزية. . وإن هذا ليس بالتدبير الشريف.

ولم أخف عن نفسي أن الكونغرس الحزبي التاسع عشر سيتيح لي الإمكانية لأشرح للناس ماذا حدث في دورة تشرين أول (أكتوبر) أولاً، ولأخرج من حالة العزلة السياسية والعودة مجدداً للمشاركة ثانية في حياة البلاد الاجتماعية في آخر فرصة. ولقد كنت أعتبر دائماً، وما زلت، أن في مداخلتي إياها لم تتضمن خطأ سياسياً ما، ولذا فقد ملأتني الثقة في أن اعتلائي منبر الكونغرس، متوجهاً إلى مندوبيه وإلى شيوعيين البلاد والناس عموماً سيعيد كل شيء إلى نصابه. ولو حدث ولم أُنتخب لكان ذلك ضربة أكيدة أمني بها. ولذا، لم أحاول

حتى التنبؤ بما يجب عمله إذا انعقد الكونغرس ولم أكن موجوداً فيه كمندوب. ألعني كنت رحلت عن موسكو؟ أو كنت شاهدت الكونغرس على شاشة التلفزيون؟ أم كنت طلبت من رازوموف منحني بطاقة دعوة؟... لا، بل إني لا أريد حتى مجرد التفكير في الافتراضات في هذا الشأن. كان يجب أن أكون مندوباً، لم يكن هناك خيار آخر.

وعلت أصوات المؤسسات في سفيردلوفسك وموسكو ومجموعات من مدن أخرى، وراحت تتخذ قرارات انتدائي إلى الكونغرس. ووقف الجهاز حتى الموت، فكان ذلك يحدث على خلفية التقاليد التي كانت متبعة في أكثر العهود ركوداً، علماً أن الپيرسترويكا قد بلغت من العمر ثلاث سنوات.

أما القاعدة التي اعتمدت فهي التالية: تعتمد المنظمات الحزبية إلى اقتراح ترشيح كثرة من الأسماء التي ترسل إلى لجنة المنطقة الحزبية حيث تغربل وترسل بشكلها المستجد إلى لجنة المقاطعة الحزبية فتغربل مجدداً وترسل في النهاية إلى لجنة الإقليم أو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الجمهورية المعنية. وكان يُبقى على الاسم الذي يتصور الجهاز أنه لن يشوش على الكونغرس وسيكون مطيعاً سواء في الكلام أو في التصويت. وهذا نظام مثالي وذو فاعلية كبرى. . وهكذا يمكن لإسم يلتسين أن يسقط في مراحل الغربة الأولى قبل بلوغه مستوى القيادات العليا.

وكما سبق وذكرت، أعرب الموسكوفيون عن فعالية بترشيحي في كثير من المؤسسات دون مستوى لجنة منظمة المدينة، ثم فجأة وعلى مستوى ما يتلأشى اسمي كمرشح. وكان هناك أيضاً العديد من مؤسسات إقليم سفيردلوفسك التي اختارني لأكون مندوباً عنها (أورال

ماش، المصنع الميكانوكهربائي، أورال كيماش،...) فاضطرت لجنة الإقليم الحزبية تحت هذا الضغط الكبير إلى اتخاذ قرار بتزكيته، إلا أن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فهناك بعد اجتماع منظمة الحزب الإقليمية الكامل، حيث اشتعل حريق انفجالات كبير في هذا الصدد.

فعندما هدد العمال بإعلان الإضراب، ولم يستطيع الاجتماع الكامل اتخاذ قرار، وشعوراً منه بأن زمام الأمور يفلت من بين يديه وهو يرى التوتر يتصاعد أكثر فأكثر، قرّر زعماء اللجنة المركزية أن يتراجعوا.. وهكذا تم انتخابي مندوباً في آخر اجتماع حزبي عقد عملياً، وكان في كاريليا، مع اثني عشر مندوباً آخرين.

في تلك الفترة تكوّنت أوضاع عدة اتسمت بالحدة. رويت آنفاً أن اسمي كان ممنوعاً على الصحافة السوفياتية نشره، إبان فترة العزل السياسي.. ذلك أن شخصاً اسمه يلتسين لم يكن موجوداً البتة في عرفهم. أما المراسلون الغربيون فغالباً ما كانوا يطلبون إجراء مقابلة أو حديث، وكان بينهم مراسلو ثلاث وكالات أنباء أميركية، كانت «السي.بي.إس» إحداها. كان من الصعب علي أن أفهم لماذا عمد الأميركيون إلى مَنَتَجَة إحدى إجاباتي أثناء إذاعة أحد البرامج، الأمر الذي تسبب في حدوث فضيحة كبيرة. فقال غورباتشوف في أحد مؤتمراته الصحفية: سنرى الأمر معه (أي معي)، فلماذا نسي ماذا يعني الانضباط الحزبي وأنه ما زال عضو اللجنة المركزية فسنذكره.. شيء ما من هذا القبيل.

إضافة إلى هذه الفضيحة وقع حادث ثان مؤسف بالنسبة إلي. فقبيل انعقاد الكونغرس اتصل بي فجأة المراقب الصحفي في مجلة «أوغينيوك» ألكسندر رادوف و اقترح علي إجراء مقابلة طويلة لنشرها

في المجلة. ورغم أن العرض من قبل مجلة شعبية واسعة الانتشار - وأنا من قرائها الدائمين - أتى لطيفاً وحمل غخاطرة إجراء المقابلة، إلا أنني رفضت. وقلت للصحافي: «ستحدث معكم طويلاً، وستحضر نص المقابلة وتبدلون الجهد، وبعدها سيمنع نشرها». ولكن رادوف أصر قائلاً إن «أوغينيوك» مجلة قوية، ولن نعرض النص على أحد، فرئيس التحرير ف. كوروتيتش يتحمل مسؤولية كل المواد الحادة، واستمر مصرّاً حتى وافقت على إجراء الحديث. وبالفعل فقد استغرقنا إعداد المقابلة وقتاً طويلاً، فهي بالنسبة لي أول حديث صحفي أدلي به للصحافة السوفياتية عقب دورة تشرين أول (أكتوبر)، ولذا، فقد كنت مهتماً كثيراً بها. ومن الطبيعي أن يبحثي رادوف يوماً ليخبرني أن مواد الحديث منعت من النشر في المجلة، إذ قرر كوروتيتش عرضها في اللجنة المركزية حيث طوبل بعدم إجازة نشرها.

ولم أتعجب كثيراً مما حدث، إذ كنت مستعداً لتقبّله بيني وبين نفسي.. ورغم ذلك فقد انزعجت كثيراً بالطبع. فليس أسوأ، من منطلق نفسي، أن يشعر المرء أنه أبكم في بلاده، وغير قادر على مخاطبة الناس وشرح الأمور لهم. ولكن أكثر ما أذهلني في هذه الواقعة أن ف. كوروتيتش راح يقول فجأة في مقابلاته إنه لم يعمد إلى نشر الحديث معي لأنه لم يكن حديثاً جيداً وأنني أجبت على أسئلة غير تلك التي طرحتها المجلة، خصوصاً أنني لم أتكلّم على عملي الجديد.. وقال إنه يجب على وجه العموم العمل أكثر على إعداد المقابلة... وباختصار أثار رئيس التحرير أخذ المسؤولية على عاتقه مغطياً طلب قيادة اللجنة المركزية بنفسه. لماذا؟ أيعقل أنه لم يكن يفهم أنه من اللاأخلاقية منع المرء من التعبير عن أفكاره إذا كان معارضاً حتى للأمين العام؟ من إذن - إذا لم يكن هو، الصحافي -

سيدافع عن مبدأ حرية الكلمة الإنساني؟. ولكنه ارتأى أن يمالئ
ويعبث ويختلق عكس ما كان واقعاً.. كان باستطاعته أن يصمت على
الأقل وببساطة إذا كان خائفاً على مستقبله.. لكان ذلك أشرف.

على هذه الصورة المتوترة والعصبية دنا موعد انعقاد الكونغرس.
كان كل يوم يحمل أخباراً جديدة.. قليلها سار وأكثرها سيء
منكد.. وقتها كنت بدأت أنسى معنى الخبر السار!

انعقد الكونغرس في قصر المؤتمرات بالكرملين. اعتراني القلق
عندما توجهت لحضور جلسة الافتتاح. فبعد ذلك الكم من
الإشاعات وبعد «مؤامرة الصمت» الطويلة ظهرت أمام الناس مدركاً
مدى التنوع الذي ستكون عليه ردات فعلهم. فثمة أمور كثيرة
للفضول جعلتهم يرغبون في ملاحظتي وملاحقتي بالنظرات..
وشعرت بنفسي مثل فيل في حديقة حيوانات.. ومن الأشخاص
الذين عرفتهم من أشاح بنظره عني جنباً خشية أن يتلوث من
«المجذوم». وشعرت بالغربة، فأثرت البقاء في مكاني وقت
الاستراحة.. ومع ذلك وجد بعض الأشخاص الذين اقتربوا مني
بهدهوء وتبادلوا معي الحديث متسائلين عن أحوالي ومعربين عن
تضامنهم بكلمة أو ابتسامة أو نظرة.

كان وفد كاريليا يجلس في مكان بعيد، في أقصى البلكون. ولم
يكن بين رؤوسنا وبين السقف سوى مترين، وبالكاد كنا نرى منصة
هيئة الرئاسة. واستمرت المداخلات، وكالعادة، متنوعة: مشيرة
وجريئة رغم كونها معدّة سلفاً مختومة أو مهربة من تحت أعين الجهاز.
وبالرغم من كل شيء، كان الكونغرس خطوة كبيرة إلى الأمام.
ف للمرة الأولى يجري في هيئاتنا الحزبية العمومية تصويت غير إجماعي

على بعض التوصيات والقرارات . وكنت قد هيات نفسي لألقي مداخلتني على نحو قتالي مضمناً إياها طرح مسألة إعادة الاعتبار السياسي إلي .

فيما بعد، إثر انتهاء الكونغرس، انهمرت علي الرسائل من كل حذب وصوب تُعرب عن الدعم والتضامن، مع أن كثيراً من كاتبيها ألقوا اللوم علي في أمر واحد مشترك هو: «ما بالكم لا تعون أن معظم مندوبي الكونغرس «منتخبون» بالطريقة إياها؟ فهل يمكن الطلب من أناس كهؤلاء أن يعيدوا لكم الاعتبار السياسي؟» . وكتب أحد المهندسين - اعتقد أنه من لينينغراد - أن «قولاند» في رواية بولغاكوڤ «المعلم ومارغريت» قال: «لا تَرْجُ شيئاً من أحد أبداً. . .» ولقد نسيّت هذه القاعدة المقدسة» .

ومع ذلك اعتقد أي كنت محقاً بطرح قضية إعادة الاعتبار السياسي أمام المندوبين . كان من المهم جداً أن أحدد موقعي وأعلن بوضوح أن قرار اجتماع اللجنة المركزية الكامل بإعلان مداخلتني خاطئة سياسياً، كان في حد ذاته خطأ سياسياً ولا بد من الرجوع عنه . ولم تكن لدي أوهام كثيرة، ولكني أملت في إصلاح الخطأ.

في نهاية المطاف أعيد اعتباري من قبل الجماهير . فقد صوّت لي تسعون بالمائة من الموسكوفيين، وليس ثمة أغلى وأثمن من إعادة اعتبار كهذه. . . ولم يعد مهماً أن ترجع اللجنة المركزية عن قرارها، فالمهم أن ذلك أصبح أكثر أهمية بالنسبة إلى غورباتشوف نفسه وإلى اللجنة المركزية ككل .

ولكني، بالمناسبة، ركضت إلى الأمام . كان ينبغي المطالبة بحق الكلام والتعبير . . . وكنت أدرك أنه سيُعمل المستحيل كي لا يسمح لي

باعتلاء المنبر. فمَنظَّمُوا الكونفرنس يعلمون أي مداخلَة انتقادية ستكون مداخلتي، وهم لم يودوا سماعها على أي حال.

وهذا ما حدث فعلاً. يوم، يومان، ثلاثة، أربعة، وها هو اليوم الخامس والأخير يكاد يمضي.. وأنا أفكر كل الوقت ماذا يجب عمله حتى أتكلّم؟ لائحة طالبي الكلام طويلة، ويمكن دائماً اختيار أسماء أولئك الذين لا خطر منهم إذا تكلموا..

وجهت أول رسالة إلى هيئة الرئاسة مذكراً بدوري في الكلام.. فلم يرد جواب. ووجهت الثانية وكانت النتيجة نفسها. هكذا إذن، لم يبق إلا أن أقترح المنبر بهجوم، خصوصاً أن رئيس الجلسة أعلن قبل حوالي أربعين دقيقة على الاستراحة أن الكونفرنس سيتنقل بعدها إلى التصويت على التوصيات والقرارات. ولما علمت أن اللائحة لا تتضمن اسمي قررت اللجوء إلى الخطوة الهجومية. وتوجهت إلى وفدنا بالقول: «أيها الرفاق ليس أمامي سوى مخرج واحد، يجب أن أحتل المنبر»، فوافقوني. وهكذا مشيت الطريق الطويلة إلى المنبر هابطاً السلم وعابراً القاعة العظيمة. سرت وأنا أرفع بطاقة الانتداب الحمراء متوجهاً بخطى ثابتة نحو هيئة الرئاسة.

وعندما بلغت منتصف الطريق أدرك الجميع ماذا سيحدث، وحتى الرئاسة فهمت. كان الخطيب من طاجكستان على ما أعتقد وعندما رأي صمت مرة واحدة. وبشكل عام تعلّق في الهواء صمت ثقيل كالْموت.. وأنا أخترقه رافعاً بيدي البطاقة وسائراً نحو الأمام وقد تسمّرت عينا في عيني غورباتشوف من بعيد. كنت وأنا أخطو أسمع تنفس خمسة آلاف ونيف من المندوبين وأشعر بعيونهم ترمقني بالنظرات. اقتربت من منصة الرئاسة وصعدت ثلاث درجات ودنوت من غورباتشوف وأنا أرفع البطاقة ناظراً في عينيه وقائلاً بصوت قاس:

«إني أطالب بإعطائي الكلام أو يعرض طلبي على التصويت أمام الكونغرس جميعاً». مرت لحظات صمت وأنا واقف، وأخيراً نطق: «اجلس في الصف الأول». وجلست في الصف الأول بالقرب من المنبر. ولاحظت أن أعضاء المكتب السياسي بدأوا يتشاورون في ما بينهم، ثم ما لبث أن استدعى غورباتشوف رئيس القسم العام في اللجنة المركزية وراح يتحدثان ثم ابتعد، وبعد فترة قصيرة رأيت مساعده يتجه نحوي. قال: «بوريس نيقولايفيتش، هلاً سمحت بالدخول إلى غرفة هيئة الرئاسة. . إنهم يريدون التحدث معك». قلت: «من يريد التحدث معي؟»، قال: «لا أعرف»، قلت: «لا. هذا الخيار لا يلائمني. سأبقى جالساً هنا»، فابتعد الرجل. وشاهدت رئيسه - رئيس القسم العام في اللجنة المركزية - يتحدث مجدداً مع هيئة الرئاسة. . وها هي ربما حركة عصبية ثانية. وعاد الرجل نفسه ليقول لي إن أحداً من القادة سيخرج للتحدث معي.

كنت أعلم أنه لا يجوز أن أخرج من الصالة. . فإذا ما أوصدت الأبواب بوجهي فلن تفتح مطلقاً، فقلت: «حسناً، سأذهب، ولكني سأنظر من ذا الذي سيخرج للتحدث معي من هيئة الرئاسة». وأسير على مهل في الممر بين الصفوف فأسمع تمتات مندوبي الصفوف الأولى تقول: «لا، لا تخرج من الصالة»، وتابعت السير حتى أصبحت على بعد ثلاث أو أربع خطوات من المخرج فتوقفت وجعلت أنظر إلى الرئاسة لأرى من سيخرج. وحيث وقفت كانت تجلس مجموعة من المراسلين أخذت تهتف لي همساً: «بوريس نيقولايفيتش، لا تخرج!». كنت أعني تماماً أنه ليس من الجائز أن أخرج من الصالة. ولم ينهض أحد من القاعدين على منصة الرئاسة. واستمر الخطيب في إلقاء كلمته. وما لبث أن دنا مني شخص قال لي: إن ميخائيل

سرغيثيتش قال إنه سيعطيني الكلام، ولكن علي العودة إلى مكاني ضمن وفد كاريليا أولاً. وأدركت أنه فيما سأرجع إلى مكاني بانتظار الإذن والعودة مرة ثانية سيتحول النقاش في اتجاه آخر ولن أعطي الكلام. أجبت بالرفض وقلت إنني سبق واستأذنت وفدي بطلب الكلام، ولذا فلن أعود إلى مكاني، والمقعد في الصف الأول لا بأس به، فهو يعجبني. . . وعدت إلى المكان نفسه بمواجهة غورباتشوف تماماً.

هل كانت لديه النية فعلاً إعطائي الكلام أم أنه حسبها فوجد الخسارة كل الخسارة في عرض الأمر أمام الكونفرنس للتصويت؟ من الصعب القول. . . وأخيراً أعلن عن إعطائي الكلام وأنه بعد الاستراحة سيتنقل الكونفرنس إلى اتخاذ التوصيات.

اعتليت المنبر فساد صمت ثقيل. وبدأت أتكلّم. وهاكم مداخلي كما وردت في محضر الكونفرنس النهائي :

«أيها الرفاق المندوبون! يجب بادئ ذي بدء أن أرد على ما طالب به المندوب الرفيق زاغينوف بصدد بعض المسائل.

المسألة الأولى: لماذا أدليت بأحاديث إلى شبكات التلفزة الغربية وليس إلى الصحافة السوفياتية؟ أجيب: توجهت إلي «نوفوستي» فأجريت مقابلة قبل وقت طويل من الإدلاء بأي شيء للوسائل الخارجية، لكنها لم تنشرها في صحيفتها «موسكوفسكي نوفوستي».

وعادت ثانية وطلبت مني إجراء مقابلة، ولكن لم يكن ثمة ضمانة في أنها ستُنشر. ثم توجّهت إلي هيئة تحرير مجلة «أوغينيوك» بالطلب نفسه فأجريت معي مقابلة على امتداد ساعتين ولكنها لم تنشر رغم مرور شهر ونصف. وبحسب ما أعلنه الرفيق كوروتيتش،

ولعلمكم، لم يُجز نشرها.

المسألة الثانية: لماذا لم أتكلم «بوضوح» في الاجتماع التنظيمي الكامل الذي عقده منظمة الحزب في العاصمة؟ أجيب: لقد كنت مريضاً بصورة جدية وطريح الفراش وممنوع علي مغادرته. وقبل انعقاد الاجتماع بحوالى الساعتين استدعيت للمشاركة فيه، وحقني الأطباء بأدوية مهدئة ذات تأثير تخديري. ولذا، فقد كنت أجلس لا أعني شيئاً مما يدور حولي، فكيف كان بإمكانني الكلام؟

تالياً، تردني رسالة من هيئة الإذاعة والتلفزيون العامة تتضمن تفسيراً ورجاء مفادها أنه نظراً لانعقاد الكونغرس فقد كُلفت الهيئة بتنسيق المقابلات التي تُعطى لشبكات التلفزة الأجنبية من قبل القادة، وهم يرجونني إجراء بعض المقابلات مع الشبكات المذكورة.

حتى ذلك الوقت تجمع لدي حوالى خمسة عشر طلباً لمقابلات. وقد أخبرت النائب الأول لرئيس هيئة الإذاعة والتلفزيون العامة الرفيق كرافتشنكو، أنه ليس في استطاعتي إجراء أكثر من مقابلتين أو ثلاث على الأكثر نظراً لضيق الوقت. فجاء الرد من الهيئة هاتفياً أنه تحددت ثلاث مقابلات مع شبكات التلفزة التالية: «بي. بي. سي» و «سي. بي. إس» و «إي. بي. سي». وما حدث أنني عمدت فعلاً إلى إجراء المقابلات الثلاث في مكنتي. كانت الردود على الأسئلة مباشرة، وقد رددت على بعض الأسئلة المغلوطة - التي أمكن أن تحمل ضرراً لدولتنا ولسمعتها - بشكل حازم.

وكانت ثمة أسئلة متعلقة بالرفيق ليغاتشيف. قلت إن لدي وجهة نظر واحدة تتفق مع وجهة نظره في ما يتعلق باستراتيجية الحزب وقرارات المؤتمر ومهامات البيروسترويك. وقلت أيضاً أن هناك بعض

الاختلافات المتعلقة بتكتيكات الپيرسترويكيا ومسائل العدالة الاجتماعية وأسلوب العمل . . إلا أنني لم أخض في التفاصيل . وكان أيضاً السؤال التالي : «هل تعتقدون أنه لو كان هناك شخص آخر مكان ليغاتشيف لسارت الپيرسترويكيا بوتائر أسرع؟» فأجبت بنعم . ولأن كلامي شُوّه على يد شبكة «سي. ب. إس» الأميركية، فإنها تقدمت بالاعتذار عن هذا الخطأ برسالة تحمل توقيع نائب رئيسها .

فيما بعد، استدعاني الرفيق سولوميتيسيف وطالبني بتوضيح . فأعربت عن انزعاجي من الاستدعاء بسبب هذه المسألة، وأجبت على كل الأسئلة المطروحة شفهاً حول كل ما يتعلق بالمقابلة التلفزيونية . وأخفقت محاولات إدانتي وفق النظام الداخلي للحزب . وأنا أعتبر نفسي غير مخطئ البتة في المسألة المذكورة . وقد زوّدت الرفيق سولوميتيسيف بشرط تسجيل كامل للمقابلة عبر مترجمينا . ماذا ستفعلون بعد بي لا أعلم، ولكن هذه الظلال تذكرني كثيراً بالعهود البائدة غير البعيدة .

وأنقل الآن إلى صلب المداخلة .

أيها الرفاق المندوبون! إن الموضوع الرئيسي في هذا الكونغرس، كما أُريد له أن يكون، هو إشاعة الديمقراطية في الحزب، أخذاً بعين الاعتبار أنها عملية أصيبت بالتشوه وسارت في الاتجاه الأسوأ . ومن المواضيع الساخنة التي ثار النقاش حولها اليوم موضوعا الپيرسترويكيا والتجديد الثوري للمجتمع . وقد حظيت مرحلة الإعداد للكونغرس باهتمام فائق وآمال عريضة لدى الشيوعيين وعموم المواطنين السوفييات . لقد هزّت الپيرسترويكيا الناس . . وكان يجب، على ما يبدو، أن تبدأ الپيرسترويكيا من الحزب وبه على وجه التحديد، لتجر بعد ذلك الآخرين جميعاً . إلا أن الحزب قد تخلف

من وجهة نظر الپیرسترویکا، وأستخلص إذن أن هذا الكونفرنس كان يجب أن ینعقد منذ زمن بعيد. هذه هي وجهة نظري الشخصية.

ومع، ذلك، جرى التحضير له الآن بنجاح.

وحتى قبیل انعقاده لاحظنا تأخراً، هو أقرب إلى اللحاق بالركب قبل قوَّت الأوان، في نشر الوثائق من قبل جهاز اللجنة المركزية. كما لم تتضمن الوثائق الإشارة الأكثر أهمية في ما يتعلق بموضوع النظام السياسي، الأمر الذي انعكس في التقرير الرئيسي. ولم يسهم أكثرية أعضاء اللجنة المركزية في صوغ موضوعاته.

أما بصدد انتخابات المندوبين، فبغض النظر عن محاولات الرفیق رازوموف في صحيفة «پراڤدا» إقناع الجميع بأنها كانت ديموقراطية، إلا أنها في الواقع جرت في عدد من المنظمات وفق الكليشوهات القديمة نفسها، مما يثبت أن جهاز القيادة العليا لا يريد السير في عملية الپیرسترویکا.

ولكن النقاش في الكونفرنس مشير، والمهم الآن أي قرارات ستتخذ. هل سترضي القرارات شيوعي البلاد والمجتمع عموماً؟ وبالحكم على اليوم الأول ساد الجو حرص وحذر شديدان، أما في الأيام التالية فقد تصاعد الحماس شيئاً فشيئاً، بحيث أصبح من الشيق الاستماع إلى المندوبين، أمل أن ینعكس هذا في القرارات التي ستتخذ.

أودُ الإدلاء ببعض الملاحظات والاقتراحات المتعلقة بموضوعات اللجنة المركزية مع الأخذ بعين الاعتبار خطاب الرفیق غورباتشوف.

في صدد النظام السياسي. أعتقد هنا أن الأمر الرئيسي يجب أن

يكون اعتماد آلية في الحزب والمجتمع تقف حائلاً دون الوقوع في أي أخطاء، وتغطي أخطاء العهد البائد القريب التي قذفت بالبلاد عشرات السنوات إلى الوراء، وكي لا يتكوّن «زعيم» أو «زعامة»، وليكون في استطاعتها خلق سلطة شعبية حقيقية، وبما يعطي لذلك ضمانات حاسمة.

أما الاقتراح الوارد في تقرير الأمين العام القاضي بدمج وظائف أمناء المنظمات الحزبية والهيئات السوفياتية، فقد كان مفاجئاً وغير متوقّع بالنسبة إلى المندوبين، حيث قال أحد العمال في مداخلته هنا إنه «ليس مفهوماً بعد» بالنسبة إليه. وأنا، بوصفي وزيراً، أقول: ليس ذلك مفهوماً بالنسبة إلي أيضاً. ينبغي أن تُمنح بعض الوقت للتفكير، لأنه موضوع معقد، ثم إنني أقترح إجراء استفتاء شعبي حوله. (تصفيق).

بعض الاقتراحات بصدد الانتخابات: يجب أن تكون عامة، مباشرة، سرية، بما في ذلك انتخاب أمناء اللجنة المركزية والأمين العام من تحت إلى فوق ومن بين أعضاء مكاتب المنظمات الإقليمية أو المكتب السياسي المنتخبين من قبل الشيوعيين بالطريقة نفسها (أي اعتماد ما يشبه دورتي انتخاب). وهذا يجب أن يشمل مجلس السوفيات الأعلى والنقابات والكومسومول. وأقترح أيضاً، ودون أي استثناء، وخصوصاً بالنسبة إلى القيادة العليا، ألا يبقى أعضاؤها المنتخبون في مناصبهم لأكثر من ولايتين، بحيث لا ينتخبون في الولاية الثانية إلا بناء على نتائج أعمالهم وإنجازاتهم الفعلية التي أسفرت عنها ولاية السنة الأولى. ويجب تحديد عمر أعضاء الهيئات المذكورة (بما في ذلك المكتب السياسي) على ألا يتجاوز الخامسة والستين. تبدأ مهلة الولايتين من الانتخابات السابقة، ويبدأ بضبط

الأعمار من السنة الحالية .

لقد نما حزبنا ومجتمعنا إلى درجة يوثق معها بهما للتصدي لحل هذه المشكلات باستقلالية، وإن الپیرسترویکا ستربح من ذلك ولن تخسر .

ما ذكرته سيشكل برأيي ضمانة محدّدة بوجه أي عبادة للفرد تولد فوراً إذا وجدت التربة الصالحة وليس بعد ١٠ - ١٥ سنة. أما نظام الحزبين الحاكمين الذي اقترحه بعضهم فلا يشكّل برأيي هذه الضمانة. أعتقد أنه علينا الآن أن نكون شديدي الحرص، ذلك أن إهمال المبادئ اللينينية في السنوات الماضية سبّبت مصائب كثيرة للشعب. يجب أن تكون هناك عوائق قاسية يفرضها النظام الداخلي والقانون.

في بعض البلدان يسود العرف التالي: بخروج القائد تخرج القيادة، أما عندنا فقد اعتدنا محاكمة الموق وإدانتهم، الأمر الذي لا يعود بأي نفع. . وحالياً ينتج أن المتسبّب بالركود هو بريجنيف وحده. ولكن أين كان أولئك الذين أمضوا ١٠ - ١٥ - ٢٠ سنة، وما زال بعضهم الآن موجوداً، في المكتب السياسي. أما كانوا يصوتون كل مرة على برامج مختلفة. لماذا لا ذوا بالصمت عندما كان يقرر جهاز اللجنة المركزية، وحده في أكثر الأحيان، مصير الحزب والبلاد والاشتراكية؟ لماذا جاؤوا بتشرنيكو، الرجل المريض؟ لماذا خشيت لجنة الرقابة الحزبية من استدعاء كبار قادة الجمهوريات والأقاليم للتحقيق معهم في الرشاوى والخسائر التي تسببوا بها للدولة بالملايين، في حين أنها كانت تقيم الدنيا بسبب مخالفات صغيرة. والجدير بالذكر أن هذه اللجنة تعلم أموراً كثيرة وخبايا أكثر. يجب القول إن هذه الليبرالية من جانب الرفيق سولومينيتسيف حيال أصحاب الملايين

المرتشين مبعث قلق معين.

إني أعتبر بعض أعضاء المكتب السياسي مخطئين بوصفهم أعضاء في هيئة قيادة جماعية مخضتهم اللجنة المركزية والحزب ثقتهم، وعليه فيجب أن يُسألوا: لماذا بلغت البلاد والحزب هذا المبلغ؟ بعد ذلك يجب الخروج باستنتاج: طردهم من المكتب السياسي. (تصفيق). لعل هذه الخطوة أكثر إنسانية من توجيه النقد إليهم بعد معاتهم كي لا يصار إلى دفنهم مرة ثانية!

أقترح اعتماد النظام التالي في المرحلة المقبلة: إذا تغير الأمين العام يُعمد إلى تجديد المكتب السياسي باستثناء الأعضاء الذين دخلوه منذ وقت قريب؛ وبصورة رئيسية يجب تجديد جهاز اللجنة المركزية، وذلك للحوول دون غرق الأشخاص في المستنقع الإداري الدائم. وعندها لا يعود المرء موضوع انتقاد بعد موته، مدركاً أنه على الجميع، بما في ذلك الهيئات المنتخبة، مسؤولية تقديم كشف الحساب أمام الحزب.

وثمة أمر آخر، وهو أنه لا يوجد عندنا الآن مناطق قيادية محرمة على النقد - بحسب ما قاله الأمين العام بوضوح - حتى بالنسبة إليه. . . . برأبي أن هذا مغاير تماماً لما هو في الواقع.

إن المنطقة المحرمة على النقد سمة موجودة، إذ سرعان ما يأتي التحذير الصارم كالبرق بعد أول انتقاد يُوجّه: «لا تقرب!»، والنتيجة أن أعضاء اللجنة المركزية أنفسهم يخافون الإعراب عن آرائهم الشخصية إذا تميزت عن التقرير، ويستكفون عن مواجهة القيادة.

إن هذا الواقع يسبب ضرراً هائلاً ويُسوّء الضمير الحزبي والشخصية، ويروّض الأيدي لترتفع موافقة عقب كل اقتراح يدعو إلى إبداء الرأي. ولعل هذا الكونفرنس هو الاستثناء الأول الذي شدَّ

عن القاعدة المتبعة. وحتى الآن أستخلص القول: إن السياسة التي تنتهجها الهيئات القيادية ما تزال، حتى اليوم، تحتفظ باستقلاليتها العvisية على المس والانتقاد وخارج دائرة رقابة الجماهير الشعبية.

ولا بد من الموافقة على اقتراح تضمّنه التقرير يقضي بتشكيل لجان قطاعية من أعضاء اللجنة المركزية، لا يقر أي توصية مبدئية أو قرار مبدئي يصدر عن هذه الأخيرة دون موافقتها عليه بعد بحثه ودرسه. ذلك أن المعمول به الآن أن القرارات لا تصدر عن اللجنة المركزية بل عن جهازها، وغالباً ما يولد أكثرها ميتاً. أما المشروعات الكبرى فيجب أن تناقش في الحزب وفي البلاد على كافة المستويات والرجوع إلى الاستفتاءات الشعبية. ويجب، كقاعدة، رفض اعتماد آلية صدور قرارات مشتركة عن كلاً اللجنة المركزية ومجلس وزراء الاتحاد السوفياتي.

أجل، إننا نفخر بالاشتراكية، ونفخر بكل ما أنجز، ولكن لا يجوز الاسترخاء والتوم على الحرير والاكتفاء. فنحن لم نحل المسائل الرئيسية، كإطعام الناس وإكسائهم وتأمين قطاع خدمات متطور لهم، كما لم نحل المشكلات الاجتماعية الناجمة، وذلك على مدى السبعين عاماً الماضية. والبيرسترويكا إنما نشأت لتحقيق هذه الأهداف، إلا أنها تسير ببطء وانكباح شديدين، وهذا يعني أن كلاً منا لا يعمل ولا يناضل من أجلها كفاية. وثمة أيضاً سبب يعتبر من أهم أسباب المصاعب التي تواجه البيرسترويكا، ألا وهو طابعها البياني (التصريحي). فقد أعلن عنها دون اللجوء إلى تحليل وإف لأسباب الركود الناشئ وإلى تحليل الوضع السائد في المجتمع، ودون تحليل معمق لتاريخ الأخطاء والممارسات المشينة التي ارتكبتها الحزب. فكان من نتائج البيرسترويكا أن انقضت ثلاث سنوات ولم نحل أي مشكلة

واقعية ملموسة للناس، كما إننا لم نحقق أي تغييرات ثورية فضلاً عن ذلك .

إننا، وفي سياق الپريسترويكا، يجب ألا نكتفي بوضع عام ٢٠٠٠ نصب أعيننا كهدف أو أفق (فئمة كثيرون لا يهتمون بما هم حاصلون عليه الآن، فهل سيهتمون بما سيحصلون عليه مستقبلاً؟)، بل يجب مَرَحَلَة العثور على حلول لمشكلات ضمن حقب زمنية قصيرة لا تتجاوز الستين أو الثلاث؛ بما ينعكس بصورة ملموسة على الناس. ينبغي ألا نوزع مواردنا في كل الاتجاهات، بل أن نركزها هناك حيث يمكن الاستفادة من طاقتها (الثروات والعلم وطاقة الجماهير). عندها فقط سيتعاضد الإيمان بالپريسترويكا وإعادة بناء المجتمع وستثمر نتائج وستثبت للناس أنها تخطو إلى أمام ولا عودة إلى الماضي، مما سيجعلهم يسرعون أكثر في المساهمة بحل المشكلات. أما الآن ففئة الناس قابلة للانقلاب في أي لحظة. . إنهم ما يزالون واقعين تحت تأثير التنمويم المغنطيسي للكلام وللشعارات، ولعل هذا ما أنقذ الپريسترويكا حتى الآن. أما في المرحلة المقبلة فأني أرى خطر فقدان زمام الأمور والتهاusk السياسي مائلاً بوضوح.

ولتتكلم قليلاً على الانفتاح والصراحة في الحزب. ينبغي أن تسود في الحزب ظاهرة طبيعية هي ظاهرة تنوع الآراء وتعددتها، وإن وجود رأي متميز للأقلية لا يهدد وحدة الحزب بل يعززها. إن الحزب للشعب، والشعب يجب أن يعرف كل ما يقوم به الحزب. . . وللأسف، إن ذلك غير موجود. وأرى أن تصدر تقارير مفصلة عن المكتب السياسي والأمانة العامة تتضمن كل المسائل، ما خلا تلك التي تعتبر أسراراً للدولة. ولتشمل التقارير معلومات عن حياة القادة وسيرهم الذاتية واهتماماتهم ونشاطاتهم وكم يقبضون وما هي

الإنجازات التي حققوها في قطاعاتهم. ويجب أن تكون هناك برامج متلفزة منتظمة تبني مع الناس جسوراً، وإعلان نتائج قبول الأعضاء في الحزب وتعميم رسائل الكادحين الموجهة إلى اللجنة المركزية. وبشكل عام، يجب أن يشكل كل ذلك سوسيولوجيا حزبية عن الصحة الخلقية لدى قادة الحزب والدولة. . ويجب أن تكون مفتوحة، معلنة، أمام الناس لا يداخلها أي تعقيم أو إسرار.

وهناك أيضاً مواضيع «ممنوعة»، «سرية» كمواضيع تغذية الموازنة الحزبية. فقد جاء في النظام الداخلي: في كيفية إنفاق المال - «تحدد ذلك اللجنة المركزية للحزب الشيوعي»، أي ليس جهازها. . بل اللجنة المركزية. بيد أن موضوعاً كهذا لم يطرح مطلقاً في أي من اجتماعات اللجنة المركزية الكاملة. إني أقترح القيام بذلك مستقبلاً وبصورة حتمية، ذلك أن أحداً لا يعرف أين تنفق أموال الحزب (وهي تعد مئات ملايين الروبلات)، لا من أعضاء اللجنة المركزية ولا من الشيوعيين الآخرين. إن لجنة الرقابة المالية لا تقدم في المؤتمرات أي تقارير.

إنني أعرف، مثلاً، كم من الملايين تُجبى من منظمة العاصمة ومنظمات إقليم سفيردلوفسك الحزبية، ولكني لا أعرف أين تنفق. إني أرى، فقط، (عدا النفقات الواجبة) كيف تبنى البيوت الريفية والعزب والمنتجعات المخصصة لممثلي الأحزاب الأخرى على نحو يشير لدي الخجل، في حين أن الواجب يفرض تعزيز أوضاع المنظمات الحزبية القاعدية ودعمها، بما في ذلك رفع رواتب قادتها. ثم نعجب، بعدئذ، كيف أن بعض كبار القادة الحزبيين ضالعون في الفساد والرشوة وانعدام الأخلاق والنقاء ونظافة الكف والرفاقية الحزبية.

لقد شمل انحلال الشرائح الموثوقة كثيراً من المناطق والمواقع إبان المرحلة البريجينية، فلا يجوز تبسيط الأمور والقصور في التقويم. يبدو أن التحلل والتعفن بلغا درجة أعمق مما يُحِيل إلى بعضهم، وأنا أعرف أن المافيا موجودة في موسكو وجوداً ملموساً ومحددًا.

وأود التطرق إلى مسائل العدالة الاجتماعية. إنها مسائل حُلَّت عندنا، بالطبع، على الصعيد الكبير. على أساس المبادئ الاشتراكية، ولكن بقي بعضها دوناً حل، وهي تثير اشمئزاز الناس وضيقهم وتدفع بسمعة الحزب نحو الحضيض، كما وتؤثر بصورة ممتة على وتأثر البيروسترويك.

ورأيي هو التالي: إنه إذا نقص شيء ما في مجتمعنا الاشتراكي، فإن النقص يجب أن يحسه الجميع دون استثناء وبمستوى واحد. (تصفيق). أما إسهام العمل في بناء المجتمع فيجب أن تحكمه أجور مختلفة، ولا بد في نهاية الأمر من تصفية «المخصصات» الغذائية التي تحصل عليها النomenكلاتورا «الجائعة»، ولا بد من القضاء على النخبوية القائمة في المجتمع، ولا بد من التخلص - شكلاً ومضموناً - من كلمة «خاص» وقذفها خارج قاموسنا، ذلك أنه لا يوجد «شيوعيون خاصون».

أعتقد أنه إذا فعلنا ذلك فسنسدي مساعدة كبيرة للعاملين الحزبيين في علاقتهم مع الناس، وهو ما سيدفع البيروسترويك إلى الأمام.

أما في موضوعي بنية الجهاز الحزبي وتقليصه فأقول: إنه لا يمكن تحقيق النداء اللينيني: «كل السلطة للسوفيات!» ولدينا هذا الجهاز الحزبي الضخم، لذا فإني أقترح تقليصه في منظمات الأقاليم مرتين أو ثلاث مرات، وفي اللجنة المركزية من ست مرات إلى عشر مع تصفية

الأقسام القطاعية .

وأود هنا أيضاً ملامسة قضية الشبيبة . إن الموضوعات التي بين أيدينا لم تلحظ بصدها أي شيء تقريباً . أما في التقرير فقد ورد شيء كثير ، وإنني لأدعم اقتراحاً بتبني توصية منفصلة في ما خص الشبيبة . . فهي ، لا نحن ، التي ستضطلع بالدور الرئيسي في تجديد مجتمعنا الاشتراكي . ينبغي أن نوكل إليها ، وبشجاعة قيادة العمليات على كافة المستويات .

أيها الرفاق المندوبون . ثمة مسألة بعد تتسم بالحساسية . أود أن أطرح عليكم مسألة إعادة اعتباري السياسي شخصياً ، الذي نزع مني في اجتماع اللجنة المركزية الكامل المنعقد في تشرين أول (أكتوبر) . . (ضجيج في القاعة) . وإذا رأيتم أن الوقت لم يحن بعد ، فإنني أعتبر أن الموضوع منته .

غورباتشوف م.س. : بوريس نيقولايفيتش ، تكلم ، أكمل ، الجميع يريد ذلك . (تصفيق) . أعتقد أيها الرفاق أنه آن الأوان للخروج بقضية يلتسين إلى العلن . وليقل بوريس نيقولايفيتش كل ما يريد قوله . وإذا بدا أن هناك ضرورة أمامنا للكلام فستكلم . تفضل ، بوريس نيقولايفيتش !

يلتسين ب.ن. : أيها الرفاق المندوبون ! لقد أصبحت إعادة الاعتبار في هذه الأيام ، بعد مرور خمسين سنة ، أمراً عادياً ، وهذا ينعكس دون شك إيجاباً على المجتمع . . إلا أنني أطلب شخصياً إعادة الاعتبار السياسي إلي وأنا على قيد الحياة . وأعتبر المسألة مبدئية ، وفي ضوء ما أعلنه التقرير فالمداخلات تلائم تعددية الآراء الاشتراكية وحرية النقد واحترام الرأي الآخر المعارض .

أنتم تعلمون أن مداخلتي أثناء اجتماع اللجنة المركزية الكامل المذكور اعتبرت بقرار منه «خطأ سياسياً». ولكن المسائل التي أثرتها آنذاك أثرت مرات عديدة في الصحافة ومن قبل شيوعيين، فضلاً عن أنها طرحت عملياً هنا من على منبر هذا الكونغرس، سواء في التقرير أم في المداخلات. وإني لأعتبر أن الخطأ السياسي في مداخلتي كمن في توقيتها، حيث تقدمت بها أثناء الاحتفال بذكرى مرور سبعين سنة على الثورة.

يبدو أنه ينبغي لنا جميعاً استيعاب قواعد الحوار السياسي واحترام رأي المعارضين كما كان يفعل ث. إ. لينين، لا أن نعلق فوراً الرقعة في الرقاب ونعلن الزندقة.

أيها الرفاق المندوبون! لقد عكست في مداخلتي هذه كل ما كنت أدليت به في اجتماع اللجنة المركزية الكامل، وإني أعاني قسوة القرار الذي اتخذ بحقي وأشعر بالآلم.. ولذلك فلإني أرجو من الكونغرس إبطاله.. فإذا اعتبرت أنه من الممكن القيام بهذا الأمر فإنكم بذلك تعيدون إلى الاعتبار في نظر الشيوعيين. إنه ليس أمراً شخصياً فحسب، بل هو ملائم لروح الهيرسترويكا، وسيكون قراراً ديموقراطياً، بل إنه سيساعدها على الاستزادة من ثقة الناس بها على ما أرى.

أجل، ليس سهلاً تجديد المجتمع.. ولكن التقدم حاصل وإن كان ضئيلاً، وستدفعنا الحياة نفسها للسير في هذا الطريق وحده. (تصفيق).

لقد تكلمت. وفي درجة معينة كنت أشعر بالتوتر الشديد، ولكني مع ذلك وفقت من حيث التأثير وقلت ما كان يجب أن أقول وما

اعتبرته ضرورياً أن يقال . كانت ردة الفعل جيدة ، فالمندوبون صفقوا حتى بلغت المخرج من القاعة الكبيرة لأعود وأصعد السلم إلى البلكون حيث جلس أعضاء وفد كيريليا ، وأعلنت الاستراحة في هذه الأثناء . وقد عبر أعضاء وفدي عن اهتمامهم الحار ودعمهم بابتسامات حيناً وبالمصافحة حيناً آخر . كنت مُثاراً يملأني التوتر . وعندما خرجت إلى الشارع انهالت علي تهاني المندوبين وأسئلة الصحافيين .

وعدت بعد الاستراحة لأجلس في مكاني ضمن الوفد ، غير مشتبه بشيء ، ففوق جدول الأعمال كان من المفروض أن يجري اتخاذ التوصيات والتصويت على القرارات . غير أن الاستراحة استخدمت فرصة لتحضير هجمات مضادة للنيل مني وللرد على مداخلتي .

وكانت مداخلته ليغاتشيف مثيرة لا تُنسى . . ولطالما أصبحت فيما بعد موضوعاً للتنكيت والقفش والرسوم الكاريكاتورية . . الأمر الذي اضطر كاتبني المحضر المنشور إلى تحريرها جدياً . كم بدا إيديولوجي البلاد الأول خائباً وغير موهوب ، مع كل ما بذله من جهد ، بيد أن ما صدر عنه كان تافهاً خلواً من الأدب .

واعتقد أن مداخلته هذه كانت بداية نهايته السياسية . فهو الذي وجه ضربة قاضية إلى نفسه ، بحيث لم يكن قادراً على الاحتفاء منها مطلقاً . كان يجب أن يتقدم بعد الكونغرس بالاستقالة ولكنه لم يفعل لأنه لم يرد . لا يرغب ولكن لا بد من ذلك . . إذ لم يعد يستطيع الهروب من الضحك العصبي الذي كان يثيره ظهوره أمام الكثيرين .

ثم كانت المداخلات التالية من لوكين ، وهو سكرتير أول شاب لمنظمة منطقة پروليتارسكي الحزبية في موسكو . راح يهبل علي ما شاء من القذارة ، منفذاً المهمة التي كلفته بها القيادة . كثيراً ما فكرت في

أمر فيها بعد: كيف سيتمكن من التعايش مع ضميره؟... وتوصلت في النهاية إلى الجواب التالي: سيتعايش معه بصورة رائعة.. فضميره مسقي كالفلواز. إن أمثاله من الوصوليين الشباب بلغوا المراتب العليا بفضل تلوثهم، ولا حاجة هنا للكلام على أي ضماير.. لا نفع من ذلك.

وتكلم تشيكيريف، مدير مصنع أورّدجونيكيدزه. أخذ يطلق العنان لمخيلته ويؤلف عن سكرتير منظمة موسكو الأول حكايات وأخباراً لو صدقها المرء لاعتقد أنه كان على شفير أن يقذف بنفسه من طابق عال بسببي. كنت أستمع إليه ولا أفهم: أهو كابوس أم تهوّات مرعبة. لقد زرته مرات في مصنعه، بل وأمضيت يوماً كاملاً فيه إحدى المرات بمعية الوزير پانيتشيف. وكالعادة قمت بزيارة مطعم المصنع، وأبدت بعض الملاحظات في نهاية الزيارة، وكان واضحاً أنه تقبلها.. ثم فجأة أخذ هنا يخلق ويكذب ويزور الحقائق على نحو لا يمكنني الآن سرده.

ثم أعقبه ف.أ. فولكوف، وهو أحد مندوبي سفيردلوفسك، فقلب كل مخططات السيناريو الموضوع رأساً على عقب.. قال كلمات حارة، ولم أكن أعرفه قبل الكونفرنس، فجاءت كلمته حارة تنبض بالإخلاص، ردة فعل مفعمة بالإنسانية على التهجمات الظالمة بحقي. ولكن سكرتير أول منظمة سفيردلوفسك الإقليمية بوبيكين، الذي أصابه الرعب مما صدر عن مواطنه، وجه إلى هيئة الرئاسة رسالة قال فيها: «إن مندوبي منظمة إقليم سفيردلويسك الحزبية تدعم بالكامل قرار اجتماع أوكتوبر (١٩٨٧) المتخذ بحق الرفيق يلتسين. وإن أحداً لم يعط الرفيق فولكوف صلاحية التكلم باسم الوفد، وإن مداخلته مستنكرة ومدانة تماماً. باسم الوفد، سكرتير أول المنظمة بوبيكين».

ولكن هذا السكرتير لم يستشر أعضاء وفده .

وفي النهاية تكلم غورباتشوف، فقال أيضاً الكثير، إلا أنه بقي ملتزماً بحدود اللياقة .

كل من جلس حولي خاف من الالتفات إلي . وكنت أجلس بلا حراك أنظر إلى منصة الرئاسة البعيدة من موقعي في البلكون . . . وأحسست أنني بدأت أفقد وعيي بسبب ما أسمعه . . . وما إن لاحظ الشبان المناوبون حالتي حتى هرعوا إلي لنقلي إلى الطبيب، حيث حُقت حتى أتمكن من الصمود إلى نهاية الكونغرس . وعدت، ولكن كان ذلك عذاباً جسدياً ومعنوياً . كل شيء في داخلي يلتهب ويذوب أمام عيني . . .

تحمّلت ما يحدث بصعوبة، بصعوبة كبيرة . ولم أغف ليلتين كاملتين من المعاناة والتفكير: فيم الأمر؟ من هو الحق ومن هو غير الحق؟ . . . وبدا لي أن كل شيء قد انتهى . . . وليس لدي مكان أبرز فيه موافقي وأدفع عنها . ولماذا أفعل؟ هذا، وقد نقل التلفزيون جلسات الكونغرس وبثها إلى كل أنحاء البلاد . ولن أتمكن من تنظيف نفسي من الأقدار التي أهملت علي . وشعرت بالتالي: لقد حطّموني وانتصروا . وداهمتني في تلك الفترة حالة من اللامبالاة . . . إذ لم أرغب لا في خوض الصراع ولا التبرير ولا التفسير . . . شيء واحد وددت أن يحدث وهو أن أنسى كل ما حصل، وأن أترك أعيش بهدوء .

. . . ثم فجأة بدأت ترد إلى مكثبي في الوزارة رسائل وبرقيات . . . بالأكياس، رسائل بالآلاف من كل أنحاء البلاد . كان ذلك دعماً شعبياً خيالياً . فالناس كانت تعرض علي العسل والمربيات البيتية

وحتى التدليك كي أُبلَّ من المرض ولا أعود إليه أبداً. . وكانوا
ينصحونني ألا ألقى بالاً إلى التفاهات التي اختلقت بحقي لأن أحداً
لا يصدقها. وطولبت ألا أقعد عن النضال من أجل الپيرسترويكا.

كم كانت الرسائل حارة ومؤثرة وطيبة بعث بها أناس لا
أعرفهم. . كنت أكاد لا أصدق وأسائل نفسي: من أين كل ذلك
ولماذا؟. . .

ولكنني كنت أعلم بالطبع مصدر هذه الأحاسيس المخلصة.
فشعبنا الذي صبر على الكوارث لم يطق أن يرى كيف يُحطَّم إنسان
بالإهانات، فحرَّكه على ما يبدو ذلك الظلم الصريح وأثارت لديه
الضيق والتبرم، فراحوا يعبرون عن أحاسيسهم بالكتابة مادّين إلي
اليد لأتكىء عليها ولأنهض من كبوتي.

وتابعت بفضلهم السير.

يوميات الانتخابات

١٠ آذار (مارس) (*) ١٩٨٩

ها هو ذا ماراتون الأشهر السابقة ينتهي . لست أدري بماذا أشعر أكثر: أهو الإرهاق أم هو التعب؟

أُنْبِثُ بنتائج الانتخابات النهائية فتبين أن ٨٩,٦٪ من المقترعين صوّتوا لي . بالطبع هذه الأرقام ليست طبيعية، ففي انتخابات عادية حضارية يجب أن تكون أقل من ذلك بكثير. بيد أنهم أوصلوا الشعب إلى درجة اللارجوع في سياق محاربتهم لي والافتئات علي والتزوير ومحاولات قطع الطريق، بحيث لم أكن لأتعبج توقع نيل أكثر مما نلت من أصوات .

فقد حصل كل شيء طبقاً للقاعدة التالية: إن المواطنين لم يصوتوا ليلتسين، بل صوتوا ضد الجهاز . . ومن المفترض أن يغضبني ذلك، ولكن العكس هو الصحيح . . إن هذا أمر عظيم لأنه يعني أنني لم أخض الصراع الكبير ضد البيروقراطية الحزبية عبثاً . وإذا ارتبطت معارضة الجهاز باسم يلتسين فهذا يعني أن مداخلتي في دورة تشرين للجنة المركزية وفي الكونغرس التاسع عشر، تحمّلان معنى معيناً .

(*) هكذا ورد في النص الاصيلي الروسي ولعل المقصود ١٠ نيسان (أبريل).

كم أود أن أتوقف لأنظر قليلاً إلى الوراء وأتمن وأستريح ، فقد كان السباق مثبطاً ومسيباً لعذاب كبير. ولكن لا، لن ينفع الوقوف ولا السكون، فهذا هي ذي مهمات ومشاكل جديدة تنال علي.

وجّهت رسالة إلى رئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي ن. إ. ريجكوف تتضمن طلب إعفائي من مناصبي كوزير. فقامون الانتخاب بمنع على مندوب الشعب أو النائب أن يكون وزيراً في آن. وهكذا، فقد أصبحت منذ هذا اليوم رسمياً عاطلاً عن العمل.

ورنين جرس الهاتف في منزلي لا ينقطع. عشرات، بل مئات الاتصالات للتهنئة والمساندة والتمني. . . وافقت مع ناينا أن نترك موسكو وراءنا ونختفي أسبوعين طلباً للراحة.

لقد بلغ مني الإرهاق مبلغاً، وأردت أن أرتاح بعض الشيء.

يخيل إلي أحياناً أنني عشت ثلاث حيوات مختلفة. فالحياة الأولى كحياة معظم الناس عادية، رغم أنها كانت مليئة بالتوتر والتعقيد، وقد احتوت الدراسة والعمل وتكوين العائلة، لأصبح بعد ذلك قائداً في الإنتاج ثم في الحزب. وقد اختتمت يوم انعقاد دورة اجتماعات اللجنة المركزية في تشرين أول (أكتوبر) لتبدأ حياتي الثانية: النفي السياسي حين كان يحيط بي الفراغ المطبق، معزولاً عن الناس أخوض صراعاً للبقاء كإنسان وكسياسي. أما حياتي الثالثة فقد انبجعت حين صدرت نتائج انتخابات مندوبي الشعب. كانت تلك ولادتي الثالثة، وها قد مضى عليها أقل من سنة. وإذا كانت تفاصيل حياتي الأوليين مجهولة، بل غير معروفة، فإن مضامين الحياة الثالثة كانت واضحة للعيان تجري في العلن: كالعمل في مؤتمر نواب الشعب ودورة مجلس السوفيات الأعلى لعموم الاتحاد السوفياتي وإنشاء كتلة نيابية تضم نواباً

عن مناطق عديدة ورحلتي إلى الولايات المتحدة... ففي هذا النشاط لا توجد صفحات مطوية ولا أسرار خفية.

ومع ذلك، فهذه الأشهر احتوت العديد من الأحداث المتنوعة التي لا يجوز اغفالها.

وأبدأ بسردها بالترتيب.

فبعد هذا الفوز الساحق في الانتخابات سرت شائعات مفادها أنني عازمت على منافسة غورباتشوف في مؤتمر مندوبي الشعب على منصب رئيس هيئة رئاسة مجلس السوفييات الأعلى في الاتحاد السوفياتي. ولست أدري أين ولدت هذه الشائعات: أبين أنصاري الذين أسكرتهم نشوة الانتصار، أم على العكس في معسكر الخصوم الذين أرعبتهم ردة فعل الموسكوفيين العاصفة؟ وظلت الشائعات ذاتها تدور دورتها بإصرار.

كيف كنت أنظر إلى كل ذلك؟ كنت أعني تماماً وبواقعية الوضع السياسي الناشئ في البلاد، وكنت أيضاً أقوم بكل دقة النسبة المستقبلية بين الأقلية والأكثرية في مؤتمر مندوبي الشعب. ولذا فلم تكن لدي أي أوهام أو طموحات على هذا الصعيد مطلقاً، علماً أنني كنت أدرك أن وجودي سيسبب لغورباتشوف قلقاً جدياً، وهو بالتالي سيحاول معرفة حركتي التالية.

وقبل حوالي أسبوع من افتتاح المؤتمر المنتخب اتصل بي هاتفياً واقترح علي أن نلتقي ونتباحث. امتد اللقاء نحو ساعة لأول مرة بعد انقطاع طويل، فجلسنا وجهاً لوجه. كان الحوار متوتراً عصيباً، وقد أدليت بالكثير مما كان تراكم في صدري أثناء الفترة الفائتة. وكان أقل ما يهمني مشكلاتي الخاصة... ذلك أن البلاد تنهار وهو الأمر الأفظع.

أما لعبة الجهاز البيروقراطي فكانت دائرة، وما زالت تدور، وهي لا تهدف إلا إلى الاحتفاظ بالسلطة، بكل السلطة وعدم التنازل عن قطرة واحدة من قطراتها لمؤتمر مندوبي الشعب. وكنت أسأله طوال الوقت: ميخائيل سرغييفيتش، مع من أنت، مع الشعب أم مع النظام الذي أوصل البلاد إلى شفير الهاوية؟

وكان يجب على أسئلتي بقسوة وبحدة، وكلما استغرقنا في الكلام كلما ارتفعت بيننا سدود اللاتفاهم. وعندما بات من الواضح أن العلاقة الإنسانية الشخصية بيننا لن تتخلق في هذا اللقاء، ولن تنشأ بالتالي علاقات ثقة متبادلة، تراجعت حدة لهجة غورباتشوف وإصراره، سألني عن مخططاتي المستقبلية وماذا أنوي عمله وأين أجد نفسي أكثر، فرددت على الفور: المؤتمر سيقدر. ولم يعجب الجواب غورباتشوف! إذ كان يطمح إلى الحصول مني على ضمانات معينة فتابع مساءله: كيف أنظر إلى العمل في مجال الاقتصاد والإنتاج؟ وهل لي مصلحة، مثلاً، للعمل في مجلس الوزراء؟ إلا أنني بقيت على جوابي: المؤتمر سيقدر.

ولعني كنت على حق، فالكلام على أي شيء قبل انعقاد اجتماع مؤتمر نواب الشعب لن يكون بالكلام الجدي، ولكن الجواب بالنسبة إلى غورباتشوف كان استفزازياً، لأنه كان يسعى إلى معرفة نواياي. بدا أنه لم يكن يصدقني واعتبر أنني بصدد إخفاء أفكار. وكان ذلك غير صحيح أبداً، إذ لم أبيت أي مخططات بانتظار انعقاد المؤتمر. وهكذا افترقنا.

وفي اليوم التالي مباشرة سرت شائعات جديدة. أين ذلك الشاعر، أو المغني، الذي يغني شائعاتنا المحلية؟ إن الشعب يعيش بالشائعات عندما تفتقد المعلومات الصحيحة (بل وحتى الكاذبة). إنه الوكالة

الرئيسية للأنباء في الاتحاد السوفياتي، بل إنه أقوى وأفعل من «تاس» نفسها. ليت أحداً يدرس طبيعة شائعاتنا وآلية نشوئها وانتقالها، فقد ينجم عن هذه الدراسة كتاب شيق جداً.

وقالت الشائعات هذه المرة إن غورباتشوف اجتمع فعلاً بيلتسين واقترح عليه تسلّم منصب النائب الأول لرئيس الوزراء، إلا أن يلتسين لم يوافق لأنه يريد أن يتولى منصب رئيس مجلس السوفيات الأعلى. عندئذ، اضطر غورباتشوف أن يعرض عليه منصب النائب الأول لرئيس مجلس السوفيات، الأمر الذي لم يرضه أيضاً مما جعل غورباتشوف يضحي بمهام السكرتير الأول لمنظمة مدينة موسكو الحزبية. . ومجدداً رفض يلتسين الفكرة.

على هذا النحو ووفق هذا النموذج أو ما يقربه كانت تردني الشائعات، حيث أبلغ بمضامينها من مختلف الجهات والأطراف، وكنت أهرز رأسي عجباً من أمر المخيلة الإنسانية.

وانعقد مؤتمر نواب الشعب. لن أتكلّم عليه طويلاً بل باختصار، أملاً بأن يرجع المهتم بالموضوع وتفاصيله إلى المصادر الأصلية لمتابعة أخباره. اتخذ غورباتشوف قراراً مبدئياً مهماً عندما وافق على نقل وقائع المؤتمر مباشرة عبر شبكة التلفزة السوفياتية. فأيام المؤتمر العشرة تابعها الشعب في البلاد من أقصاها إلى أقصاها واستمع إلى نقاشات المندوبين والنواب المثيرة، ووهبته على الصعيد السياسي ما لم تحمله إليه سبعون سنة مضروبة بملايين ساعات الثقيف السياسي الماركسي - اللينيني التي أهدرت بقصد خداعه. ففي يوم الافتتاح كان هناك مندوبون لم يعودوا هم أنفسهم عند الاختتام. ومهما كان موقفنا سلبياً حيال نتائج المؤتمر، وبالرغم من كل المعاناة والمكابدة اللتين سببها تضييع فرص عديدة للقيام بخطوات ضرورية على

الصعيدين الاقتصادي والسياسي، فإن ما حدث كان هو الأمر الرئيسي. فقد استيقظ الشعب، كل الشعب، من غفوته.

وكما كان الأمر دائماً بالنسبة إلي لم يخلُ الحدث من مشاكل. فعندما نوقشت مسألة كيفية انتخاب النواب إلى مجلس السوفييات الأعلى من بين أعضاء مؤتمر مندوبي الشعب أصريت بلا هوادة على أن تكون الترشيحات متعددة. وأعترف بإخلاص أنني أملت من كل قلبي أن أنتخب رغم كل شيء في مجلس السوفييات وأدركت بكل وعي أنه يجب ألا نتوقع أموراً جيدة من تركيبة المؤتمر القائمة. فالأكثريّة الهادئة الطائفة، الآتية إلينا من الماضي القريب، ستحطّم أي اقتراح لا يلائم القيادة. وهذا ما حدث فعلاً. فقد بيّنت عمليات التصويت الأولية كيف كان ميخائيل سرغييفيتش (غورباتشوف) يدير المؤتمر كالمليسترو بنجاح، وأكّدت انتخابات التمثيل في مجلس السوفييات الأعلى أن الأكثريّة الباطونية المسلحة كفيلة بسدّ أي منفذ بوجه من يتماهى في طموحه وعلى سبيل المثال لم يُنتخب ساخاروف وتشيرنشينكو وپاپوف وشميليوف، المندوبون الرائعون المحترمون؛ كما لا يمكنني تعداد أولئك الذين منعتهم شبكة المؤتمر من اختراقها لكثرتهم. ولم أنتخب أنا أيضاً، وعلى رغم حصولي على أكثر من نصف أعضاء المؤتمر، إلا أنني كنت أقل من حصل على أصوات بين من لم يجر انتخابهم. لم يثري ذلك، وأنا الآن لا أقول هذا لأستعرض قدرتي على الاحتمال، بل لأنني فعلاً لم أكن أتوقع شيئاً كثيراً من المؤتمر الذي لو حدث وأوصلني إلى مجلس السوفييات الأعلى لأثار عندها تعجبي الشديد. وهكذا، فقد سار كل شيء في مساره الطبيعي، وبت أنتظر بشغف لأرى كيف سيتسنى لغورباتشوف الخروج من المأزق الذي حشر فيه نفسه.

كان ذلك بالطبع فضيحة، بحيث أدرك الجميع أن الوضع يمكن أن يصبح بسببي متفجراً في نهاية المطاف. فقد شعر الموسكوفيون أن النتائج أسفرت عن تجاهل وقح لرأي ملايين المواطنين. ولم يأت المساء إلا وكانت تنعقد لقاءات حاشدة هنا وهناك تطالب بإعلان إضراب سياسي... ولم يكن غورباتشوف نفسه يتوقع هذا التحول المفاجيء للأمور، فأسقط في يده ولم يعد بإمكانه فعل شيء لأنه جرى التصديق على نتائج الانتخابات وانتهى الموضوع.

ولكن حدث ما يحدث دائماً، حين يبرز متطوع فيعثر على حل للخروج من المأزق. وقد برز أ. كازانليك أحد مندوبي مدينة أوفا الذي اختيروا لعضوية مجلس السوفييات، الذي انسحب لصالحه. كان على مؤتمر المندوبين أن يجري تصديقاً على هذا التغيير. وعندما ارتفعت الأيدي للتصويت رأى غورباتشوف أن الاقتراح ينال الأكثرية فبدت ملامح الارتياح على وجهه.

وهكذا أصبحت عضواً في مجلس السوفييات الأعلى لعموم الاتحاد السوفياتي، وسقطت مسألة بطالتي من تلقاء نفسها. وبعد بضعة أيام انتخبت رئيساً للجنة البناء والعمارة في مجلس السوفييات الأمر الذي أهّلني لأن أصبح عضواً في رئاسة المجلس.

يمكن الحديث مطوّلاً عن المؤتمر الذي شهد كثرة من وقائع دراماتيكية مثيرة وحادة. وأكرر القول إن البلاد بأسرها شهدت - وأكاد أقول العالم كله شهد - أحداثه كلها. فالاتحاد السوفياتي يشكل سدس العالم وما يجري فيه لا بد أن يكون مثير اهتمام العالم... ولذا، سأكتفي بهذا القدر من الكلام على هذه اللوحات، مشيراً إلى أن الأمور سارت بعد ذلك في مجراها.

واستمرت دورة اجتماعات مجلس السوقيات الأعلى شهرين، عمدت خلالها إلى تنظيم لجنة البناء والعمارة وسط فوضى كاملة بصدد ممارسة وظائف النيابة . . إذ انعدمت المكاتب حيث يمكننا أن نعمل كما لم نكن نحظى ببناء نستطيع أن نستقبل فيه ناخبينا، فضلاً عن الهيمنة التي مارسها جهاز مجلس السوقيات على النواب أنفسهم . . وبشكل عام تحيَّيَّ أمام أعيننا الهرج التقليدي المعروف . . إننا نتعلم، هانحنذا ترفُعنا إلى الصف الأول في المدرسة البرلمانية الكبيرة، ودوننا زمن طويل - من المخيف أن يفكر فيه المرء - حتى نبليغ الجامعة الكبرى.

ومن أحداث الصيف المشهورة والأساسية إضرابات عمال المناجم التي عمت البلاد بأسرها. فقد انقضى زمن الطبقة العاملة الطائفة المقموعة أو الطبقة العاملة الدمية، وأود من كل قلبي أن يكون زمنها هذا قد ولى إلى الأبد. لقد برز على الساحة عامل آخر ذو كرامة يحترم نفسه وعمله. ومن الطبيعي يظل هناك أناس متعبون خائفون يشخصون بأبصارهم إلى القيادة برجاء . . وعموماً يبدو أن الرعب قد تغلغل فينا حتى أصبح جزءاً من مُورثاتنا (جيناتنا) . . ولكن كان هناك أيضاً عمال منتصبو الهامات مرتفعو الرؤوس والجبهاات يتزايد عددهم يوماً بعد يوم. مثل هؤلاء العمال نظموا لجان الإضراب فلاحق بهم الألوف، بل عشرات الألوف من عمال المناجم.

وجاءت ردة فعل موسكو هذه المرة دقيقة وسريعة. إذ لم يمض يومان على الإضرابات حتى كتبت الصحف عن مطالب المضربين بلهجة استفزازية متعجلة كالعادة، ثم فجأة ومن على كل المنابر الصحفية تغيرت اللهجة إلى دعم كامل لعمال المناجم. ومن الطبيعي ألا يتحول الموقف لو أن الإضراب اقتصر على منطقة واحدة. ولكن

نجاح عمال المناجم بالتحرك كتلة واحدة حدّد نجاح الإضراب .
وللأسف لم يتمكن ريجيكوف وفريقه الجديد من الاستفادة من الوضع
الناشئ بصورة كاملة ، حيث كان لديه فرصة واقعية كي يقصم ظهر
النظام الإداري - الأوامري ، ذلك أن السوفييات الأعلى والرأي العام
كانا مهيبين لتقبل إصلاحات اقتصادية جذرية . بيد أن ما حدث تجدد
طرح الحلول الوسيطة والتركيز على حل مشاكل قطاع واحد فحسب .

وثمة أيضاً حدث مهم اشتركت فيه بنشاط ، ألا وهو تشكيل كتلة
من مندوبي الشعب يمثلون مناطق عديدة .

أعتقد أن يومي ٢٩ و ٣٠ تموز (يوليو) ١٩٨٩ سيدخلان في تاريخ
تكوّن مجتمعنا . ففي موسكو ، بدار السينما ، انعقد الاجتماع الأول
لكتلة مندوبين ممثلين لمناطق مختلفة من البلاد . لقد انهار عصر
التفكير الواحد والروح الواحدة . وبغض النظر عن الضغوط الكبيرة
التي مورست على نواب الكتلة ، حيث لم نعثر على قاعة واحدة بين
قاعات الكرملين مفتوحة لعقد الاجتماع ، وبغض النظر عما وصمنا به
من أوصاف (منشقون ، انفصاليون ، زمرة ، دكتاتورية ، إلخ ...)
فقد تمكنا من الاجتماع .

لماذا كنا بحاجة إلى ذلك ؟ لقد اقترب ما يحدث في البلاد من حدود
الكارثة ، وليس بالحلول والإجراءات الوسيطة يمكن إنقاذ الوضع ، بل
بالخطوات الحاسمة الجذرية يمكننا الصعود من الهاوية . وكان يكمن
في أساس موضوعات كتلة المندوبين المناطقية وبرنامجهما ما كنت أعلنته
من برامج مع بعض المرشحين التقدميين إبان الحملة الانتخابية . وقد
انتخبت الكتلة قيادة من خمس أشخاص هم : أفاناسييف ، يلتسين ،
بالم ، پوپوف ، ساخاروف .

وبالمناسبة، تجدر الإشارة إلى أن الموضوعات الرئيسية، التي كانت موضع اختلاف بين من سُمِّي اليساريون واليمينيون، كانت ضئيلة للغاية. ولعل الرئيسي بينها مسألة الملكية: أي الاعتراف بالملكية الخاصة، أو الشخصية، لأي كان وكما يحلو - وينهار بذلك آخر مدماك أساسي تقوم عليه احتكارية الدولة للملكية وكل ما يرتبط بها - ومن بين المسائل أيضاً مسألة سلطة الدولة واغتراب الإنسان عن عمله الخاص، إلخ... ثانياً، مسألة الأرض وهي لا تقل أهمية عن الفئة الأولى. ف شعار «الأرض للفلاحين!» شعار ملح الآن أكثر مما كان خلال سبعين سنة ونيف. فالبلاد لن تشبع إلا عندما يملك الأرض ملاًك. وثالثاً، لا لمركزة السلطات واستقلال الجمهوريات اقتصادياً ونيلها السيادة الحقيقية، وبذا سيكون من الممكن حل المشكلات القومية. رابعاً، إزالة كل المعوقات التي تعرقل استقلالية المؤسسات والمجموعات العاملة اقتصادياً ومالياً وإنتاجياً. فلإنعاش الوضع المالي في البلاد يرتبط بتلك التدابير والإجراءات التي ذكرتها منذ قليل، إلا أننا بحاجة أيضاً إلى تدابير مالية خاصة من شأنها وقف انهيار الروبل الشامل.

ولا أريد هنا التوسع كثيراً في الموضوع الاقتصادي، ذلك أن لدينا في الكتلة اقتصاديين متمازين مثل بوبوف وشميليوف اللذين حددا مركباً من تدابير سريعة لإنقاذ ماليتنا.

لماذا كنت دائماً واحداً من أولئك الذين ينظرون بهدوء كاف إلى شعارات اعتماد التعددية الحزبية بسرعة؟ لأن مجرد واقع وجود أحزاب متعددة لا يحل شيئاً في حد ذاته. ففي تشيكوسلوفاكيا وألمانيا الديمقراطية، حتى عهد قريب، كان هناك عدة أحزاب تنقسم السلطة، ومع ذلك فقد سادت فيهما اشتراكية الثكنات على النمط

الستاليني - البريجيني في بكل تفاصيله، وقد انهارت، ولا أعتقد أن السبب في تعدد الأحزاب. وبالمناسبة فهناك في كوريا الشمالية أيضاً أحزاب عديدة.

يبدو أنه ينبغي علينا أن ننمو باطراد حتى نبلغ نظام التعددية الحزبية الحقيقية الحضرية. وهناك، بعد، ملاحظة واحدة: ليس عندنا حتى الآن تعددية حزبية بالمعنى الصحيح. ولكن أليس من الوهم الاعتقاد أن ما لدينا هو حزب واحد؟.. حزب واحد موحد لا يُهزم. ففي واقع الأمر حينما يكون لدينا في الحزب الشيوعي السوفياتي يوري أفاناسييف وفيكتور أفاناسييف، يلتسين وليغاتشيف، مندوب الشعب سامسونوف ومندوب الشعب فلادوف، أقطاب متضادة من حيث التصرف والموقع، فهذا يعني أننا نسينا تماماً - وسط هذه الفوضى في المفاهيم - ما هو الحزب. ولهذا فأنا أقترح سن قانون سريع حول الحزب يعتبر الحزب في أحد بنوده جزءاً من المجتمع لا الدولة، وينص كذلك على أن للمواطنين حرية الاتحاد ضمن أحزاب ومنظمات اجتماعية.

وهاكم بُعداً مهماً آخر: العلاقة المتبادلة مع الكنيسة. أعتقد أن ستالين نجح في بناء الدولة الوحيدة في العالم التي أخضعت الكنيسة وأجبرتها على الركوع على ركبتيها، فهي تحاول الآن بصعوبة فائقة العودة إلى وعيها بعد تلك الضربات القاسية التي تلقتها على مدى عدة عقود من السنين. إن حقائق الماضي القريب التي نطالها في صحافة اليوم - مثلاً كيف كان خدام الكنيسة يقدمون التقارير عن نشاطاتهم وتحركاتهم إلى الهيئات الحزبية ولجنة أمن الدولة، أو واقع تسجيل الكاثوليك لدى أقسام الميليشيا - إنما تدل على سقوط الكنيسة بل على مرض كل أعضاء المجتمع عندما يكون هذا الأخير

مصاباً بالمرض. هذا، وقد بدأت الكنيسة هذه الأيام تتعافى، وكلي ثقة أنه ستحين اللحظة التي ستنهض فيها لتمد يد العون للمجتمع بما تملكه من قيم إنسانية عامة خالدة، ذلك أن في كلمات مثل: «لا تقتل» و«أحب قريبك» أرى مبدأين خلقين سيساعداننا على الوقوف في أدق الحالات وأخرجها.

إن مبدأ حرية الضمير مكتوب في دستورنا، ولكن كيف يطبق في واقع الأمر؟ نحن نعرف الجواب بالتأكيد جداً. وستظل هذه المادة وظيفة في الدستور إلى أن يتم تحقيق الإصلاحات الاقتصادية والسياسية في البلاد، أي إلى أن يصبح الإنسان قيمة المجتمع الرئيسية فعلاً. أما راهناً فالسائد عندنا هو العكس، إذ أن قيمة نظامنا البيروقراطي - الحزبي الرئيسية هي الدولة.. التي نخدمها جميعاً. وإنني لآمل، على أي حال، أن أفعل كل ما بوسعي، كي لا تطول خدمتنا أكثر من أشهر أو أسابيع أو أيام معدودة...

أما عن لجنة أمن الدولة «كي. جي. بي» والجيش ووزارة الشؤون الداخلية، فإن كل شيء بالطبع واضح تماماً. فهذه المنظمات الباسلة كانت دائماً عضد الدولة والكيان السياسي. ففي ظل الأنظمة التوتاليتارية يتعاظم دورها أضعافاً مضاعفة. وإن أياً من المنظمات المذكورة لم ينل منها هبوب رياح التغيير، بل إن ما حدث كان العكس، إذ قفز رئيس لجنة أمن الدولة كرياتشكوف إلى عضوية المكتب السياسي الكاملة دون بقائه فترة على درجة عضو مرشح، وذلك بصورة لم يتوقعها أحد البتة. وقد صدم، بالطبع، الجميع وأثار حفيظتهم. إذ لم يكن الأمر يستأهل من قبل غورباتشوف أن يحول إحدى اللجان الحكومية إلى أهم هذه اللجان، وخصوصاً في مرحلة الپيرسترويكا والگلاسنوست سواء من منطلق تكتيكي أم من منطلق

التفكير الحكيم. ولكن لا، فالمحرك هو العطش إلى السلطة والخوف من فقدانها أهم من أي منطق وتفكير سليم. إذ يجب أن تظل لجنة أمن الدولة الحارس الأمين على المصالح الحزبية وليبق إذن كرياضة تشكوف بالقرب، تحت اليدين وبينهما.

إنني أتصور أي صراع قاس وصعب يجب أن يخاض من أجل مستقبل الجيش والـ «كي. جي. بي» وأكرر القول إننا لم نخط بعد حتى خطوة واحدة في السبيل إلى إصلاح هاتين البنيتين فائقتي الأهمية بين بنى الدولة. ويكاد يكون المرء يأخذ وضعية «التأهب» عن غير وعي لدى سماعه كلمتي «الجيش» والـ «كي. جي. بي»، احتياطاً... إنه الإحساس بالرعب الذي يسكن عملياً قلب كل مندوب.

ولهذا السبب بالتحديد تتجاهل قيادتا الجيش وأمن الدولة بهدوء كامل - وأكاد أقول بوقاحة كاملة - مطالب المندوبين بضرورة تبيان نفقات المؤسسات. وهما، أي القيادتان، لا تزعمان الإعلان عن تفاصيل نشاطاتها وكيفية قيامهما بالوظائف، التي يصبح دونها الحديث عن تقليصها وتحديد وظائفها والإقلال من وزنها ودورها مجرد حديث فارغ غير ذي معنى.

ما الذي يدفعني إلى الأمل؟ أولاً وأساساً، يدفعني تطور المجتمع نفسه، فمن المفهوم أن الـ «كي. جي. بي» والجيش سيتخلفان دائماً عن اللحاق بركب التغير والتطور، إلا أنهما سيضطران إلى الإسراع للحاق به تحت تأثير عمليات إعادة البناء الجارية في البلاد. ثانياً، إن هاتين المؤسستين مكوّنتان من أشخاص عاديين، من مواطنين عاديين، فضلاً عن أنهما اخترقتا من قبل أجيال جديدة من الشبان الذين لا يرون في العسكرية الخضوع والطاعة فحسب، فهم يمثلون احتجاجات ووجهات نظر.

إن إنقاذ الجيش وأمن الدولة يكمن في الغلاسنوست والصراحة، وهذا ما سيسعى كل من تعز عليه الپريسترويكا إلى خوض النضال لتحقيقه. أما ما يتعلق بمستقبل المؤسستين فلا شيء جديداً هنا يتوجب اختلافه. لقد نجحت البشرية في صوغ آلية العلاقات المتبادلة مع الجيش وأجهزة الأمن كي تكون في خدمة المجتمع وليس فوقه وذلك بإخضاعها إلى البرلمان. فالجيش برأبي، يجب أن يصبح احترامياً تطوعياً، عندها فقط يمكن أن يتغير نوعياً نحو الأفضل. ولكن هذا، بالمناسبة، من تفاصيل الأمور.

ها إني قد ابتعدت عن الحديث المتعلق بالكتلة المناطقية. ففي الوقت الذي كان يجتمع فيه مجلس تنسيق الكتلة - مسترقاً الساعات النادرة استراقاً - للعمل على صوغ برامج الخروج من الأزمة، بدأ هجوم مضاد طال أعضاء الكتلة بالتسفيه والتقوّل. فقد أشيع في كل مكان - في الصحف وفي اللقاءات مع الناجحين وفي الاجتماعات الحزبية العادية - أنهم (أي نحن) يسعون إلى السلطة ويريدون إحلال الفوضى في البلاد وإقامة ديكتاتورية، وأنهم عابرو سبيل، مثقفون بيروقراطيون، بعيدون عن الشعب، تمتاز أكثرتهم بماضٍ معتم غير واضح المعالم. . . ربما بدا كل ذلك مضحكاً وطريفاً، ولكنه كان في واقع الأمر رهيباً.

ومجدداً، إنها ليست المرة الأولى في حياتنا حين يُسعى إلى وقف عملية الحوار وعملية تقابل الآراء المتخالفة. إنها ليست المرة الأولى التي يجبري فيها التآمر على عمليات ضرورية وطبيعية في المجتمع الذي رفض وحدانية الفكر الشاملة الكلية وإبدالها بعمليات صراعية ضد الشخصيات الحاملة أفكاراً وآراء ومقاربات ديمقراطية.

لقد حدث ذلك في تاريخنا ولم يجلب للشعب إلا المآسي والعذاب

والمصائب بلا حصر ولا عدد. وقد آن الأوان لِيُفهم أن شعبنا ولحسن الحظ متعدد وغير متجانس، وإن فئاته الاجتماعية المختلفة لها مصالح متخالفة وغير متطابقة.

وآن الأوان أيضاً لِيُفهم أن كتلة مندوبي الشعب المناطقية ليست «جماعة من رجال يطمحون للاستيلاء على السلطة»، وإنما هي مجموعة من نواب الشعب تُعبر عن مصالح أغلبية المجتمع التي تعتبر أن البيريسترويكا لا تُنفذ في البلاد بالحزم والاتساق المطلوبين، وأن مصائبنا اليوم ليس سببها أننا نريد معالجة الاشتراكية الجيدة بالرأسمالية السيئة. فنحن بكل بساطة، وبعدها اصطدنا بالصعوبات الأولى في سياق إصلاح الاشتراكية الثكنية - البيروقراطية، لجأنا إلى البحث عن الدواء خارج إطار الطرائق الإدارية - الأوامرية القديمة المألوفة.

ولكن الأمر الرئيسي والأهم قد حصل. فكتلتنا تعمل، وهي تصوغ استراتيجية تطور مجتمعا وتكتيكه، ولأنها تتضمن أخصائيين مستترين في مجالاتهم فلا مفر من أن الشعب سيؤيدها ويسير وراءها. بعد انتهاء أعمال الكتلة جاءت العطلة البرلمانية القصيرة، وفي منتصف أيلول (سبتمبر) قمت بزيارة أميركا استغرقت تسعة أيام وأثارت ضجة كبيرة.

زرت أميركا بناء على دعوة من عدة منظمات اجتماعية وجامعات وبعض رجال السياسة. بلغ عدد الدعوات خمس عشرة دعوة. وكان مقترحاً أن تستغرق الرحلة أسبوعين، غير أن اللجنة المركزية قرّرت ألا تسمح لي إلا بأسبوع. ووقع هذا الخبر على رؤوس منظمي الرحلة وقوم الصاعقة، فرجوني أن أبذل الجهد لتنفيذ كل بنود البرنامج

الموضوع من لقاءات ومحاضرات ضمن الأسبوع المتاح. تعلمت في المدرسة، وفيما بعد في المعهد، مسلّمة استغلال الإنسان للإنسان في الرأسمالية. والآن فإنني أجرب هذه الموضوعة التي لا جدال فيها مطبقة علي شخصياً. فقد كنت لا أنام أكثر من ساعتين أو ثلاث في اليوم، وكنت أطير من ولاية إلى لأخرى لأجري خمسة أو سبعة لقاءات يومياً، وظللت على هذا المنوال أسبوعاً. ولم أفق من هذا السباق المجنون إلا في الطائرة التي أقلتني إلى موسكو. وأنا الآن أحلم بزيارة أميركا ثانية حتى تتسنى لي مشاهدتها عن كثب لا كفيلم سينمائي متالي المشاهد، ولعينة التفاصيل الصغيرة.

كتب الكثير عن زيارتي إلى الولايات المتحدة في صحافتها وفي صحافتنا، لذا لا أرى حاجة في تناول نتائجها الأساسية. فقد تضمّنت العديد من اللقاءات ابتداء من الرئيس بوش وانتهاء بالمواطنين الأميركيين العاديين في الشارع. قد أبدو ربما تافهاً، ولكن أكثر ما أعجبني وأذهلني المواطنون الأميركيون البسطاء الذين يشعرون بالتفاؤل المذهل والإيمان ببلدهم وبأنفسهم. . . وطبعاً كان ثمة أمور أخرى مذهلة كالسوبرماركت مثلاً. . . رفوفها مملوءة بمئات، بل ألوف المرطبات والعلب. . . ولأول مرة أحس بالألم والشفقة من وضعنا ووضع بلادنا. . . أليس رهيباً أن نوصل بلداً جباراً وغنياً إلى هذه الدرجة من الفقر والبؤس؟

ووفق الشروط التي أبلغني إياها منظمّو الرحلة، فإنني سألتقى بدل أتعاب عن إلقائي المحاضرات في الجامعات. وفي اليوم الأخير تبين أنه تراكم لدي مائة ألف دولار بعد حسم نفقات مجموعتنا المكوّنة من أربعة أشخاص. فقررت عندها شراء حقن طبية (تستعمل مرة واحدة) عن طريق المساهمة في «أنتي - سيد»، ولم ينقض أسبوع حتى

وصل موسكو مستوعب يحتوي على مائة ألف حقنة لصالح أحد مستشفيات الأطفال. وكان مجموع ما ابتاع مليون حقنة بالمبلغ كله حتى آخر «سنت».

إنني أروي هذه الحكاية فقط للتدليل على أمر محدد. ففي الوقت الذي كنت أوقّع فيه الوثائق لشراء الحقن، كانت صحيفة «البراغدا» توزع في موسكو على الأكشاك، وقد تضمن عددها الصادر يومذاك مقالة كانت قد نشرتها - كما زعم - إحدى الصحف الإيطالية عن رحلتي إلى الولايات المتحدة. وقد جاء في المقالة أنني كنت طيلة رحلتي في حال من السكر الدائم، حتى أنه أوردت كمية المشروب التي احتسيتها، ولعله كان من العبث أن ينتظر، من ينتظر في موسكو، وصول حقن الأطفال، لأنني أنفقت المال على شراء أجهزة الستيريو والمسجلات والفيديو وغيرها من الهدايا كالبذلات والقمصان البيضاء والأحذية وغيرها من الأشياء. فأنا لم أكد أغادر المخازن الأميركية! وهكذا صوّرتني «البراغدا» عملياً - بما زعمت أنها نقلته - كدبٍ روسي سكير، مدمن، سفيه، وجد نفسه في مجتمع متحضر للمرة الأولى.

كنت أعلم بالطبع أن رحلتي ستثير لدى القيادات العليا ردة فعل سلبية عاصفة، وتوقعت أنني سأكون ورحلتي إلى الولايات المتحدة موضع تشكيك. ولكنني لم أتوقع، بصراحة، يمين يضمرون لي سوء أن ينزلوا إلى هذا الحضيض بغياء ووقاحة.

وجاءت ردّات فعل الموسكوفيين وكثير غيرهم من مواطني البلاد واحدة، إذ انهمرت علي البرقيات بالآلاف تستنكر وتعرب عن دعمها ومساندتها. . . وهكذا لم ينجح الاستفزاز هذه المرة.

ولكن معارضي المجهولين لم يسكن قلقهم ولم يرضهم الوقوف عند هذا الحد. فبعد مرور بعض الوقت عرض التلفزيون السوفيياتي المركزي - ضمن برنامج «فريميا» («الوقت»)، وهو أمر نادر جداً - ريبورتاجاً مدته ساعة ونصف عن رحلتي إلى الولايات المتحدة. وكانت الفكرة الأساسية، التي من أجلها لُفّق الريبورتاج كله، لقائي بأساتذة معهد هوبكنز وطلابه. وقد رويت قبل قليل كيف تميّز برنامج رحلتي بالكثافة وضيق الوقت مما انعكس علي إرهاقاً وتعباً واضحاً لدرجة أنني ابتلعت إحدى الليالي حبي منوم حتى أغفو جيداً... لأوقظ في السادسة صباحاً، وفي الساعة كان موعد لقاء رسمي، ثم في الثامنة اللقاء في معهد هوبكنز. وعندما استيقظت شعرت بالوهن وعدم القدرة على الوقوف، فطلبت إلغاء اللقاء. قيل لي إن هذا غير ممكن وإن الداعين لن يتحملوا ذلك، فقلت يبدو أنني لن أتحمّل هذا اليوم. وهكذا، جمعت نفسي الواهنة تماماً وأجريت اللقاء الأول ثم الثاني، واسترجعت قواي في ما بقي من النهار مع ذهاب مفعول المنوم. وهكذا، فمن بين عشرات اللقاءات لم يعرض تلفزيوننا إلا هذا اللقاء على مشاهدنا السوفييات، ولست أدري من أين استحصل على التسجيل السيء، ولكن يمكنني التكهن.

فثمة تقنيون مختصون أجروا مونتاجاً لشريط الفيديو، فكانوا يبطئون مشهداً ما حيناً ويسرعون مشهداً آخر حيناً، وفق المراد، كما كانوا يمحون بعض الكلمات والحروف، وهو أمر أبلغني إياه مهندسو الفيديو العاملون في محطة أوستانكينو، وقد بعثوا برسالة أوضحوا فيها هذه المؤامرة إلى اللجنة التي شكّلت للتحقيق في التغطية الصحفية السيئة التي عوملت بها رحلتي. ولم يبذل أحد جهداً لكشف حقيقة أمر الشريط وراح كل شيء في غياهب الأدرج. أما الهدف الرئيسي

من كل ذلك فقد تحقق: تضليل الناس. ضلّل عدد قليل من الناس فكانوا يقولون: يمكن أنه كان فعلاً غموراً؟... ولم أعتبر من الضروري أن أفسر أو أبرر.

كان ذلك بالنسبة إلي درساً آخر. لا يجوز لي أبداً أن أتراخى أو أضعف ولو لدقيقة واحدة أمام هذا النظام الذي يكرهني ويحصى علي خطواتي ويتصيد كل حركة من حركاتي. ولو علمت أنني، وأنا في قارة أخرى، موضوع تحت الرقابة حتى في نومي، لما كنت... وماذا تنفع هذه الـ «لما كنت»؟، لما كنت ابتلعت حبة منوم واحدة؟. ولكن لا، لم أكن لأتحمل أن لا أنام. هل كان يجب الاعتذار عن إجراء اللقاء؟ وهذا أيضاً لم يكن ممكناً. كان يجب ألا أرهق نفسي في رحلة مكثفة البرنامج... بكل بساطة. عبرة للمستقبل سأراعيها.

وكان موعد الحادثة التالية! وقد كان وقعها موجعاً، ولم تكن سوى مؤامرة خالصة منظمة ومخطط لها مسبقاً.

إثر لقاء بناخبيّ توجهت إلى صديق قديم من سفيردلوفسك يقيم في بيت ريفي بقرية أوسلينسكوييه وهي من قرى المنطقة المحيطة بموسكو. وقبل وصولي إلى البيت بحوالى مائة متر أذنت للسائق بالرحيل، كما أفعل عادة حيث كنت أؤثر السير على الأقدام. رحلت السيارة (الفولغا) ولم أخطُ بضعة أمتار حتى ظهرت ورائي سيارة أخرى... وجدت نفسي أسبح في النهر... وإني هنا لا أنساق مع العاطفة كوني بقيت في تلك اللحظة على قيد الحياة، فلهذا حكاية أخرى تماماً.

كانت المياه باردة جداً. كادت رجلاي أن تتجمداً، أذ كنت بالكاد أستطيع تحريكهما سباحة نحو الضفة التي لا تبعد سوى أمتار. وما إن

وصلت إلى اليابسة حتى انهرت وبقيت على هذا النحو بعض الوقت
أحاول التقاط أنفاسي. وعندما نهضت جعلت أنتفض من لسعات
الهواء البارد الذي لا أعتقد أن حرارته بلغت أكثر من درجة صفر
مئوية. وأدركت أنني لن أستطيع بلوغ البيت وحدي فعرجت على
مخفر للميليشيا قريب.

وعرفني شبان الميليشيا على الفور، فلم يعمدوا إلى طرح أي أسئلة
لأنني قلت لهم للتو أنه لا ضرورة لإشاعة النبأ. وكنت أسائل نفسي،
فيما أرتشف الشاي منتظراً حتى تجف ثيابي قليلاً: أي حد بلغوه؟
ولكنني لم أقدم شكوى في المخفر. ووصلت بعد قليل زوجتي وابتنائي
لاصطحابي، ورجوت شبان الميليشيا مرة ثانية ألا يشيعوا الخبر.

ولكن، لماذا قرّرت التعتيم على الموضوع؟ لقد تراءت لي ردة فعل
الناس الذين يتحمّلون المؤامرات المحاكة ضدي بصعوبة وفراغ صبر،
بحيث لن يستطيعوا تقبل هذه الواقعة التي هدفت إلى تصفيتي
جسدياً. فقد كان من الممكن أن تُضرب مدينة زيلينوغراد، وفيها
أكثرية المؤسسات الدفاعية والإلكترونية والعلمية، احتجاجاً لتلحق
بها سفيردلوفسك - وفيها مؤسسات مماثلة كثيرة - ونصف موسكو على
الأقل. . . . وستكون النتيجة إعلان حالة الطوارئ في تلك المؤسسات
الاستراتيجية بسبب الإضرابات، مما سيشكل تربة خصبة لبدء فرض
«النظام الأبدي والمثالي». وينجم في نهاية المطاف أن البيروسترويك
«سبتلغ نهايتها بنجاح» لمجرد أن يلتسين أذعن للمؤامرة وانساق
معه.

قد يكون من الممكن أنني لست محقاً. ومن الممكن أن مبدأي
القاتل بإعلان الحقيقة دائماً أيضاً كانت وأينما كان على الناس لم يكن
ليخونني هذه المرة. وهذا هو بالتحديد ما كان يذهل ناخبي: إنني

أخفي شيئاً ما . . .

ومع ذلك، فقد كنت أعتقد أن الناس سيفهمون كل شيء من تلقاء أنفسهم، وقد ازداد هذا الاعتقاد رسوخاً عندما أعلن وزير الداخلية باكاتين أثناء دورة اجتماعات مجلس السوفييات الأعلى أنه لم تجر محاولة لاغتيالي، فسلق معلومات ملفقة في محاولة لإثبات ذلك. ولسبب ما ضلل باكاتين الناس حتى في المواقع التي كان يسهل جداً تحري الحقيقة والوقائع. فقد قال مثلاً أن المذدوف به من على الجسر إلى النهر لم يكن لينجوب بل إنه كان سيتحطم حتماً، حيث يبلغ الارتفاع ١٥ متراً. أما في الواقع فارتفاع الجسر لا يزيد عن ٥ أمتار، وحتى يبدو كلام الوزير صحيحاً فلا بد من إنشاء جسر جديد يعلو الجسر الراهن بعشرة أمتار، وهذا الأمر لا يريد أحد القيام به، حتى ولو كان القصد تسفيهه يلتسين وتحطيمه.

وبشكل عام كان لدي ثقة بأن الناس سيحسون بالكذب في كلام وزير الداخلية ومساعديه ويدركون ما حصل لي، كما سيفهمون الأمر الرئيسي حين قلت في الدورة نفسها إنه لم تكن هناك محاولة اغتيال.

ومع ذلك، يجب الاعتراف بإخلاص أن الاستفزاز آنذاك نجح . . . فقد أنبأني أعواني والرعب يملأهم أن شعبيتي مُنيت بهبوط شديد. فعلى هذه التربة الخصبة سرت شائعات تفيد أنني كنت متوجهاً إلى البيت الريفي الذي تقطنه عشيقتي، التي أفرغت علي لسبب ما الدلو بمائه! . . . والناس على استعداد دائماً لتصديق المخلّق . . . فمن الأسهل أن تصدق من ألا تصدق . . . ها هوذا الپيرسترويكي عشق فأطار العشق عقله . . .

وبرغم كل شيء، وكما يقول علماء الاجتماع الأذكاء، فقد تعاملت

بهذوء شديد مع هبوط مستوى شعبيتي، إذ كنت موقناً أن كل شيء سيعود إلى مكانه ولن يكون بإمكان الكذب أن يحول الناس عن تأييدي طويلاً. فما يُقَوِّم في نهاية المطاف المسائل الواقعية والنتائج الملموسة لا الإشاعات ولا الاختلاقات الكاذبة.

وبعد سباحتي القسرية في مياه النهر الجليدية بنحو أسبوعين أصبت بنزلة برد شديدة، ولذا فقد تابعت جزءاً من أعمال الدورة على شاشة التلفزيون. وكما اتضح فقد أصاب المشاهدين حزن كبير وخيبة أمل. فهم يعلمون أي وضع حاد تعيشه البلاد، وكم من المهم اللجوء إلى تدابير سريعة تنقذها من الأزمة المستشرية، وكيف أنه ما تزال هناك بعد فرصة لانتشالها من الهاوية. . ولكن الدورة المنعقدة لم تتخذ أي قرار حاسم، حيث تم تأجيل إقرار بعض القوانين الجذرية الأساسية إلى أجل غير مسمى. . ونحن نتوغل في اتجاه نقطة إذا بلغناها فلن تنقذنا منها أجراً القوانين وأكثرها تقدمية.

وإني لأذكر كيف تصدّى يوري أفاناسييف بحدة ومنهجية في أول اجتماع للمندوبي مؤتمر الشعب، فوصف مجلس السوفييات الأعلى المنتخب بأنه ستاليني - بريجنيفي حقاً. ومع احترامي الكبير له فإنني لا أوافق على هذا الوصف. فمجلسنا السوفيياتي الأعلى ليس ستالينياً - بريجنيفياً فهذا الوصف تعظيم له، أو قل عكس ذلك، إنه على الأرجح مجلس غورباتشوفي. فهو - أي المجلس - يعكس بالكامل شخصية رئيسنا لجهة عدم الاتساق والخوف وحب أنصاف الحلول وأنصاف القرارات. فمعظم الخطوات تأتي متأخرة عن وقتها كأنها ردات فعل على الأحداث الواقعة. . إنه كرئيسنا.

ولهذا السبب تحديداً لم يفلح مجلس السوفييات الأعلى عملياً في حل أي من المشكلات المطروحة أمامه. حتى تلك القوانين التي حُضِرَت

ونوقشت في اللجان - كقانون الصحافة وغيره من القوانين التي تلبي التزاماتنا السياسية تجاه اتفاقية فيينا، عنت قانون الخروج والدخول من البلاد وإليها - فقد أرجئت ولم تقر.

بعد انتهاء دورة الخريف، وبما يشبه العبرة التي ينبغي لنا أن نتعلم منها، انهارت الاشتراكية التوتاليتارية، التي أقامها ستالين عقب الحرب، في ثلاثة من البلدان الاشتراكية. وبما يشبه أيضاً السخرية والضحك على سنوات أربع من الپيرسترويكا في بلادنا، انتقلت خلال أيام معدودة كل من جمهورية ألمانيا الديمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا من مجتمع الماضي إلى مجتمع طبيعي إنساني متحضر. . بحيث لم يعد واضحاً، الآن، هل ستمكن من اللحاق بها يوماً ما؟

تخطيط جدار برلين، قواعد جديدة للخروج والدخول، قوانين المطبوعات والمنظمات الاجتماعية، إبطال المواد الموجودة في الدستور عن الدور القائد للحزب الشيوعي، استقالة اللجنة المركزية، عقد مؤتمر استثنائي للحزب، إدانة اجتياح تشيكوسلوفاكيا كل ذلك كان يجب أن ينفذ منذ أربع سنوات، وبدلاً من ذلك راوحنا مكاننا وأصابنا الرعب، فكنا نخطو خطوة إلى الأمام لنعود خطوتين إلى الوراء.

إنني سعيد جداً بما جرى من تغيرات عند جيراننا من البلدان الاشتراكية. . وإني لسعيد لهم. . ويخيل إلي أن هذه التغيرات ستجبرنا على إعادة تقويم ما نطلق عليه بفخر الپيرسترويكا. وسندرك قريباً أننا بتنا عملياً الدولة الوحيدة في العالم التي تحاول دخول القرن الواحد والعشرين بإيديولوجيا منتمة إلى القرن التاسع عشر، إيديولوجيا عاشت حياتها وانتهت. وقريباً سنصبح آخر سكان

بلد انتصرت فيه الاشتراكية علينا، كما قال أحد الأشخاص الأذكياء!

... وهاكم آخر أحداث وقعت. ثمة شائعات تسري في موسكو تقول إن دورة اللجنة المركزية المقبلة ستشهد انقلاباً، إذ أنهم يريدون خلع غورباتشوف من منصبه كأمين عام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي وإبقائه رئيساً لندوبي الشعب. إنني لا أصدق هذه الشائعات، ولكن إذا كان هذا ما سيحصل فعلاً فإنني سأخوض نضالاً لا هوادة فيه للوقوف بجانب غورباتشوف في دورة اللجنة المركزية... نعم الوقوف بجانبه، وهو معارضي الدائم، عاشق أنصاف الخطوات وأنصاف التدابير وأنصاف القرارات. إن تكتيكه هذا سيقضي عليه إن هو لم يتدارك الأمر، بالطبع، ويفهم أنه يشكل خطئه الأكبر. ولكن، الآن، وحتى انعقاد أقرب مؤتمر يمكن أن تبرز فيه قيادات جديدة، يبقى هو الشخص الوحيد الذي يمكنه الإمساك بالحزب ومنعه من الانهيار الكامل. من المؤسف أن اليمينيين لا يفهمون هذا. فهم يعتبرون أن بوسعهم إعادة التاريخ إلى الوراء بواسطة تصويت ميكانيكي يتم برفع الأيدي. ولا ريب أن دوران الشائعات إياها لا يخلو من الدلالة، وبلادنا الواسعة الهائلة تتأرجح على أحد السيف، ولا أحد يعرف ماذا سيحدث فيها غداً.

ولعل وضع قارئ هذا الكتاب أسهل من وضعي وأخف وطأة، فهو يعرف ماذا جرى غداً وأين أنا وماذا حصل لي.

إنه يعرف ماذا حلّ بالبلاد، وماذا حلّ بنا جميعاً... .

الفهرس

٥	مقدمة الطبعة العربية
١٥	كلمة من المؤلف
	يوميات الانتخابات
١٧	٢٥ آذار (مارس) ١٩٨٩
	يوميات الانتخابات
٣٣	١٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٨٩
	يوميات الانتخابات
٣٧	١٩ شباط (فبراير) ١٩٨٩
	يوميات الانتخابات
٤٩	٢١ شباط (فبراير) ١٩٨٩
	يوميات الانتخابات
٨١	٢٢ شباط (فبراير) ١٩٨٩
	يوميات الانتخابات
٩٥	٦ آذار (مارس) ١٩٨٩
	يوميات الانتخابات
١٢٥	١٠ آذار (مارس) ١٩٨٩
٢٥١	

يوميات الانتخابات

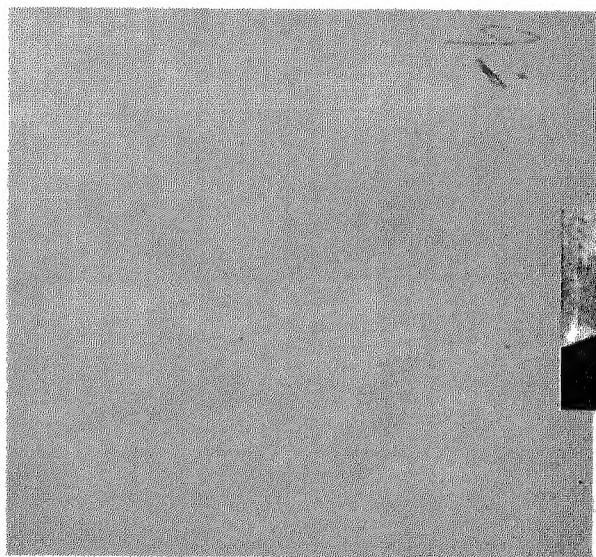
١٦٧ ١٩٨٩ ١٣ آذار (مارس)

يوميات الانتخابات

١٩٧ ١٩٨٩ ٢٦ آذار (مارس)

يوميات الانتخابات

٢٢٧ ١٩٨٩ ١٠ آذار (مارس)



85

